توظيف العقيدة

الدكتور

محمد الجزار

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م

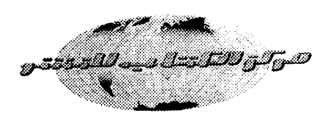


حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيـــداع : ٢٠٠٦/١٩٦٦٠
الترقيم الدولى :

977 - 294 - 369 - 7

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م



مصـــر الجديـــدة: ٢١ شـــارع الخليفـــة المأمـــون - القاهـــرة
تليفـــون: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكـــس: ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس- المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

http://www.top25books.net/bookcp.asp.
E-mail:bookcp@menanet.net

المحتويات



المقدمة

قبل الدخول فى القصص والروايات، وسرد بعض ما فى كتب التاريخ من حكايات، عما قام به الإنسان فى ستر ما بداخله من غرائز وملمات، من أنانيـــة وحب السيطرة، وإظهار– فقط – الالتزام بالعقائد والحسنات، نبدأ بشرح معنـــى عنوان الكتاب: "توظيف العقيدة". فكلمة وظيفة مشتقة من وظف، ووظف الشىء أى ألزمه بعمل يجنى من ورائه عائداً مادياً أو معنوياً. أما كلمـــة عقيـــدة فهـــى مشتقة من العقد، وكلمة العقد كما جاءت فى قاموس "لسان العرب" تعنى العهـــد، والجمع عقود، والمعاقدة تعنى المعاهدة، وتعاقد أى تعاهد . ومعنى اعتقد الشىء كما جاء فى "معجم مقاييس اللغة " فهو صَلُب واشتد وثبت. وعلى ذلـــك يكـــون معنى كلمة عقيدة: التصديق على الشئ والمعاهدة بشدة وقوة، وثبـــوت الفكـــرة . أما معنى "توظيف العقيدة" كما استهدفته الفصول التالية فهو استغلال العقيـــدة – أياً كانت دينية أو غير دينية – من أجل المصالح الفردية أو الجماعية البعيدة عن الفكرة المعلنة أو الصورة الظاهرة.

هل كانت جميع الحروب والصراعات الدينية/ العقائدية خالـــصة النيـــات ؟ أين موقع المصالح الشخصية ، وأهواء النفس البشرية ، والمكاسب المادية مـــن دوافع الإنسان فى أكاذيب ادعاء الجهاد من أجل إعلاء العقيدة ؟ ... كان الإنسان دوماً يستخدم العقيدة ليتزين بها ويحسن من صورته أمام غيـــره مـــن البـــشر، بالرغم من أن جميع البشر تكمن فى داخلهم مختلف الغرائز، ويمتلكون كلا مـــن الشر والخير، ويمارسون السيئات مع الحسنات. جرت الـــشعوب وراء رمـــوز، وشعارات "الشعب المختار"، "خير أمة"، "الجنس المميـــز " متناســـية أن جميـــع الشعوب تحوى فى تكوينها وتشكيلها المؤمن والكافر، الـــذكى والغبـــى، الخيـــر والشرير، الصالح والطالح، فالجنس البـــشرى بـــصفة عامـــة يتميـــز بالتبـــاين

والاختلاف فى الشكل والطباع والذكاء، وكل الصفات والسمات التى تميز كل فرد عن الآخر.

من منظور شامل للعقيدة فى الثقافات الأخرى، فإن كلمة عقيدة فى اللغة الإنجليزية هى Doctrine، وتعنى صياغياً وأدبياً، تعليم أو تلقين الدرس بصفة عامة، والتعليم الدينى/اللاهوتى بصفة خاصة. فالعقيدة فى الثقافة الغربية كما هى فى الثقافة الشرقية هى الإيمان بشدة، والتصديق الخالص على فكرة أو مجموعة أفكار. وتنتقل هذه الأفكار من شخص لآخر أو من مجموعة لأخرى لتصبح جزءاً من ثقافتهم ، يخلص لهذه الفكرة الفرد والجماعة ويبذل فى سبيل نشرها أو الدفاع عنها كل فكر ومجهود، والدخول – إذا لزم الأمر – فى صراع وقتال، والموت فى سبيل تعميمها وإنجاحها أو الذود عنها . لقد تغلغلت العقيدة، خاصة العقيدة الدينية فى جميع عناصر الثقافة، من عبادات وابتهالات،وفى المأكل والمشرب ، وفى ارتداء الملابس، وأسلوب المعيشة، وفى اختيار أيام العمل وأيام الراحات، وفى الاستمتاع بالملذات أو الامتناع عنها، وفى الاقتران بالطرف الآخر أو الانفصال عنه، ثم أصبحت العقيدة فى عصرنا الحالى تبرر وتفسر أسباب الظواهر الطبيعية، وتقوم بإثبات القوانين الفيزيائية والكيميائية . لقد تحولت العقيدة فى الثقافة الشرقية إلى منظومة ديكتاتورية تُسير حياتنا فى جميع المجالات، وللأسف استغل بعض من الناس سيطرة العقيدة على قطاع كبير من البشر لتوجيههم بما فيه فائدة ونفع لمصالحهم الشخصية.

إذا كانت العقيدة هى فكر راسخ، فالفكر بمعناه الشامل هو عملية عقلية، يختص من المنظور الفلسفى بالدراية والفهم والإدراك، ويمكن دراسة مضمون الفكرة من خلال الأهداف والمقاصد التى تجعل الإنسان يهتم بها، وتخلق دوافعه ومشاعره. بعد التطور فى مجال العلم، ظهرت فى القرن العشرين نظريات حديثة عن مفهوم الفكرة، من أهمها نظرية اليقين المنطقى. طالبت هذه النظرية

باختبار يقين الأفكار، وإثبات حقيقة معناهـا ومغزاهـا. تقتنـع هـذه النظريـة فقط بالإحساس بالتجربة التى تنتج عن الفكرة، لمعرفة معناها واختبار حقيقتهـا ودرجة يقينها، وإذا لم ينتج عن الفكرة تجربة عملية وواقعية، فالفكرة من وجهة نظر هذه النظرية ليست لها معنى، وتعتبر فكرة لا تصل إلى مستوى اليقين. من هذا المنطلق تكون جميع الأفكـار الخاصـة بمـا وراء الكـون – ميتافيزيقيـا Metaphysics – وخلافه من الأفكار المماثلة، كلها أفكـار ليـست لهـا يقـين منطقى، حيث إن جميع هذه الأفكار غير خاضعة للتجربة العمليـة والإحـساس المادى.

يحرك الإنسان دائماً دافع يتمثل فى طاقة داخلية تدفعه إلى القيام بسلوك أو نشاط معين، لتحقيق هدف أو إشباع هذا الدافع. والدوافع كثيـرة منهـا الـدوافع الشعورية Conscious Motives, وهى التى يشعر الفـرد بوجودهـا داخلـه، ودوافع لا شعورية Unconscious Motives، لا يشعر الإنسان بأنها موجـودة لديه، ولكنها تدفعه لسلوك معين لتحقيق هدف محدد يصبو إليه، ويحتـوى كـل منهما-شعورية ولا شعورية-على دوافع خفية، يحاول الإنسان ألا يظهرها خجـلاً أو موارياً. قامت كثير من الحروب من أجل المغانم والأسلاب، وكانت أسـبابها الظاهرة والمعلنة هى الدفاع عن العقيدة أو نشرها. رفـع الـضعيف والجاهـل والمنافق أكثر من ديكتاتور، يطغى فى حكمه، يـصفى أرواح ويعـذب أبـدان، ويكتم أنفاس من تطلع إلى استنشاق رحيق الحرية أو التعبير عن مـا بداخلـه، والسبب الظاهر والمعلن هو الحفاظ على الأمن القومى، أو من أجل سلام وأمان الدولة، أو التضحية بالحرية والديموقراطية من أجل إحياء إمبراطورية. أصبحت كتب التاريخ مليئة بقصص وروايات عن توظيف العقيدة وبالرغم من ذلـك لـم يتعظ البشر، ولم يبذل الإنسان جهداً لتحليل الدوافع الفعلية، لتقييم صـحة هـذه الدوافع، واتخاذ قرار رد الفعل القائم على وضوح الرؤية التى يحاول الكثير منا حجبها أو تعتيمها.

وأخيراً سيتعرض الكتاب لأحداث مختلفة ومتفرقة لتوظيف العقيدة على مر العصور، بدءاً بقيام كهنة اليهود بنشر التوراة بعد أن ارتد الشعب اليهودى عن عبادة يهوه. لم يكتف زعماء اليهود بذلك بل قاموا باستغلال العقيدة الدينية لحث الشعب للعودة إلى أوطانهم بعد السبى الآشورى لليهود على يد شلما نصر عام٧٢٢ قبل الميلاد، بعد أن قام بتهجير سكان السامرة من بنى إسرائيل فى شمال فلسطين إلى آشور وميديا وشمال سوريا، وتوطين مجموعات سكانية من شمال سوريا وبابل وعيلام مكانهم. تكررت الأحداث فى السبى البابلى الذى قام به بنوخد نصر عام ٥٨٦ قبل الميلاد، بتهجير اليهود من سكان أورشليم وإقليم يهوذا إلى بابل. أما فى العصور الوسطى فسيتعرض الكتاب للحروب الصليبية فى بلاد الشام ومصر، وكذلك عصور المسلمين فى بلاد الأندلس. وفى القرن العشرين قامت حروب وصراعات من أجل إحياء امبراطوريات اندثرت، وقتال وتدمير صبغ بالعقيدة الدينية.

وأخيراً اندلعت حروب فى العقود الأخيرة امتزجت فيها العقيدة بأهداف أخرى سياسية، واقتصادية، وقومية، وعرقية. كثرت الاجتهادات، كلاً يفسر النص أو يحلل الأسباب حسب هواه ومصالحه. وتشابكت الخيوط، وأصبح الحد الفاصل بين الجهاد والإرهاب باهت وغير واضح، خاصة للجهال، وما أكثرهم بين البشر.

العقيدة الدينية

أُطلق اسم الرب God، الله، الإله، خالق الكون على أقصى قوة عظمى مطلقة فى الكون. تقوم الأديان على عبادة الإله، وتكرس له الحب، والطاعة، والتقوى، والورع، والصلاة، والإجلال، والتعظيم، والإيمان بقدرته على فعل كل شيء وأى شيء. الإله هو من يميل إليه الإنسان، ويعتمد عليه المؤمن، إنه إيمان صادر من الذات الداخلية / العاطفية أكثر من الإيمان التحليلى المرتبط بالتجارب والبراهين العلمية والمعملية. الإيمان الحق هو عقيدة راسخة فى مكنون الذات البشرية، وثقة مطلقة – فى من نؤمن به – بدون شك أو ارتياب، وإخلاص تام نابع من نية صافية ومجردة من أية شوائب أو انتظار منفعة أو خوف من عقاب. يرجع إلى الذات الإلهية، القوة المطلقة التى خلقت الكون، والطاقة اللانهائية التى تسيره.

بدأت فكرة الإله من المنظور الفلسفى – قبل نزول الأديان السماوية – عندما واجه الإنسان الأول ظواهر طبيعية لم يجد لها تعليلا أو سببا من منطلق العقل البدائى الخالى من التجارب والخبرات المتطورة. قام الإنسان بتكوين صورة عن إله غير محدد، له رهبة، غامض، لا يمكن معرفة شىء عن أصل وجوده، أو ما يقدره للكون وللإنسان. نبعت من الفكرة الأصل، صورة أخرى لإله يمكن أن يخيف البشر ويدمرهم بالمرض والموت والظواهر الطبيعية مثل الرعد والبرق والزلازل. من هذا المنطلق نبعت فكرة إله الشر المقابل لإله الخير الذى يشفى المريض ويداوى الجروح وينقذ البشر من الكوارث التى تحل بهم. كان تصور إنسان الحضارات الأولى بأنه إذا تواجد إله للشر مع إله الخير، فلا بد أن يتصارع الإلهان، كما أنه من الممكن أن يتواجد آلهة كثيرة، يعنى كل إله بموضوع من المواضيع الخاصة بالحياة البسيطة التى يحيا بها ومن خلالها الإنسان، مثل

إله الإخصاب، وإله الحصاد، وإلــه الصيد ... الخ ، ثـم تطــورت صــور الآلهه فتخيل الإنسان إلهاً للحكمة، وإلهاً للجمال، وإلهاً للحـرب، ... إلى آخـره من الصور المتعددة للآلهة.

فـى قـديم الزمــان، كانــت المجتمعــات روحانيــة الطــابع Animistic، أى تعتقد فى أن كل مـا فى الكــون – وحتــى الكــون ذاتــه – له روح أو نفــس، وأن الــروح أو الــنفس هــى المبــدأ الحيــوى المــنظم للكون، فــالكون مــسكون بأعــداد لا تحــصى مــن الأرواح، الخيــرة منهــا والشريرة، العطوفة على البــشر أو التــى تتــربص بهــم لتنــال مــنهم شــرا وانتقاما. لقد تعود الإنسان – فى مخيلته ومــن منظــوره القــديم –أن يتعــايش مع هذه الأرواح، إما بطريقتــه الشخــصية أو عــن طريــق الــسحرة الــذين استغلوا سذاجة الكثير مــن البــشر لتقــديم القــرابين إلــى الأرواح الــشريرة منعا لشرها، أو للأرواح الخيرة انتظــارا لخيرهــا. ومــن الــسحرة والكهــان انبعثت فكرة الدين فى الحــضارات القديمــة. لقــد تعــددت الأرواح والآلهــة فى المجتمعات والثقافات القديمة، ولكن أيضا راود فكــر الكثيــر مــن البــشر فى العصور القديمة وجود إلــه واحــد قــوى، أعلــى مــن الآلهــة الأخــرى ومتفوق عليهم فبدأت فكــرة التوحيــد والإيمــان بإلــه واحــد Monotheism حتى قبل نزول الأديان السماوية.

عرفت الموسوعة الأمريكيــة Encyclopedia Americana الــدين بأنــه: (شكل أو نموذج مــن الإيمان والممارسة، مــن خلالــه يعيش المرء التجربــة، أو يأمل فى خوض تجربــة خارج نطاق تجــارب العالــم المــادى التقليــدى). الدين هو من الأمور النموذجية التى يركز فيهــا الإنــسـان فــى المطلــق / المجرد، من خلال الإيمان الكامل بالإله، وعبادتــه وطاعتــه. يتجلى الديــن فى عدد من العقائد، والتــى يمكــن تــصنيفها إلــى عقائــد تــؤمن بالتوحيــد Monotheism أى الإيمان بإلــه واحــد، وعقائــد تؤمــن بتعدد الآلهــة. مــن

عقائد التوحيد الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام. بجانب الأديان السماوية، يوجد الكثير من العقائد الدينية التى نبعت من الهند والصين وبلاد الشرق الأقصى عامة مثل: البوذية، والهندوسية، والكنفوشيوسية، والشانتورية، والسيخ وغيرها من الأديان غير السماوية الأخرى. بالإضافة إلى ذلك يوجد الكثير أيضا من الديانات الفطرية / البدائية التى تنتشر فى جزر المحيط الباسيفيكى، وفى إستراليا، وفى بعض البلاد الأفريقية. فى العصور الحديثة لم تظهر أديان غير سماوية جديدة ولكن اندثر الكثير من الأديان غير السماوية التى كانت منتشرة فى الحضارات القديمة فى الشرق الأوسط والأدنى، وفى أوروبا، وفى القارة الأمريكية قبل اكتشافها.

انتهى عصر الشك والإلحاد فى الحضارة الغربية والذى لازم عصر العلم والتكنولوجيا بدءا من القرن السابع عشر، وتشكل منظور جديد للدين . كتب أوليفر ليمان فى كتاب " مستقبل الفلسفة فى القرن الواحد والعشرين " عن المنظور الفلسفى الحديث للدين: (ظهر منهج آخر لفلسفة الدين فى القرن العشرين، وهو التأكيد على الجوانب العقلانية من الدين. فالدين شكل من أشكال الحياة، ونهج للسلوك، وإنه من الخطأ أن نراه مرتبطا بقائمة معينة من الفرضيات. هذه هي الطريقة التى يميل الفلاسفة إلى أن يروه بها، حيث إن الفلاسفة يفضلون أن يجزئوا الأشياء أو يقسموها وفقا لفرضياتهم الأساسية، لكن الاعتقاد الدينى هو مسألة التزام بطريقة للحياة، وليس سلسلة من المعتقدات المحددة ... وإحدى مزايا وجهة النظر التى تأخذ بالاعتقاد أو الإيمان الدينى على أنه يتعلق بالسلوك أكثر من تعلقه بالاعتقاد، هى أنها تجنب المرء هذه الأنواع من المشكلات. فالدين إذن هو مسألة سلوكنا بطريقة معينة ووجود قواعد محددة وطرق لنسلكها تلائم هذا النمط من النشاط الإنسانى. والدين هو فى الحقيقة

مصطلح يمكن الاستعاضة عنه أو استبدال عدد من الأفكار الأخرى بـــه، وهى الأفكار المتعلقة بالكيفية التى نرى بها الحياة). لقــد انــزوت مــن مضمون الثقافة الغربية رموز عديدة من العقيدة الدينيــة، مثــل التزمــت والجمود الدينى، والتصوف الانطوائى. تباعد الفرد فى هذه الحضارة عن كبت الأحاسيس، وعن وأد الرغبات والشعور المادى، فالإنسان الآن يعيش حياته بما فيها من تجارب لينة وأخرى قاسية، يتواكب مع الخير، يعطــى للعمل حقه، ولبدنه حقه، ولرواحة النفس حقها.

أرض الميعـــاد

كانت التوارة والكتب اليهودية الدينية الأخرى هى دوما المحرك والدافع لبنى إسرائيل على مدى أكثر من ثلاثة آلاف عام، بدءا من تشكيل كيان خاص بهم وحتى إنشاء دولة إسرائيل قبل حلول منتصف القرن العشرين، وبعد توظيف مكثف للعقيدة لتجميع يهود الشتات من جميع بلاد العالم للعودة إلى أرض الميعاد؛ حلم بنى إسرائيل. تتمثل فى هذه البقعة الضيقة من الأرض الواقعة فى شرق البحر المتوسط، أطول صراع فى تاريخ البشرية دام ما يقرب من أربعة آلاف سنة، وشهدت ميلاد ديانيتين – اليهودية والمسيحية – وشكلت ثقافات نصف سكان العالم الحديث.

وفقا للعقيدة اليهودية وكما جاء فى التوراة، وعد الرب بنى إسرائيل بأرض الميعاد، يحثهم على الخوض فى المعارك بدون خوف أو كلل للحصول على الأرض. جاء فى سفر التثنية: (فذهب موسى وكلم بهذه الكلمات جميع إسرائيل وقال لهم: أنا اليوم ابن مئة وعشرين سنة، لا أستطيع الخروج بعد، والرب قال لى لا تعبر هذا الأردن. الرب إلهك هو عابر قدامك. هو يبيد هؤلاء الأمم من قدامك فترثهم. يشوع عابر قدامك كما قال الرب. ويفعل الرب بهم كما فعل بسيحون وعوج ملكى الأموريين اللذين أهلكهما وبأرضهما. فمتى دفعهم الرب أمامكم تفعلون بهم حسب كل الوصايا التى أوصيتكم بها. تشددوا وتشجعوا. لا تخافوا ولا ترهبوا وجوههم لأن الرب إلهك سائر معك. لا يهملك ولا يتركك. فدعا موسى يشوع وقال له أمام أعين جميع إسرائيل: تشدد وتشجع لأنك أنت تدخل مع هذا الشعب الأرض التى أقسم الرب لآبائهم أن يعطيهم إياها وأنت تقسمها لهم. والرب سائر أمامك. هو يكون معك. لا يهملك ولا يتركك. لا تخف ولا ترتعب...). لأن الرب – حسب عقيدتهم – دائما معهم، فان تشتتوا فمن أجل أن يتعلموا الصبر والجلد، وإن انتصروا فلأن الرب قد وعدهم بأرض الميعاد.

كيف ولماذا ظهرت التوراة ؟ ... يجيب ول ديورانت عن هذا السؤال فى موسوعته " قصة الحضارة "... : (كان أهم أثر للأنبياء فى معاصريهم هو كتابة التوراة. وكان سبب كتابتها أن الشعب شرع يرتد عن عبادة يهوه إلى عبادة الآلهة الأجنبية، فأخذ الكهنة يتساءلون ألم يأن لهم أن يقفوا وقفة قوية يمنعون بها تدهور العقيدة القومية. ورأوا الأنبياء يعزون إلى يهوه ما يجيش فى صدورهم من عواطف يؤمنون بها ويعتقدونها، فاعتزموا أن يبلغوا الناس رسالة من الله نفسه فى صوره سنن إلهية تبعث النشاط والقوة فى حياة الأمة الخلقية، ويضمنون بها معونة الأنبياء، ذلك بما تتضمنه من آرائهم القليلة التطرف. وسرعان ما ضموا إلى جانبهم الملك يوشيا. فلما كانت السنة الثامنة عشرة أو نحوها من حكمه أبلغ الكاهن خلقيا الملك أنه وجد فى سجلات الهيكل ملفا عجيبا قضى فيه موسى نفسه فى جميع المشكلات التاريخية والخلقية التى كانت مثار الجدل العنيف بين الأنبياء والكهنة. وكان لهذا الكشف أثر عظيم فى نفس القوم، فدعا يوشيا كبارهم إلى الهيكل وتلا عليـــــهم فيه " سفر الشريعة " فى حضرة آلاف من الشعب، ثم أقسم ليطيعن من ذلك الوقت ما جاء فى هذا السفر... وليس ثمة ما يضطرنا إلى أن نفترض أنه قد وضع فى تلك الساعة، فكل ما فيه أن يقنن ويسجل أوامر ومطالب ونصائح نطق بها خلال عدة قرون أنبياء بنى إسرائيل وكهنة المعبد. ومهما يكن مصدرها فإن الذين استمعوا لها وهى تُقرأ عليهم، أو سمعوا بها ولم يكونوا حاضرين وقت قراءاتها، قد تأثروا بها أشد الأثر. واغتنم الملك يوشيا هذه الفرصة السانحة فاستعان بهذه العواطف الجياشة على تحطيم مذابح الآلهة المنافسين ليهوه فى يهوذا).

بعد أن تمت الإجابة عن السؤال الأول ننتقل إلى السؤال الثانى وهو: ما هى مصادر التوراة ؟ ... جاء فى موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية – الجزء الخامس " أن نقاد العهد القديم قد اتفقوا على أن التوراة من أسفار موسى الخمسة، وسفر يشوع بن نون ترتد إلى أربعة مصادر رئيسية وهى:

١ – المصدر اليهوى: يحمل هذا المصدر اسم الإله يهوه، وقد يعود إلـى القـرن التاسع أو العاشر قبل الميلاد، وكان رواته من المملكة اليهودية الجنوبيـة، والإله فى هذا المصدر يتعصب دائما لليهود، ويناصرهم على أعدائهم، وله سمات بشرية، فهو يغار منهم ويخشى أن يصبح الإنسان عـاقلا أو قويـا، وهو يصارع يعقوب ولكن يعقوب يهزمه فيتغير اسمه مـن يعقـوب إلـى إسرائيل، وتعنى الكلمة الذى صارع الإله وهزمه. إن القيمة الأخلاقية فـى هذا المصدر ليست سامية، فبنات لوط يضاجعن أباهم بعد أن أشربنه خمراً، وإبراهيم يكذب على فرعون ويطلب من زوجته سارة أن تدعى أنها أختـه على لا يتعرض إلى أذى فرعون فيقتله حتى ينالها، وتطلب زوجة إسـحق من ابنها يعقوب أن يخدع أباه، بعد أن ألبسته ثياب عيـسو ابنهـا الأكبـر وألبست يديه وعنقه جلود الماعز حتى يصبح أشعر مثل أخيه، فيأخذ بركـة أباه إبراهيم الذى ضعفت عيناه. يتـأثر هـذا المـصدر بـالأدب الـشعبى والقصص المتداولة بين الشعوب التى عاش بينها اليهود، كما يـشير إلـى أرض كنعـان باعتبارهـا أرض الميعـاد التـى يجـب أن يعـيش فيهـا بنى إسرائيل.

٢– المصدر الإلوهيمى : يحمل هذا المصدر اسم " إلوهيم " باعتباره اسم الإله بدلا من اسم "يهوه" ، ويرى الباحثون أنه قد يكون قد كتب حوالى ٧٧٠ قبل الميلاد فى المملكة الشمالية. يصور هذا المصدر الإله فى صورة أسمى، ففيه يتسامى الإله عن صفات وعواطف البشر. فى هذا المصدر تنسب النبوة إلى إبراهيم ويوسف وموسى، وفيه يعلن بنو إسرائيل توبتهم وندمهم على ما اقترفوه من أخطاء، فينالون العفو الإلهى. والمصدر الالوهيمى ينظر إلى المصريين نظرة أكثر تسامحا عن الفترة التى قضوها بينهم كعبيد.

٣– مصدر التثنية: ينسب هذا المصدر إلى تثنية الشريعة، وقد أدخل فى العهد القديم " التوراة " حول عام ٦٢١ ق.م ، وفيه يمتزج المصدران السابقان،

وهو صادر من مناخ مرتبط بالإصلاح الدينى. جاء فى هذا المصدر أن الملك يوشيا (٦٤١ – ٦١١ ق.م) – أى بعد وفاة موسى بحوالى ٧٠٠ عام – أرسل أحد أتباعه إلى الكاهن الأعظم ليحسب النقود التى دفعها زوار الهيكل، فوجد توراة موسى فى بيت الإله وندموا على أنهم كانوا قد نسوها. كان هذا النص يمثل رد فعل للغزو الثقافى الآشورى الذى اكتسح اليهود فى ذلك الوقت فانصرفوا عن عبادة يهوه، لذا كان للكهنة والأنبياء أن يعودوا إلى الدين والإيمان به.

٤- المصدر الكهنوتى: يعود تاريخ هذا المصدر إلى ما بعد فترة التهجير البابلى، ويضم أساسا قوانين اللاويين والإحصاءات والأرقام التى وردت فى أسفار موسى الخمسة، كما يضم بعض الروايات التى وردت فى سفر التكوين والخروج والعدد. يستخدم هذا المصدر القصص كإطار للشرائع، بهدف إعطاء القوانين والشرائع صفة القدسية. الإله فى هذا المصدر هو خالق كل شىء، وهو حاضر فى كل مكان وفى كل زمان. يتسم هذا المصدر بالصياغات المنطقية، لذا فقد يكون مؤلفوه يتمتعون بثقافة عالية، وتفكير منطقى.

تتداخل وتمتزج المصادر بمتناقضاتها لتكون ما يسمى بالعهد القديم Old Testament، أو التوراة Torah (بمعنى العلم، أو الشريعة أو الأوامر الإلهية)، أو الكتب المقدسة. ينقسم العهد القديم على الأقسام التالية:

أولا: أسفار موسى الخمسة وهى:

١. سفر التكوين Genesis: ويحكى بدء تكوين الكون من أرض وسماوات، وقصة آدم وحواء، وقابيل وهابيل، وقصة نوح والطوفان، وقصص الأنبياء من إبراهيم، ثم إسحق، ثم يعقوب، ثم قصة يوسف وأخوته ومحاولة اغتياله واستقراره فى مصر، وعلاقته بفرعون مصر.

٢. سفر الخروج Exodus: يحكى هذا السفر قصة موسى، وقتله للمصرى ثم هروبه إلى أرض سيناء، والوحى الإلهى الذى جاءه فى سيناء لمساعدة أهله من بنى إسرائيل للخروج من مصر والعودة إلى أرض الميعاد، ثم أحداث عملية الخروج من ابتلاء لشعب مصر حتى يترك فرعون شعب إسرائيل ليعود إلى أرض الميعاد، ثم تلقى موسى الوصايا العشر فى أرض سيناء، وقصة عبادة العجل الذهبى، وغضب الرب على بنى إسرائيل ليتوهوا فى الأرض قبل أن يتوجهوا إلى أرض الميعاد.

يرى علماء الكتاب المقدس أن سفر التكوين وسفر الخروج قد يكونا قد وضعا نحو القــرن التاسع قبل الميلاد، أى بعد عهد موسى بحوالى خمسة أو ستة قرون.

٣. سفر الآويين Leviticus: يتناول هذا السفر شئون العبادات، وكل ما يتعلق بالأعياد والأضحية والقرابين، والمحرمات من الحيوانات والطيور، وما يتعلق بالطهارة، والتعاليم الأخلاقية والنظم الاجتماعية، والتعليمات الخاصة بخيمة الاجتماع. يرى بعض علماء الكتاب المقدس أن هذا السفر تجميع لوصايا متفرقة قد كتبت على حدة فى بداية الأمــر، ويرى بعض آخر أن السفر كله لم يكتب إلا بعد التهجير البابلى فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

٤. سفر العدد Numbers: يشتمل هذا السفر على إحصاءات عن قبائل العبرانيين وجيوشهـــم وأموالهم، كما يشتمل على بعض أحكام العبادات والمعاملات. يرى المختصون أن هذا السفر قد دُوِّن بعد التهجير البابلى فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

٥. سفر التثنية Deuteronomy: ويسمى باللغة العبرية " ديفاريم " أى الكلمات، ويسمى أيضـــا "مشنا توراة " ومعناها إعادة الشريعة على بنى إسرائيل مرة ثانية عند خروجهم من سيناء. يتكون هذا السفر من مراجعة

موسى لما حدث منذ عبوره أرض سيناء، ونصائح موسى الأخلاقية وخطبه الأخيرة، كما يحتوى أيضا على أفعال موسى الأخيرة وسرد لأحداث موته.

ثانيا: أسفار الأنبياء:

يتضمن هذا القسم كل ما وقع لبنى إسرائيل من أحداث بعد موت موسى وحتى هدم الهيكل المقدس، وبذلك فإنه يغطى الفترة ما بين ١٣٠٠ ق.م إلى ٢٠٠ ق.م تقريبا، وهو ينقسم إلى قسمين:

١. الأنبياء الأولون وعدد أسفاره ستة وهى: سفر يشوع بن نون وقصة احتلال بنى إسرائيل لأرض كنعان وتقسيم الأرض بين الأسباط أو القبائل المختلفة. وسفر القضاة الذى يذكر أسماء القضاة وتاريخ بنى إسرائيل فى عهدهم، وانتصارهم على أهل فلسطين. وسفرا صموئيل الأول والثانى اللذان يتعرضان إلى تأسيس المملكة اليهودية المتحدة، وقصة داود. وأخيراً سفرا الملوك (الأول والثانى) وهما يغطيان فترة حكم داود وسليمان وسقوط المملكة اليهودية الشمالية ثم المملكة اليهودية الجنوبية.

٢. الأنبياء المتأخرون وعدد أسفاره خمسة عشر سفرا، ويضم هذا القسم مجموعة من النبوءات والمواعظ والقصص. يحكى هذا القسم أيضا تاريخ العبرانيين منذ ظهورهم فى التاريخ حتى عودتهم من التهجير فى بابل، والمصاعب التى واجهها شعب بنى إسرائيل، وتصميمه على الانتصار وتحقيق إرادته.

ثالثا: كتب الحكمة والأناشيد: وهى مجموعة من الأسفار تضم مواد تاريخية وقصـــــصية وغنائية، وعددها أحد عشر، متضمنا مزامير داود وهى أناشيد ذكر للإله وتراتيل روحية، وسفـــــــر الأمثال، وسفر أيوب الذى

يحكى عن قصة حياته وصبره على ابتلائه بالمرض، ونشيد الأنشاء، ...إلى آخره من باقى الأسفار.

نعود مرة ثانية إلى يوشيا ملك اليهود الذى تصدى لفرعون مصر نخاو، والذى كان يمر بفلسطين فى زحفه على سوريا. كان يوشيا يظن أن " يهوه " سوف سيقدم له العون والمساعدة بعد تحطيم المعابد المنافسة له، ولكن هزم الجيش الفرعونى قوات يوشيا فى المعركة الشهيرة " مجدو " والتى قتل فيها يوشيا. ومرت بضع سنوات، وسير البابلى بنوخد نصر جيشا إلى بلاد الشام، واستطاعت القوات البابلية هزيمة قوات نخاو فى معركة قرقميش واستولى على يهوذا اليهودية وجعلها ولاية تابعة لبابل. حاول اليهود بعد ذلك الاستعانة بمصر لرد الاحتلال البابلى، ولكن علم بنوخد نصر بخطتهم فزحف بجيوشه إلى بلاد الشام واستولى على أورشليم وأسر الملك اليهودى يهويا قيم، ووضع صدقيا على عرش يهوذا ثم عاد إلى بابل ومعه عشرة آلاف أسير من اليهود. حاول صدقيا الخروج عن سلطان بابل، فعاد إليه بنوخد نصر مرة ثانية، واستولى على أورشليم وحرقها عن آخرها وهدم هيكل سليمان، وقتل أبناء صدقيا ثم سمل عينيه، وقام بأسر جميع سكان المدينة وساقهم أمامه كالعبيد إلى بابل. فى أيام السبى، استخدمت عقيدة أرض الميعاد كعلاج نفسى لأسرى اليهود من أجل الصبر على الذل والهوان، أملا فى العودة إلى ديارهم. جاء فى موسوعة "قصة الحضارة ": (وقد رأى المؤلف المجهول، الذى أخذ على عاتقه أن يكمل سفر إشعيا ، أن يعيد ذلك الجيل المرتد إلى دين إسرائيل ... كان إشعيا الثانى يعلن لليهود المنفيين فى نثر جزل مشرق مبادئ التوحيد، ويعرض عليهم إلها جديدا شفيقا عليهم رحيما بهم، يفوق فى شفقته ورحمته ما كان عليه يهوه الغضوب كما صوره إشعيا الأول نفسه). غزت فارس بقيادة قورش بابل، الذى ترك لليهود حرية الاختيار للعودة إلى أورشليم بعد قضاء حوالى قرن من الزمان فى الأسر البابلى، وقاموا بتشييد هيكل سليمان مرة ثانية.

ومرت الأيام، وقبل حلول منتصف القرن الأول قبل الميلاد كانت دولة اليهود جزءا من الإمبراطورية الرومانية. فى عام ٣٧ قبل الميلاد حكم هيرود دولتهم بعد أن رد البارثيين من البلاد وحمى أورشليم من السلب والنهب. لم يكن هيرود يهودى الأصل، لذا احتفظ بالثقافة الهيلينية اليونانية التى سادت المدن اليهودية منذ غزو جيش الإسكندر المقدونى بلاد الشام عام ٣٣٢ قبل الميلاد. اتسم عهد هيرود بالرخاء والأمان ونشطت حركة التجارة، ودبت الحياة فى الأسواق والثغور، وأنشئت القصور والمبانى الرياضية والحدائق، وتحولت أورشليم إلى مدينة يونانية الشكل والثقافة، بصورها وتماثيلها المنحوتة التى تحدت العقيدة اليهودية التى تحرم مثل هذه الفنون. مات هيرود فى العام الرابع قبل الميلاد، وقسمت مملكته بين أبنائه الثلاثة الباقين أحياء.

كانت أشهر الشيع الدينية اليهودية فى الجيل السابق لميلاد السيد المسيح هم: الصدوقيون، والأسينيون، والفرسيون. كان الصدقيون الذين سموا بهذا الاسم نسبة إلى صدوق مؤسس هذه الطائفة، يؤمنون بالتوراة والشريعة اليهودية، ولكنهم كانوا يرفضون الأحاديث والقصص الدينية الشفوية التى كان يتناقلها رجال الدين، كما كانوا يرتابون فى البعث وخلود الروح والدار الآخرة. كان الفرسيون أكثر تدينا ولكنهم كانوا يجمعون بين الصرامة واللين فى الدين. أما الأسينيون فكانوا أكثر الشيع تطرفا، وقد اشتقت عقائدهم وعبادتهم من نظريات الزهاد ونظمهم التى كانت منتشرة فى المنطقة فى القرن الأول قبل ظهور المسيح، كما تأثروا بالثقافات والأديان الشرقية فى بلاد الهند وفارس. كان الأسينيون يتمسكون بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة، يعيشون معا عيشة الزاهدين، يزرعون الأرض وسط الصحراء الواقعة غرب البحر الميت، يتناولون طعامهم وهم صامتون، وينتخبون زعماءهم بالاقتراع العام، يدعون متاعهم ومكاسبهم فى بيت مال مشترك، كانوا يحيون فى نظام اشتراكى أو شيوعى، مماثل لحياة الكيبوتز المنتشرة حديثا فى إسرائيل.

بعد موت هيرود، تخلى اليهود عن حياتهم السلمية السلبية، وأعلنوا الثورة على أركلوس خليفة هيرود، فقتل جنود أركلوس ثلاثة آلاف من اليهود الذين كانوا قد جاءوا للاحتفال بعيد الفصح فى العام الرابع قبل الميلاد. عادت ثورة اليهود مرة ثانية، وتألفت عصابات لاغتيال كل من يؤيد الحكم الرومانى، فزحف حاكم سوريا الرومانى على أراضيهم، وهدم منازلهم، وصلب آلاف من الثوار، وباع عشرات الآلاف من اليهود فى أسواق العبيد. ذهب بعض من زعماء اليهود إلى روما، وطلبوا من أغسطس قيصر روما إلغاء الملكية فى إسرائيل، فاستجاب أغسطس لهم وعزل أركلوس وجعل بلاد اليهود ولاية رومانية، وعين عليها حاكما مسئولا أمام والى سوريا. نعمت إسرائيل بفترة سلام قصيرة، حتى تولى كاليجولا حكم روما، فأمر أن توضع تماثيله فى هيكل سليمان، فثار بنو إسرائيل على هذه الإهانة التى تمس دينهم وعقيدتهم التى تحرم التماثيل المنحوتة، ولكن نزع موت كاليجولا فتيل الثورة. تولى إسرائيل بعض الحكام الفاسدين الذين عينوا من قبل روما، فتفشى الإرهاب، وزادت السرقات. تألفت عصابات من اليهود المتمسكين بعقيدتهم لاغتيال أى يهودى خائن، أو متعاون مع الحكم الرومانى. حدث صدام حاد بين المتطرفين اليهود الذين يمثلون الطبقة الفقيرة من المجتمع اليهودى وبين أثرياء اليهود وأتباعهم وقتل فى هذه الأحداث عشرات الآلاف من اليهود من الجانبين. فى عام ٦٦ ميلاديا استولى الثوار اليهود على أورشليم ومدن يهودية أخرى. أرسلت روما قواتها لتأديب الثوار اليهود، وحاصرت هذه القوات مدينة أورشليم، وحاول اليهود بعد أن نفدت مؤنتهم اختراق صفوف الرومان للحصول على الطعام، ولكن الرومان أسروا منهم الآلاف وصلبوهم فى الطرق، وفى نهاية الحصار الذى دام حوالى خمسة أشهر ازدحمت المدينة بجثث القتلى من اليهود. قدر بعض المؤرخين عدد القتلى من اليهود أثناء الحصار وبعده فيما يتراوح ما بين ستمائة ألف، ومليون ومائة ألف من اليهود.

استمرت المقاومة والثورة اليهودية فى أماكن متفرقة حتى عام ٧٣ ميلاديا، ولكن فى الواقع، كان تدمير هيكل سليمان عام ٧٠ ميلاديا هو نهاية الدولة الإسرائيلية / اليهودية وبداية التشتت الثانى – بعد التشتت الأول فى بابل – والأخير حتى وقتنا الحالى. ترك بلاد إسرائيل حوالى مليون يهودى انتشروا فى البلاد المجاورة فى بلاد البحر المتوسط وفى بلاد الشام وشمال مصر (مدينة الإسكندرية)، والجزيرة العربية، وبلاد الحبشة، ودول البلقان، وروسيا، وآسيا الصغرى، وبعض المدن اليونانية والإيطالية، ثم إلى جميع بقاع العالم القديم بعد ذلك.

استوطن اليهود المشتتون البلاد المختلفة بثقافاتهم وعقيدتهم، وتشددهم الدينى، وتقديسهم ليوم السبت. عاش اليهود فى أحياء خاصة بهم (الجيتو)، منعزلين عن السكان المحليين، على أمل العودة إلى أرض الميعاد. أثار اليهود بعزلتهم، وثقافتهم المختلفة، وأسلوب حياتهم، وطمعهم، وذكائهم، الشعوب التى عاشوا بينهم فتعرض اليهود على مر العصور للسخرية، والعداء، والتصفية الجسدية، والطرد، واضطر الكثير منهم إلى التخلى عن دينه ظاهريا، والتمسك بدينه باطنيا وواقعيا، مع غرز العقيدة اليهودية فى الأولاد والأحفاد، وسرد وتكرار قصص عودة شعب الله المختار إلى أرض الميعاد. ونجح اليهود المنتشرون فى جميع بقاع العالم المتكلمون بلغات مختلفة فى إنشاء دولة إسرائيل الحديثة، رمز الديانة اليهودية. بينما فشل من لم يشتتوا فى توحيد شعوبهم التى تدين بدين واحد وتتكلم لغة واحدة وبرغم الثروة الطبيعية والحضارة القديمة وزعمهم بالتمسك بالعقيدة.

عاش يهود التشتت فى أوروبا فى القرون الوسطى وسط عقائد معادية، وشرائع مختلفة، وكان على الكنيس اليهودى (المجمع الدينى) أن يقوم بمهام السلطة الدينية وسلطة الحكومة، على تجمعات يهودية فى مدن أوروبا. ربط الحاخامات اليهود فى وحدة متماسكة خلال جميع الظروف السياسية

والاجتماعية، بإعطائهم بركة إيمان دينى، فكانت أسفار موسى الخمسة دستورهم، وكان التلمود هو المحكمة العليا لدولتهم غير المنظورة، على الأقل لغيرهم. عاش اليهود ما يقرب من ألفى عام فى مجتمعات مختلفة فى جميع بقاع العالم فلم ينصهروا فيها. فى مقولة للفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو: (بادت أثينا، وأسبرطة، وروما، ولم تترك خلفا على الأرض، أما دولة صهيون التى دمرت فلم تفقد بنيها، فقد احتفظوا بكيانهم، وهم يتكاثرون، وينتشرون فى أرجاء العالم، وهم يخالطون كل الشعوب دون أن يذوبوا فيها، وليس لهم حكام، ومع ذلك فهم دائما شعب).

خفت حدة عداء الشعوب المسيحية لليهودية فى القرن الثامن عشر مع بداية انتشار أفكار التحرر من قيود الدين، وانتشار الفلسفات الإلحادية فى أوروبا. ندد الفيلسوف فولتير كثيرا باضطهاد المسيحيين لليهود، بل أثنى عليهم بالرغم من اختلافه معهم بعد ذلك لخلاف مادى. لم يكن لليهود فى فرنسا أى حقوق مدنية قبل الثورة الفرنسية التى قامت فى نهاية القرن الثامن عشر، لكنهم أنشأوا جماعات ناجحة أفرزت زعماء ذوى نفوذ. لعب المال لعبته. فاعترفت الحكومة الفرنسية بامتنان مساعدة الماليين اليهود لها فى حروب الوراثة الإسبانية البولندية، كما كان لليهود دور كبير فى إحياء شركة الهند الشرقية.

كان القرن الثامن عشر هو القرن العظيم بالنسبة لأوروبا، لقد انتهت القرون الوسطى فى القرن السابع عشر الذى بدأ فيه بزوغ النهضة الأوربية الحديثة، تطورت العلوم تطورا مثيرا، وحدث تقدم سريع فى الصناعة، وجميع فروع العلم. شجع الفكر الحديث نبذ المعتقدات القديمة، وتحرر الإنسان الأوروبى من أساطير لازمته وسيطرت عليه على مدى قرون طويلة. ظهرت مفاهيم جديدة للعالم، قائمة على العلم والمنطق، وزاد التعاون التجارى بين الدول الأوربية. ساعد التطور فى عملية الطباعة والنمو المتصاعد فى صناعة الورق

فى انتشار الكتب والدوريات العلمية، وتبادل الأفكار، فبدأ حلول عصر الاكتشافات والاختراعات. لقد بشر الفيلسوف الإنجليزى فرانسيس بيكون فى القرن السابع عشر بعصر العلم والتكنولوجيا، كما ظهر فى القرن السابع عشر الفيلسوف الإنجليزى جون لوك الذى أرسى مبادئ الديموقراطية الدستورية، شهد القرن الثامن عشر اكتشافات الجاذبية الأرضية بواسطة العالم البريطانى إسحق نيوتن، لقد غيرت نظرياته فى مجال الضوء وحساب التفاضل والتكامل والفلك مسار العلم إلى الحداثة والتطور. وشهد هذا القرن أيضا اختراع صناعة أول آلة بخارية بواسطة جيمس وات، واكتشف الإنسان الصلب وطاقة البخار، فأنشأ السكك الحديدية والكبارى لتضيق المسافة بين الشعوب وتزيد من معدل الارتحال وتبادل المعرفة والثقافة.

أيضا كان هذا القرن هو قرن التنوير اليهودى فى أوروبا، فتمرد عدد كبير من اليهود على سيطرة رجال الدين، واندمجوا فى تيار الفكر الحديث. تعلم المتمردون اليهود اللغات الأوربية من إنجليزية وألمانية وفرنسية، وقرأوا مؤلفات الفكر الحر الأوروبى الذى ظهر حديثا، وتماشوا مع أفكار كانط، وجوته، وشيلر، وفولتير، وروسو. وقع انقسام فى المجتمعات اليهودية بين المحافظين وأصحاب الفكر التنويرى الحر، ولكن كانت الغلبة لأصحاب الأفكار الحديثة، وانتشرت حركة التنوير اليهودية فى ألمانيا والنمسا، ثم فى بوهيميا، وبولندا وروسيا، ودعا بعض المفكرين اليهود إلى دخول الطلبة اليهود فى نظام التعليم العلمانى، وحثوا الجيل الجديد إلى دراسة العلوم والفلسفة بجانب دراسة التوراة والتلمود، ومنذ ذلك الحين أسهم اليهود فى العلم والفلسفة والأدب والموسيقى والقانون بقدر يفوق كثيرا نسبتهم إلى عدد السكان فى أوروبا.

ساعدت التطورات الفكرية الاقتصادية على تحرير اليهود فى أوروبا، وأطفأت العلاقة التجارية بين المسيحين واليهود نار الخصومة العرقية التى انتشرت على مدى التاريخ الماضى، ولعب الماليون اليهود فى عدد من حكومات

أوربية أدوارا مهمة اتسمت بروح التعاون. ارتفعت الأصوات المسيحية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بإنهاء الاضطهاد الدينى لليهود، وإعطائهم حرية ممارسة جميع المهن والحرف، مع التمتع بجميع الحقوق المدنية. جاء التحرير السياسى النهائى لليهود فى الثورة الفرنسية وذلك من خلال إعلان حقوق الإنسان الذى أذاعته الجمعية الوطنية فى عام ١٧٨٩. فى سبتمبر عام ١٧٩١ وافقت الجمعية التأسيسية على إعطاء كامل الحقوق المدنية ليهود فرنسا، ثم جاءت غزوات نابليون بالحرية ليهود هولندا فى ١٧٩٦، والبندقية فى ١٧٩٧، وأخيرا فى روما عام ١٨١٠، وفرانكفورات عام ١٨١١. عاش يهود أوروبا فى القرن التاسع عشر كمواطنين أوروبيين لهم نفس حقوق المواطن الأوروبى المسيحى، لتبدأ حقبة جديدة نحو هدف يهودى قديم للعودة إلى أرض الميعاد وإنشاء دولة إسرائيل.

فى القرن التاسع عشر دعا زفى كاليشر فى كتابه "البحث عن صهيون" إلى أن حل المشكلة اليهودية يكون عن طريق تهجير اليهود إلى فلسطين، أو غيرها من البلدان، لأن معاداة السامية لا تزول ما دام اليهود لا يملكون وطنا قوميا خاصا بهم. حث كاليشر أغنياء اليهود على إنشاء جمعية تتولى استعمار فلسطين، وتشجيع الهجرة اليهودية إليها، وإنشاء المستعمرات الزراعية فيها. أثمرت آراء كاليشر فى تكوين "جميعة استعمار أرض إسرائيل" فى برلين عام ١٨٦٤، كما كانت آراؤه السبب فى أن تقوم جميعة الأليانس التى انشأتها يهود غرب أوروبا، بتأسيس أول مستعمرة يهودية فى فلسطين بالقرب من يافا. فى كتاب " روما والقدس " الذى نشره موسى هيس فى عام ١٨٦٢، جاء فيه أن اندماج اليهود فى المجتمعات الأوربية لا يشكل حلا عمليا للمسألة اليهودية، وزعم هيس بنقاء الجنس اليهودى الذى حافظ عليه عبر القرون. ظهرت فكرة القومية بين اليهود الروس، متأثرين بالأفكار القومية التى اعتنقها المفكرون اليهود، فأصدر ليوبنسكر نشرته عن " التحرر الذاتى " باللغة الألمانية عام

١٨٨٢، والتى جاء فيها أن تحرر اليهود يجب أن يتم بالاعتماد علـــى الـــذات ، وأنه يجب أن يكونوا أمة فى أرض خاصة بهم . اختلف اليهود الـــروس حـــول المكان الذى يهاجرون إليه، وهل توجه الهجرة إلى العالم الجديد أى قارتى أمريكا واستراليا، أو إلى فلسطين. وفضل بنسكر أرض فلـــسطين ، مقترحـــا أن يـــتم الحصول على إذن من الحكومة العثمانية لقيام أمة اليهود فى أرض فلسطين. دعا لورانس أوليفانت خلال عامى ١٨٧٨/١٨٧٩ إلى قيام اليهود باستعمار ســـوريا الجنوبية، كما طالب الإمبراطورية العثمانية بمنح اليهود مساحات بشرق الأردن.

يعتبر تيودور هرتزل المسئول الأول عن توظيف أمانى العودة إلى أرض الميعاد وتحويله من هدف دينى إلى هدف سياسى، كما أدخل فكرة الهجرة إلى يهود الغرب الذين كانوا يسيرون فى طريق الاندماج، مستفيدين من مناخ التسامح الدينى، والأفكار الحرة التى كانت تسود أوروبا. حدد هرتزل هدفه بأن يجد الأرض أولا، ثم تقام بعد ذلك دولة اليهود، وذلك عن طريق الهجرة الجماعية والاستيطان الواسع النطاق. نشر هرتزل كتابه " دولة اليهود " باللغة الألمانية عام ١٨٩٦ أشار فيه إلى مكان الوطن التاريخى لليهود المشتتين فى جميع أنحاء العالم. ذكر هرتزل فى كتابه أن شعار اليهود يجب أن يكون المطالبة بأرض الميعاد، أرض داود وسليمان. نجح هرتزل فى إقامة أول حركة يهودية عالمية ممثلة فى المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة بال عام ١٨٩٧، تضمن البرنامج الذى اقترحه هرتزل، تشجيع الهجرة المنظمة وعلى نطاق واسع إلى فلسطين، والحصول على اعتراف دولى بشرعية الاستيطان فى فلسطين، وإنشاء منظمة دائمة توحد كل يهود العالم فى خدمة القضية الصهيونية.

حاول هرتزل إقناع غير اليهود بالمنافع المادية التى تترتب على هجرة اليهود إلى فلسطين، مفترضا أن الحكومات ستحقق مكسباً مادياً من شراء أملاك المهاجرين اليهود وبيعها بعد ذلك، كما أن هجرة اليهود ستتيح فرصا جديدة

للمسيحيين الذين سيحلون محل اليهود المهاجرين فى العمل أو المسكن. قدم هرتزل أيضا وعوداً إلى سلطان تركيا، بتنظيم النظم المالية التركية مقابل منح اليهود وطن قومى فى فلسطين. أما وعود هرتزل لأوروبا فتمثلت فى أنه لو تم إقامة دولة لليهود فى الشرق الأوسط، فإن هذه الدولة ستكون امتدادا للحضارة الأوربية فى الشرق، وأن اليهود سيشكلون جزءا من السد الأوروبى فى وجه آسيا، ومركزا طليعيا ضد البربرية فى الشرق. لقد كانت خطة هرتزل واضحة الملامح بدون تزيين أو تزييف، فالمصالح هى التى تحكم الدوافع وهى التى تحدد القرار.

حدد المؤتمر الصهيونى الأول سنة ١٨٩٧ غاية الحركة الصهيونية التى تتمثل فى إقامة دولة تسع يهود العالم، كما حدد المؤتمر إستراتيجية العمل الصهيونى وتحديد الجهاز التنظيمى للحركة الصهيونية الذى سيتولى التخطيط وتنفيذ الإجراءات التى تم تحديدها. تقرر فى المؤتمر الصهيونى السابع عام ١٩٠٥ العمل على أن تكون فلسطين هى الوطن القومى لليهود، كذلك ضرورة الاستيطان فى تلك الأراضى واتباع الاتجاه العلمى نحو الإسراع فى إيجاد أمر واقع صهيونى. دخلت الإمبراطورية العثمانية – التى كانت الأراضى الفلسطينية واقعة تحت حكمها – الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، وانتهت الحرب بهزيمة الإمبراطورية العثمانية، وفى عام ١٩١٦ تم تقسيم بلاد الشام بين بريطانيا وفرنسا، عدا فلسطين التى كانت تسمى المنطقة السمراء فوقعت تحت الإدارة الدولية. وعدت بريطانيا بإنشاء وطن قومى لليهود على الأراضى الفلسطينية، فصدر تصريح بلفور الشهير فى الثانى من نوفمبر عام ١٩١٧، والذى جاء فيه أن بريطانيا ستبذل غاية جهدها لتأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين.

فى الفترة من نوفمبر ١٩١٧ إلى يوليو ١٩٢٢ بسطت بريطانيا نفوذها على الأراضى الفلسطينية بالكامل. بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى تم انعقاد مؤتمر

الصلح بفرساى عام ١٩١٩، الذى ترتب عليه وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى، نشطت الحركة الصهيونية عملها لتحديد إقليم الدولة اليهودية. شهدت الفترة من عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٢٣ عدة محادثات بين بريطانيا وفرنسا حول تحديد الحدود الشمالية لفلسطين. حظيت هذه المسألة باهتمام من جانب الصهيونية من أجل مد الحدود الشمالية لفلسطين إلى أكبر قدر ممكن لتتماشى مع الحلم الصهيونى لتوسيع رقعة أرض الميعاد. فى ديسمبر من عام ١٩٢٠ توصل الجانبان البريطانى والفرنسى إلى اتفاق حول الحدود بين سوريا ولبنان وفلسطين والعراق.

تبلور الكيان الاستيطانى اليهودى فى فلسطين فى الفترة ما بين ١٨٨٢ و١٩٤٨ من خلال خمس هجرات كبرى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. كانت أول هجرات اليهود (العاليا باللغة العبرية) إلى أرض الميعاد مكونة من مئات قليلة من المثقفين اليهود، كثيرون منهم من العائلات الغنية التى تأثرت بموجة المذابح التى حدثت بعد اغتيال قيصر روسيا الكسندر الثانى. أطلق على هؤلاء اليهود اسم (هالوتزيم أى الرواد). فى نفس الوقت وصلت إلى الأراضى الفلسطينية آلاف قليلة من الهجرة اليهودية العادية التى تركت أوروبا الشرقية بحثا عن الرزق، بالرغم من أن كثيرا منهم اتجه إلى أوروبا الغربية وإلى الولايات المتحدة. كانت الهجرة الثانية هى الهجرة الأيدلوجية. بعد فشل الثورة الروسية الأولى والمذابح التى صاحبتها، وضعت الهجرة الثانية، بالتعاون مع المنظمة الصهيونية العالمية، الأساس الاستيطانى اليهودى الجماعى فى أرض الميعاد. أطلق على عملية الهجرة والاستيطان والتنظيم الوجودى لليهود فى فلسطين اسم البيشوف. نجح البيشوف فى أن يؤسس كيانا سياسيا فى فلسطين، تمثل فى الأحزاب السياسية الصهيونية المتعددة، وفى الوكالة اليهودية بفلسطين، وكذلك خلق بناء اقتصادى يهودى مستقل عن الاقتصاد العربى، وتطوير مؤسساته الاجتماعية المختلفة. فى نهاية هذه المرحلة كان البيشوف بشبكة

التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أنشأها وطورها، جاهزا لإنشاء دولة إسرائيل، وما أن أعلن قيام الدولة فى عام ١٩٤٨ حتى تحولت هذه التنظيمات إلى أجهزة الدولة المختلفة.

بلغ إجمالى المستعمرات اليهودية فى فلسطين فى عام ١٩٠٠ اثنتين وعشرين مستعمرة. حتى نشوب الحرب العالمية الأولى لم يحقق برنامج الاستيطان اليهودى فى فلسطين إلا نجاحا محدودا. فى عام ١٩١٨ كان اليهود يملكون ٢٪ فقط من الأرض الفلسطينية. راعت الحكومة الصهيونية عند القيام بإنشاء المستعمرات فى فلسطين العامل العسكرى الإستراتيجى، وذلك من خلال سهولة الدفاع عن المستعمرات، وتأمين الاتصال والحماية المتبادلة، كما كان البعد الاقتصادى عاملا مهما فى اختيار الأرض الخصبة القريبة من مصادر المياه وطرق المواصلات. عاش اليهود المستوطنون فى الأراضى الفلسطينية قبل قيام دولة إسرائيل على المعونات الخارجية، وعلى الصدقات التى كانت ترسل إليهم من بلادهم الأصلية باعتبار أن مساعدتهم واجب دينى. مول هذه المساعدات الخيرية نظام (الحالوقاه) أى التوزيع، والذى بدأ فى القرن الخامس عشر الميلادى عندما تكونت جمعية يهودية بهذا الاسم، ثم تلتها جمعيات مشابهة تقوم بجمع المساعدات من اليهود القادرين، ثم توزع هذه المساعدات على يهود الاستيطان.

فى أغسطس ١٩٣٦ أذيع الأمر الملكى البريطانى بتشكيل اللجنة الملكية ، والتى عرفت باسم رئيسها (بيل) . أنهت اللجنة أعمالها فى يناير ١٩٣٧ باقتراح الانتداب المفروض على فلسطين، وتقسيم الأراضى الفلسطينية إلى دولتين ذواتى سيادة إحداهما عربية والأخرى يهودية، ترتبطان بمعاهدة تحالف مع بريطانيا، كما طالبت اللجنة بإقامة منطقة انتداب بريطانى تشمل جنوب فلسطين والقدس وبيت لحم والناصرة وبحر الجليل (بحيرة طبرية) ، وأن ينشأ ممر يصل منطقة القدس وبيت لحم بمدينة يافا مارا باللد والرملة . كانت حجة

اللجنة فى إخضاع الأماكن المقدسة للانتداب البريطانى هى المحافظة على الأماكن المقدسة، وتأمين الوصول إليها بحرية وأمان من جميع أنحاء العالم. فى مايو ١٩٣٩ أصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض الذى جاء فيه أن الهدف الذى ترمى حكومة جلالته هو أن تشكل خلال عشر سنوات، حكومة فلسطين مستقلة ترتبط مع المملكة المتحدة بمعاهدة، وأن الدولة المستقلة يجب أن تكون دولة يساهم العرب واليهود فى فلسطين فى حكومتها، كما حدد الكتاب حجم الهجرة اليهودية إلى فلسطين، كما وضع الضوابط المتعلقة بشراء اليهود الأرض فى فلسطين.

مع وصول هتلر وحزبه النازى إلى حكم ألمانيا عام ١٩٣٣ وفى السنوات التالية وحتى نشوب الحرب العالمية الثانية، وأثناء الحرب، واضطهاد هتلر لليهود، حدثت قفزات كبيرة فى هجرة اليهود إلى فلسطين، فقد زاد المستوطنون اليهود فى فلسطين من أقل من مائة ألف عام ١٩٢٢ إلى ما يقرب من نصف مليون يهودى عام ١٩٣٩، ثم إلى ثمانمائة ألف فى مايو ١٩٤٨ عند قيام دولة إسرائيل.

فى ١٣/٥/ ١٩٤٨ أعلنت بريطانيا أنها ستنهى انتدابها على فلسطين فى الساعة صفر من يـــــوم ١٥/٥/١٩٤٨. وقف دافيد بن جوريون قبل الساعة المحددة بثمان ساعات فى مدينة تل أبيب أمام أعضاء المجلس الوطنى اليهودى الذين يمثلون اليهودية الفلسطينية والصهيونية العالمية ليعلن قيام دولة يهودية فى فلسطين باسم إسرائيل. أشار الإعلان الذى تلاه إلى حق جميع يهود العالم فى الهجرة إلى الدولة الجديدة. فى نفس هذا اليوم بدأت الجيوش العربية هجومها الجوى على إسرائيل، لتبدأ الحرب الأولى بين العرب وإسرائيل، وليستمر الصراع فى المستقبل من خلال سلسلة من الحروب، وانتفاضات،

واغتيالات، وسلام بارد، ومباحثات، ومعاهدات، وصراع لم ينتهى، ولا يعلم أحد نهايته.

ساير يهود أوروبا موجات الحرية والديموقراطية، والتطور الصناعى والعلمى، والتى سادت أوروبا بدءا من القرن الثامن عشر، وتفاعل اليهود بصفة عامة مع الثقافة الغربية الحديثة، مع احتفاظهم بثقافتهم اليهودية وعقيدتهم الدينية . تماشى اليهود مع الفكر الغربى، فنالت إسرائيل التأييد المادى والمعنوى والعسكرى فى صراعها مع العرب. تكامل الاتجاه الدينى المتشدد والذى يؤمن بوجوب سيطرة الدين على الدولة، مع الاتجاه العلمانى الغربى الذى يضع قيم الحرية الفردية فى المقام الأول، لما فيه فائدة لدولة إسرائيل. تحقق لليهود أن منظومة القوى هى التى تحكم الكون، فوظفوا جميع إمكانياتهم – ومنها العقيدة – فى تحقيق معظم محصلة القوى، فارتفعت دولة إسرائيل إلى مرتبة اقتصادية وعسكرية وعلمية لم تصل إليها الدول العربية التى فرقتها الأهواء، وضعف من شأنها الفرقة والمصالح الشخصية، وغاب حلم لا يتحقق إلا بقوة الإرادة والتضحية.



الإسلام فى بلاد الأندلس

فتح المسلمون بلاد الأندلس، وظلوا هناك قرون عديدة، ولكن هـل كانـت العقيدة هى الحـافز الأساسى ؟.. تأتى الإجابة عن هذا السؤال مـن التـاريخ المعروف لأحداث جرت قبل الفتح، وتسلسلت حتى خروج المسلمين منها. نبـدأ بتصفح تاريخ إسبانيا أو بلاد الأندلس كما يسميها العرب / المـسلمون الأوائـل. فى عام ٢١٨ قبل الميلاد دخلت القوات الرومانية إسبانيا وسيطرت على جـزء منها، وبحلول عام ١٣٣ قبل الميلاد كانت الامبراطورية الرومانية تسيطر علـى كل البلاد. باضمحلال الإمبراطورية الرومانية وتراخى سيطرتها على أطرافها، قامت القبائل البربرية الجرمانية بغزوها فى أوائل القـرن الخـامس المـيلادى. اقتسمت هذه القبائل أملاك روما الغربية، واستولت على إيطاليا وفرنسا، وإسبانيا التى كانت من نصيب القوط، والقوط هم أحد الشعوب البربرية التى هبطت مـن شمال أوروبا. قبل أن ينتهى القرن الخامس الميلادى كان القوط يسيطرون على شبه جزيرة أيبريا – إسبانيا والبرتغال – فقد امتد ملكهم من اللوار إلـى شـاطئ إسبانيا الجنوبى، ولكن قبائل الفرنج غزوهم من الشمال وأجلوهم عـن فرنـسا، فاستقر القوط فى إسبانيا، واتخذوا مدينة طليطلة كمركز لحكمهم. كان القوط مثل معظم القبائل والشعوب الأوروبية قد اعتنقوا الديانة المسيحية فى القرن الرابـع الميلادى، بعد أن انتقلت من منبعها فى الـشرق إلـى مركـز الامبراطوريـة الرومانية روما. لم يمتزج القوط مع الشعب الإسبانى الذى عانى مـن البـؤس والفقر والاضطهاد، بينما كان الحكام والأمراء القوط يتمتعون بجميـع ثـروات البلاد من تجارة وإقطاعيات زراعية، ويعيشون فى رخـاء ورفاهيـة يحـسدهم عليها سكان البلاد الأصليين.

عندما كانت الإمبراطورية الرومانية تهيمن على إسبانيا، كونت جيشا مـن العبيد واليهود للدفاع عن حدودها ضد الغزاة، ولما حل القوط محـل الرومـان

أبقوا على الشكل القديم للجيش، بينما ذهبوا – القوط – إلى التمتع بمباهج الحيـــاة بعد سنوات طويلة من التجوال فى أوروبا، يحاربون وينهبون. كان اليهود فـــى شبه جزيرة أيبريا طائفة كثيرة العدد بعد فرارهم من الشرق وتشتتوا هربا مـــن القوات الرومانية التى هدمت هيكل سليمان، رمز العقيدة اليهودية. كانت الكنيسة الإسبانية تحاول تنصير اليهود، قصرا وعنفا، ففى عصر الملك سيزبوت فـــرض التنصر على اليهود أو النفى أو المصادرة، فاعتنق المسيحية الكثير منهم خوفـــا أو رياء. تراكمت على اليهود جميع أنواع الاضطهاد، فاتفقوا مع يهود المغـــرب على التعاون فى التآمر على سيطرة المسيحيين، ولكن انكشف تدبيرهم فى عهـــد الملك إجيكا فى عام ٦٩٤م، الذى قرر الشدة فى معاقبتهم، ونزع أملاكهم، وأمر بأن يعاملوا كعبيد، ولا يسمح لهم باسترداد حـــريتهم إلا بعـــد أن يتخلـــوا عـــن اليهودية وأن يتحلوا بالديانة المسيحية. كان اليهود مثل بـــاقى طوائـــف الـــشعب الإسبانى يعانى من النير والظلم، متطلعين إلى من ينقذهم من ظلم وجور حكـــم القوط ، والذى جاء على يد العرب المسلمين بعد تسلسل أحداث خطها القدر.

كان يحكم إسبانيا فى عصر دخول العرب، الملك وتيزا ابن الملك إجيكـــا. اختلفت الأقوال عن الملك وتيزا، فمنها أنه كان ملكا فاجرا وغارقا فى الملـــذات، ويقول البعض الآخر إنه كان فاضلا يتسم بالحكمة والعدل، وإنه عمل علـــى رد المظالم. من المرجح أنه كان حسن السيرة فى بداية عهده، فذهب إلى إنـــصاف اليهود ورد إليهم حقوقهم، فقد حاول الملك وتيزا أن يحد من سلطة طبقة الأمراء والنبلاء، وأن يجمع السلطة كلها فى يده، فدبروا أكثـــر مـــن ثـــورة ومـــؤامرة لإسقاطه ولكنه استطاع أن يقضى عليها. كان فى مقدمة خصوم الملـــك وتيـــزا، دوق تيدوفرد الذى نفاه أبوه الملك إجيكا إلى قرطبة، وسمل عينيـــه زيـــادة فـــى النكاية به. قام العرب فى بدايات القرن الثامن الميلادى بتطويق أســـوار مدينـــة سبتة على الساحل الأفريقى لبلاد المغرب، والتى كانت معقل القوط فى الـــضفة المقابلة لإسبانيا. قام وتيزا بإمداد حاكم سبتة، الكونت يوليـــان بأشـــجع جنـــوده،

فانتهز خصمه ردريك ابن دوق تيودوفرد هذه الفرصة ليدبر الثورة ضده. جمع ردريك جيشا حارب به جيش وتيزا الذى قتل فى الصراع، وتولى ردريك حكم إسبانيا حول عام ٧١٠ م. اتجه ولدا وتيزا وأخوه وأنصار الحكم القديم، إلى طلب العودة من الكونت يوليان حاكم سبتة والمضيق. كان يوليان غنيا وشديد البأس، يتبعه جيش قوى، بعيدا عن سلطة عرش إسبانيا، ولكنه يقبض على مفتاح إسبانيا بحكمه مدينة سبتة والمضيق الذى يفصل بين إسبانيا والمغرب ، أى بين قارتى أوروبا وأفريقيا. وافق يوليان على الانضمام إلى أنصار الملك السابق وتيزا، وذلك خشية أن يقوم ردريك بمهاجمته. استقر رأى أطراف التحالف من يوليان وخصوم الحكم الجديد فى إسبانيا على الاستعانة بعرب المغرب ضد ردريك، فتم عقد تحالف جديد مع موسى ابن نصير، انتهى بفتح المسلمين لإسبانيا للتحول إلى بلاد الأندلس الإسلامية.

فى الجانب الآخر من الأحداث، كانت الدولة الإسلامية قد بدأت تبسط سلطانها غربا بعد الانتهاء من فرض سيطرتها على بلاد الشام. فتح العرب مصر – التى كانت ولاية رومانية – على يد عمرو بن العاص عام ٦٤٠، فكانت قاعدة للقوات الإسلامية للتوغل غرباً حتى وصولها إلى بلاد المغرب. بعد فتح مصر بعامين سار عمرو بن العاص غربا حتى وصل إلى برقة ففتحها ووافق أهلها على دفع الجزية، ثم فتح طرابلس بعد أن حاصرها شهرا. وفى خلافة عثمان بن عفان توغل العرب فى شمال أفريقيا، فسار عبدالله بن سعد فى نحو عشرين ألف مقاتل، وسارت معه حامية برقة بقيادة عقبة بن نافع. تقدم الروم لمواجهة المسلمين، بقيادة حاكم أفريقيا الرومانى جريجوريوس. نشبت معارك ضارية بين القوات الإسلامية والرومانية بالقرب من أطلال قرطاجنة، هزم فيها الروم وقتل قائدهم، ثم حاصر عبدالله بن سعد سبيطلة وفتحها. عادت القوات الإسلامية إلى مصر بعد أن تم تأمين البلاد التى تم فتحها وإنشاء حامية فى برقة وأخرى فى زويلة.

نشب الخلاف بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبــى ســفيان، وانــشغل العالم الإسلامى بالفتن والمؤامرات، فانشغل العرب عن مد الفتوحــات. عنــدما استقرت الأمور بين المسلمين عاودوا إرسال الحملات، فاختار الخليفة معاويــة القائد العربى عقبة بن نافع ليتم فتح شمال غرب أفريقيا، فتوغــل غربــا حتــى وصل إلى أقصى بلاد المغرب، وهزم الروم والبربر فى معارك عديدة، وأنــشأ مدينة القيروان لتكون عاصمة للولاية الإسلامية الجديدة. عزل معاوية عقبة بــن نافع، وجمع مسلمة بن مخلد حكم كل من مصر والمغرب. عندما تولى الخلافــة يزيد بن معاوية، أعاد عقبة مره ثانية لحكم المغرب التى كانت تفــيض بــذور الثورة، بينما ترقب الروم والبربر الفرصة الــسانحة للانقــضاض علــى دولــة الإسلام. قضى عقبة على جميع الفتن، ثم زحف بجيشه ليتم فتح المغرب حتــى وصل إلى مياه المحيط. جاءت الفرصة ليثور البربر بقيادة كسيلة بن لمزم الــذى ارتد عن الإسلام، وانضم إليهم الروم، وقعت معارك حامية هُزم فيها المــسلمون وقتل عقبة بن نافع. عندما تولى الخلافه عبدالملك بن مروان عزم على اســتعادة غرب أفريقيا، فولى عليها زهير بن قيس، وأمده بجيش ضخم، وزحــف زهيــر إلى القيروان وهزم جيش البربر فى معركة قتل فيها كسيلة وكثير مــن قــواده. انتهز الروم فرصة توغل المسلمين غربا، فأبحروا بأسطول من جزيرة صــقلية، ونزلوا فى قرطاجنة ثم زحفوا على برقة التى عاد إليها زهيــر للــدفاع عنهــا، فنشبت معركة هُزم فيها المسلمون وقتل زهير، وضاعت المغرب مرة ثانية مــن أيدى المسلمين. انشغل الخليفة عبد الملك بن مــروان فــى دمــشق بمحاربــة الخوارج، فلما استتب له الأمر سير حسان بن النعمان على رأس جيش ضــخم فاستولى على قرطاجنة بعد حصارها، ثم اتجه غربا وهزم القــوات الرومانيــة وقوات البربر فى عدة معارك حتى عادت السيادة مرة ثانية إلى المسلمين. بعــد العديد من المناوشات والمعارك، دانت بلاد المغرب، وذهب البربر إلى الطاعــة بعد أن ترسخ فيهم الدين الإسلامى. وطد حسان سيطرة المسلمين علــى ثغــور

ومدن بلاد المغرب، ولبث في منصبه حتى توفى عبد الملك بـن مـروان عـام ٧٠٥، فخلفه ابنه الوليد الذى ولى عمه عبد الله بن مروان حكم مصر، فعـزل حسان عن ولاية غرب أفريقيا، وعين بدلا منه موسى بن نصير اللخمى فى عام ٧٠٨، الذى كان من أعظم القادة العرب، وتم فى عهده فتح بلاد الأندلس بعد أن قضى على جميع ثورات المغرب، وطهرها من العصاة والمتـآمرين، واسـتمال إليه قبائل البربر بعد أن ألحق بجيشه الآلاف من جنود البربر المـسلمين. اهـتم موسى بن نصير بنشر الدين الإسلامى بين البربر فمالوا إلى الـسكينة والـولاء إلى الحكام العرب. بعد أن ساد الأمن فى المغرب، أنـشا موسـى بـن نـصير أسطولا بحريا لحماية الثغور، وغزو الجزر القريبة مـن الـساحل الأفريقـى ، ناظرا إلى أبعد من ذلك ، وآملا فى غزو شبه جزيرة أيبريا.

انتهت صفحات التاريخ بما فيها من أحداث متتالية ومتسلسلة تشمل الجانب القوطى المسيحى، والجانب الإسلامى فى الجهة المواجهة، لتصل الأحداث إلـى حتمية الفتح، التى لعبت فيها المصالح الشخصية عاملا رئيـسيا. بينمـا كانـت إسبانيا تمور بالصراعات، كان العرب قد أتموا فتح المغرب الأقصى، واسـتولوا على ثغر طنجة ، ولم يتبق على إتمام فتح أفريقيا سوى ثغر سـبتة الحـصينة . بينما كان موسى بن نصير يحلم بالاستيلاء على سبتة تمهيدا للعبور إلى إسبانيا، إذ برسالة تأتيه من الكونت يوليان حاكم سبتة يعرض عليه تسليم المدينة، ويدعوه إلى فتح إسبانيا. بدأت المفاوضات بالمراسلات، أعقبها اجتماعات بين الطـرفين، وأخيراً وافق موسى بن نصير على التحالف بعد أن تعهد يوليان بتـسليم سـبتة وجميع معاقله، وتجهيز سفنه لنقل المسلمين إلى الـشاطئ الأسـبانى المقابـل، ومعاونة جنود المسلمين وإرشادهم إلى الطرق والمسالك بعـد العبـور. كتـب موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يخبره بعرض يوليان، وأهميـة فتح هذه البلاد الغنية بثرواتها، وموقعها الاستراتيجى. رد الوليد بأن يبدأ موسـى

بحملات صغيرة فى بادئ الأمر حتى لا يزج بالمسلمين فى أهوال البحر، بالرغم من أن المسلمين قد جربوا من قبل المعارك البحرية، فقد غزوا من قبل صقلية وسردينيا، وكذلك جزائر البليار القريبة من الشاطئ الأفريقى، كما كان البحر الذى يفصل بين أفريقيا وإسبانيا ضيقا نسبيا ويسهل عبوره. مكث موسى بن نصير فى طنجة يستعد لفتح الأندلس، دون أن يدرى أن خطة يوليان كانت تذهب إلى مساعدة العرب لإسقاط ردريك عن حكم إسبانيا، واستخلاص ملكها لصالح يوليان وولدى الملك السابق وتيزا، ثم يعود العرب مرة ثانية إلى بلاد المغرب محملين بالأسلاب والغنائم مكافأة لهم لهذه المساعدة. من جهة أخرى كان موسى بن نصير يؤكد على طمأنة يوليان بأن غرضه من المساعدة ليس إلا مجد الفتح وكسب الغنائم، وأنه لا ينوى إنشاء دولة إسلامية فى إسبانيا.

انتهى التخطيط وبدأ التنفيذ، وبناء على نصيحة الخليفة بدأ مشروع فتح إسبانيا بمحاولة للاختبار، فجهز موسى مجموعة من خمسمائة مقاتل تحت قيادة فارس من البربر يدعى طريف بن مالك. فى شهر يوليو من عام ٧١٠ عبرت القوة الصغيرة البحر من سبتة فى أربع سفن قام بتجهيزها يوليان، إلى الجهة المقابلة ، فى بقعة من الأرض سميت بعد ذلك بجزيرة طريف Tarifa . جاست القوة فى أرض الجزيرة، ثم عادت مرة ثانية إلى المغرب فى أمان، وحكى قائدها لموسى بن نصير تفاصيل رحلته، فاستبشر موسى بالمستقبل خيراً. فى أبريل ٧١١ ميلاديا جهز موسى جيشا من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثى حاكم طنجة. كان طارق من البربر، تلقى الإسلام عن أبيه زياد، وكان جنديا عظيما ومقاتلا يتسم بالشجاعة والإقدام، طويل القامة، أشقر اللون، اختاره موسى ليحكم طنجة، ثم ليفتح إسبانيا بعد ذلك. عبر طارق بن زياد من سبتة بجيشه تباعاً نظراً لقلة السفن التى قدمها يوليان، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التى حملت – وما زالت – تحمل اسمه بعد ذلك، وهى جبل طارق Gibraltar، وكان ذلك فى يوم ٢٧ من أبريل ٧١١ ميلاديا.

ظهرت قصص كثيرة وروايات عديدة عن أحداث الفتح ومنها الخطبة التى نسبت إلى طارق بن زياد، والتى جاء فيها: (.... أيها الناس: أيــن المفــر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم. ولــيس لكــم والله إلا الــصدق والــصبر، واعلموا أنكم فى هذه الجزيزة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ماتستخلصوه من أيدى عدوكم. وإن امتدت بكم الأيــام علــى افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عــن رعبهــا منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هــذه العاقبــة مــن أمــركم، بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإنى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها للنفوس، أبدأ بنفسى، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألــذ طــويلا، فــلا ترغبــوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى. وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان، الرافلات فى الدر والمرجــان والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانــا، ورضــيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واســتماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعــلاء كلمتــه، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه، ومن دون المؤمنين سواكم. والله تعالى ولى إنجادكم على ما يكــون لكــم ذكــرا فــى الدارين. أيها الناس: ما فعلت من شىء فافعلوا مثله، إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال، وإنى عامد إلى طــاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه، فإن قتلت فلا تهنــوا ولا تحزنــوا ولا تنازعوا، فتفشلوا وتذهب ريحكم، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأســير.

وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية، ولا تعطوا بأيديكم، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة، والراحة من المهنة والذلة، وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا، والله معكم ومفيدكم، تبوءوا بالخسران المبين، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين، وهأنذا حامل حتى أغشاه فاحملوه بحملتى).

زحف طارق بقواته غربا، يرشده الكونت يوليان، واحتل القلاع التى كان يحكمها تيودمير القوطى نائب ردريك فى هذه البقاع. كان ردريك فى هذه الأثناء يحارب بعض الخارجين عن سلطته فى الولايات الشمالية لإسبانيا، فأرسل إلى قائده إديكو بصد العدوان حتى رجوعه، ولكن طارق هزمه ثم اخترق المنطقة الوسطى ثم المنطقة الغربية فى المثلث الإسبانى الجنوبى المسمى بالفرنتيرة La Frontera، معتزما السير صوب عاصمة القوط. بالرغم من الصراعات والخلافات التى كانت سائدة فى إسبانيا فى ذلك الوقت، ولكن حين ظهر خطر الغزو الإسلامى، استطاع ردريك أن يجمع حوله معظم الأمراء والنبلاء ورجال الدين المسيحى، كما حشد جيشا ضخما بلغ تعداده حوالى مائة ألف من المقاتلين والفرسان، الذين اتجهوا نحو الجنوب لملاقاة جيش طارق. دعم موسى بن نصير جيش طارق بخمسة آلاف مقاتل، فبلغ جيش المسلمين اثنى عشر ألفا، بالإضافة إلى القوة الصغيرة المكونة من أتباع يوليان. حدث الالتحام فى سهل الفرنتيرة فى الثامن والعشرين من يوليو، ونشبت المعركة غير المتكافئة فى عدد الجنود، ولكن استطاع يوليان استمالة بعض من جنود القوط فى صف المسلمين، كما ظهرت الخيانة من بعض الأمراء الذين تظاهروا بالإخلاص للملك ردريك، فأخذ كل أمير يفكر فى سلامته وسلامة أتباعه من الجنود. انتهت المعركة فى اليوم السابع بهزيمة القوط الذين تشتتوا فى كل اتجاه، واختفى ردريك آخر ملوك القوط، واختلفت الروايات ما بين مقتله، وغرقه فى مياه النهر، وهروبه إلى البرتغال. سميت هذه المعركة بموقعة " شذونة "، وهى المعركة الفاصلة التى دانت فيها دولة القوط التى استمر حكمها حوالى ثلاثمائة عام.

ذاعت أخبار الفتح فى المغرب العربى، فتدفق إلى الجيش الفاتح سيل من المجاهدين والمغامرين، إما عن عقيدة أو طمعا فى المغانم. حاول الجيش القوطى استعادة تنظيمه، والتقى مع جيش المسلمين مرة ثانية فنال الهزيمة، مما شجع المسلمين على الاتجاه شمالا حيث المدن العامرة والقواعد الحصينة. كان يوليان وأصحابه يرافقون الجيش الإسلامى، يعاونونهم ويرشدونهم للوصول إلى طليطلة عاصمة مملكة القوط، فاستولى عليها المسلمون، وأرسلوا حملات أخرى إلى غرناطة وإلبيرة ومالقا، وتم السيطرة عليها جميعا. عندما التمس اليهود من المسلمين الأمان أخذوا فى معاونة طارق بن زياد الذى اخترق هضاب الأندلس وجبال سيراموربنا مطاردا فلول قوات القوط. بعد عام من العبور إلى إسبانيا تلقى طارق الأوامر من موسى بن نصير بوقف الفتوحات. اختلف المؤرخون فى أسباب هذه الأوامر، فمنهم من أرجعها إلى حسد وغيرة موسى الذى كان لا يتوقع هذا النجاح الباهر من طارق، ومنهم من عللها بغضب موسى على طارق لأنه خالف أوامره بألا يتجاوز قرطبة، خوفاً من إلحاق الخسارة بالجيش الإسلامى إذا توغل الجيش فى مسالك ودروب مجهولة بالنسبة للمسلمين. لحق موسى بطارق فى بلاد الأندلس، وعبر البحر فى عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر، فى سفن صنعها المسلمون لهذه المناسبة. استولى موسى على عدة مدن صغيرة فى طريقه إلى إشبيلية أعظم قواعد بلاد الأندلس، فقام بفتحها بعد أن حاصرها لمدة شهر كامل، ثم قصد مدينة طليطلة حيث التقى بطارق بن زياد، فعنفه بشدة وأهانه، ثم ما لبث أن عفا عنه. زحف القائدان – موسى وطارق – نحو الشمال الشرقى واخترقا ولاية أراجون وفتحا سرقسطة وبرشلونة وغيرها من المدن الأخرى، ثم افترقا حيث سار طارق نحو الغرب ليغزو جليقية وليتم القضاء على بواقى قوات القوط، وسار موسى شمالا فاخترق جبال ألبرت وغزا ولاية سبتمانيا، ثم نفذ إلى مملكة الفرنج – فرنسا حاليا – زاحفا بجيشه فى وادى الرون

حتى وصل مدينة ليون. أخذ الأمراء الفرنج أهبة الاستعداد لمحاربة الجيش الإسلامى وقامت معارك عند تلك السهول. فكر القائد العربى موسى بن نصير فى غزو جميع أوروبا مخترقا بلاد الفرنج قاصداً مملكة شمال إيطاليا حيث يقوم بفتح روما، ويتابع سيره حتى سهول الدانوب فيقضى على القبائل الجرمانية، ثم يخترق أراضى الدولة البيزنطية حتى القسطنطينية فيستولى عليها، ثم يعبر إلى آسيا الصغرى حتى يصل إلى دمشق مقر الخلافة الإسلامية. تبخر حلم موسى بن نصير نتيجة تردد الخليفة الوليد بن عبد الملك الذى كتب إلى موسى يحذره من التوغل بجيش المسلمين فى بلاد مجهولة، ويأمره بالعودة.

وصل خطاب ثانٍ إلى موسى بن نصير يستدعيه مع طارق بن زياد، ويأمرهما بسرعة العودة. قد يكون السبب هو ما نمى إليه من خلافهما، أو قد يكون خوف الخليفة من ازدياد قوة موسى فيتطلع إلى مزاحمة الخليفة فى دولة إسلامية جديدة منفصلة عن الدولة الأموية، أو قد يكون هو خوفه من تبديد ثروات بلاد الأندلس فى مزيد من الفتوحات. كان قرار الخليفة إيقاف الفتوحات الإسلامية فى أوروبا هو بداية تسلسل الأحداث التى أدت إلى نهاية حكم المسلمين لبلاد الأندلس. لقد اعتصمت شراذم القوات القوطية التى نجت من مطاردة المسلمين بصخور جليقية، ثم ما لبثت أن نمت، وكونت المملكة المسيحية لإسبانيا فى شمال البلاد، والتى قويت تدريجيا فأخذت تحارب دولة إسبانيا الإسلامية حتى انتهى أمر المسلمين فى أوروبا، وأصبحت بلاد الأندلس الإسلامية – إسبانيا – ذكرى يجترها المسلمين من حين لآخر.

نظم موسى حكم بلاد الأندلس والمغرب، واستخلف أولاده عليها، وأخذ أهبته للعودة إلى دمشق مع طارق بن زياد، حاملا النفيس من الأسلاب والغنائم، والكثير من السبايا والجوارى. توفى الخليفة الأموى الوليد بعد وصول موسى بقليل، وتولى الخلافة أخوه سليمان الذى انقلب على موسى

متهمه بأنه قام هو وأولاده باختلاس مقادير كبيرة من النفـائس والتحـف التـى استولوا عليها من بلاد الأندلس. بالغ الخليفة فى إهانة موسى وتعذيبه، ثـم أمـر بإلقائه فى السجن. استعان موسى بصديقه يزيد بن المهلـب للتوسـط لـه مـع الخليفة، فنجح أخيرا فى إعفاء موسى من الغرامة التـى قـضى بهـا الخليفـة ليفتدى نفسه. بعد قليل توفى موسى وهو فى طريقه إلى الحج بعد أن نال جـزاء النجاح والقيادة الـشجاعة والإدارة الحاسـمة، أصـنافاً كثيـرة مـن الجحـود والنكران، وتجرع الذل والهوان بعد أن كتب فى صفحات التاريخ سجلا حـافلا لقيام دولة إسلامية فى أوروبا، دامت لقرون طويلة. كان موسـى بـن نـصير بجانب مواهبه الإدارية والعسكرية، غزير العلم، متمكنـا مـن الفقـة والأدب، متفهما لعلوم الفلك، إلا أن هذه الملكات كانت تـشوبها نزعـة إلـى الطغيـان والبطش، وشهوة يمتلكها جميع البشر وهى الحقد والحسد، ولكن هـذا لا يمحـو عظمة موسى بن نصير فاتح بلاد الأندلس مع طارق بن زيـاد. أمـا مـصير طارق فقد شابه الظلام، فبعد أن فكر الخليفة فى تعينه واليا على الأنـدلس بـدلا من موسى، عدل عن ذلك القرار بعد أن دس لهما – طارق وموسـى – مغيـث الرومى فاتح قرطبة، واستطاع الإيقاع بينهما وبين الخليفة، عازفا علـى وتـر قوتهما التى قد تطمع فى إزاحة الخليفة من خلافة المسلمين.

قضى الفتح الإسلامى على سلطات الفئة المتميزة من الـشعب الإسـبانى، ولكن لم يمحُ النعرة القبلية بين مختلف القادة المسلمين. أما فيما يخـص علاقـة المسلمين بأهل إسبانيا، فقد ساد العدل والمساواة، وترك الفاتحون لأهـل الـبلاد حق اتباع قوانينهم وتقاليدهم، والخضوع لقضائهم، واختـاروا فـى كثيـر مـن الأحيان حكاماً من أهلها. كان أداء الجزية هو كل ما يفرض علـى المـسيحيين واليهود، مع تركهم يؤدون شعائر دينهم بحرية دون أى تدخل أو مضايقات. من جهة أخرى كانت الدولة الجديدة تحمل بذور الخلاف والاختلاف، فقد كتب محمد

عنان فى كتاب " دولة الإسلام فى الأندلس ": (كان هذا المجتمع الجديد الذى جمع الإسلام شمله ومزج بين عناصره، يجيش بمختلف الأهواء والنزعات، وتمزقه فوارق الجنس والعصبية. كانت القبائل العربية ما تزال تضطرم بمنافساتها القديمة الخالدة، وكان البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش، يبغضون قادتهم ورؤساءهم العرب، وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطة والمغانم الكبيرة، واحتلالهم لمعظم القواعد والوديان الخصبة، وكثيرا ما رفعوا لواء العصيان والثورة، وكان المسلمون الإسبان وهم المولدون محدثين فى الإسلام يشعرون دائما بأنهم رغم إسلامهم، أحط من الوجهة الاجتماعية، من سادتهم العرب. ذلك أن العرب رغم كون الإسلام يسوى بين جميع المسلمين فى الحقوق والواجبات ، ويمحو كل فوارق الجنس والطبقات ، كانوا يشكون فى ولاء المسلمين الجدد ، ويضنون عليهم بمناصب الثقة والنفوذ ، هذا إلى أن العربى فى الأقطار القاصية التى افتتحها بالسيف ، لم يستطع أن يتنازل عن كبرياء الجنس، التى كانت دائما من خواص طبيعته ، فكان مثل الإنجليزى السكسونى يعد نفسه أشرف الخليقة. على أن الخلاف بين العرب أنفسهم كان أخطر ما فى هذا المجتمع الجديد من عوامل التفكك والانحلال، فقد كانت عصبية القبائل والبطون، ما تزال قوية حية فى الصدور، وكان التنافس على السلطان والرياسة بين الزعماء والقادة، يمزق الصفوف ويجعلها شيعا وأحزابا، وكانت عوامل الغيرة والحسد تعمل عملها فى نفوس القبائل والبطون المختلفة. وأشد ما كانت تستعر نار ذلك الخلاف والتنافس بين اليمنية والمضرية، وذلك لأسباب عديدة ترجع إلى ما قبل الإسلام. منها أن الرياسة كانت لعصور طويلة قبل الإسلام فى حمير وتبع، أعظم القبائل اليمنية، وكانت لهم دول ومنعة وحضارة زاهرة، بينما كانت مضر بدوا متأخرين يخضعون لحمير ويؤدون الجزية لهم. وكان بينهما خصومات وحروب مستعرة طويلة الأمد ، إذ كانت حمير تعمل للاحتفاظ برياستها وسلطانها ، وتجاهد مضر فى سبيل استقلالها وحريتها) . كانت إسبانيا

الإسلامية تتبع شمال غرب أفريقيا إداريا، والتى كانت تفيض أيضا بالاضطرابات خاصة بعد نزوح الدعاة الخوارج إليها. انتقل خلاف المشرق الإسلامى إلى المغرب الإسلامى، وانتشرت مبادئ الخوارج الثورية بين البربر، فتعددت نحلهم وطوائفهم، واشتد الخلاف والجدال بينهم، وتلوثت مياه المحبة والمودة بين المسلمين العرب والمسلمين البربر. تصاعد تحريض الخوارج على حكومة الأمويين فى أفريقيا بعد أن فشلوا فى العراق، فنشبت الثورات والحروب الأهلية، والتى أثرت على الجار القريب فى بلاد الأندلس، فاضطرب فيها الحكم وتزعزع النظام.

قسم المسلمون إسبانيا إلى أربع ولايات ثم أنشئت ولاية خامسة بعد ذلك، وبدأت قاعدة الحكم فى أشبيلية ثم انتقلت إلى قرطبة. كان تقسيم إسبانيا بين المسلمين قبلياً أو قومياً، فثقافة القبيلة لم تمحها العقيدة الإسلامية. نزلت قبائل دمشق بقرطبة، وقبائل حمص فى إشبيلية ولبلة وأنحائهما، ونزلت القبائل الفلسطينية فى شذونة والجزيرة ومالقا وأنحائها، والقبائل اليمنية فى طليطلة وأراضيها، ونزل الفرس بشريش، والعراقيون فى غرناطة، والمصريون فى تدمير ووماردة وأشبونة ، واستقر الحجازيون بالقواعد الداخلية ، أما البربر فقد نزل معظمهم فى نواحى ماردة وأراضى البرتغال. خلاصة القول أن العرب قد حظوا وتمكنوا من معظم الأراضى الخصبة، أما البربر فقد تم تسكينهم فى الأقاليم القاحلة، مما أدى بعد ذلك إلى قيامهم بالثورة من آن لآخر.

عبر المسلمون إلى مملكة الفرنج غاليا – فرنسا حاليا – بقيادة السمح بن مالك، وغزا المسلمون ولاية سبتمانيا القوطية، واستولوا على قواعدها، ثم زحفوا إلى مدينة تولوز، فقامت معركة عنيفة فى يونيو ٧٢١، وقع فيها السمح بن مالك قتيلا، فارتد المسلمون بعد فقدهم الكثير من الجنود والقواد. فى عام ٧٢٤ عاد المسلمون مرة ثانية يهاجمون مملكة الفرنج بقيادة والى الأندلس الجديد

عنبسة بن سحيم الكلبى، الذى استطاع أن يبسط نفوذه على شرق جنوب فرنسا، ولكن حين عودته إلى الجنوب وقبل أن يجمع إليه جميع جيشه، داهمته قوات الفرنج، فأصيب إصابة بالغة أدت إلى موته فى ديسمبر ٧٢٥، فارتد الجيش الإسلامى إلى الداخل وعاد الاضطراب إلى بلاد الأندلس مرة أخرى. فى أبريل عام ٧٣١ تم تعيين عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى واليا على الأندلس، فكان حاكما قديرا وبارعا فى الإدارة وراغبا فى الإصلاح، فأحبه الجنود لعدله ولينه، وجمعت قوة شكيمته قبائل المسلمين فى بلاد الأندلس، فتفرغ لبسط النظام والعدل والمساواة، وعُنى بشئون الجيش وتنظيمه، وحصن القواعد الشمالية، وقضى على الفتن والثورات الداخلية. بدأ الفرنج والقوط فى الولايات الشمالية التحرك لمهاجمة مواقع المسلمين، فسار إليهم عبد الرحمن بجيشه فى أوائل عام ٧٣٢، ودخل فرنسا، وزحف على مدينة آرل الواقعة على نهر الرون، لتخلفها عن أداء الجزية، واستولى عليها بعد معركة عنيفة، ثم زحف غربا وعبر نهر الجارون، وهزم قوات الفرنج ، واخترق الجيش الإسلامى برجونية واستولى على مدينة ليون ، ووصلت طلائع الجيش الإسلامى إلى أقل من مائتى كيلو متر من باريس، ثم أخذت القوات الإسلامية فى العودة إلى قواعدها فى بلاد الأندلس بعد أن فتحت نصف فرنسا الجنوبى من الشرق إلى الغرب ، وبعد نشوب العديد من المعارك قتل بها آلاف من الجانبين ، وأخيرا سقط قتيلا قائد المسلمين عبد الرحمن بن عبد الله فى إحدى هذه المعارك ، وتولى بعد ذلك حكم الأندلس عبد الملك بن قطن الفهرى ، الذى كان ظالما وشديد البطش فسخط عليه الزعماء المسلمون فى بلاد الأندلس، فتم عزله، وعين بدلا منه عقبة بن الحجاج السلولى.

حول عام ٧٣٤ ثار البربر على سادتهم العرب فى بلاد المغرب، بعد أن انتشرت دعوة الخوارج التى تضمنت مبادئ الحرية والديموقراطية، والحث على محاربة الغاصبين للحكم. لما ولى عبيد الله بن الحبحاب حكم أفريقيا، سير جيشا بقيادة حبيب بن أبى عبيدة الفهرى، فمزق جموع الثائرين، وعاد مثقلا بالغنائم

والأسلاب، وعاد السلام – إلى حين – فى بلاد المغرب. لما ساد الهدوء سير ابن الحبحاب معظم قواته فى غزوة بحرية إلى سردينيا وصقلية فانتهز البربر هذه الفرصة، فأعلنوا الثورة مرة ثانية، فاستدعى ابن الحبحاب قوات حملة صقلية، ونشب القتال بين البربر والقوات العربية. لما رأى الخليفة هشام بن عبد الملك عجز ابن الحبحاب فى تسيير الأمور، وعدم قدرته على السيطرة على الثائرين أقاله وعين بدلا منه كلثوم بن عياض، وسيره فى جيش ضخم من بلاد الشام إلى بلاد المغرب لإخماد ثورة البربر. فى عام ٧٤١ سار البربر من طنجة لقتال العرب بقيادة خالد بن حميد الزناتى، ونشبت معارك على مقربة من طنجة كان النصر فيها حليف البربر، وقتل فيها كلثوم وحبيب والعديد من القادة العرب. استمرت ثورات الخوارج، وأصبح شمال أفريقيا مرتعا للاضطرابات والفوضى، لتؤول السيادة بعد ذلك إلى المستعربين من البربر والموالى، وانتقل صدى هذه الاضطرابات إلى بلاد الأندلس.

ظهرت الفتن فى بلاد الأندلس، وثارت البربر فى معظم الأقاليم الشمالية، واستطاع المسلمون البربر فى بادئ الأمر هزيمة جميع حملات المسلمين العرب، ثم هزمت قوات المسلمين الوافدة من بلاد الشام قوات البربر وغنمت منهم مغانم كثيرة، وبذلك سحقت ثورة البربر. لم تهدأ الأمور، ولم تنته الفتن، فتقاتل المسلمون العرب وانقسموا إلى معسكرين، الأول معسكر الشاميين المتغلبين على الحكم، والثانى معسكر العرب والبربر المحليين الذين اعتبروا الشاميين دخلاء غاصبين، فاشتدت الفتنة وعظم الأمر على جموع المسلمين. التقى الفريقان بالقرب من قرطبة فى شهر أغسطس من عام ٧٤٢ ونشبت معارك شديدة، وأخيرا انتصر الشاميون الذين عادوا ظافرين إلى قرطبة، وولوا على إمارة الأندلس ثعلبة بن سلامة العاملى. حاول ثعلبة القبض على زمام الأمور بالحزم، ولكن سلطة الحكومة المركزية كانت قد تفسخت وانقسمت

الأندلس إلى مناطق عديدة، متصارعة ومستقلة النفـوذ. قامـت الحـرب بـين المعسكرين مرة ثانية، تغلب فيها أيضاً الشاميون. قَدِم إلى قرطبة حاكم جديد هو أبو الخطار الكلبى الذى أفرج عن جميع الأسرى والسبايا الذين أسرهم أو غنمهم ثعلبة من المعسكر الإسلامى الآخر، واهتم بإخماد شوكة الزعمـاء الخـارجين، وفَرّق الشاميين تمزيقا لشوكتهم، وسوى بين جميع القبائل، فأطاعه الجميع وأيده.

بعد أن استقر النظام فى بلاد الأندلس، وساد الأمن والسلام، تغلبت نزعـة العصبية والقبلية على العقل والعقيدة، فمال أبو الخطار الكلبى إلى قومه اليمانية، ووقف ضد خصومهم، فتجددت الأحقاد القديمة ودب الخلاف. نـشبت المعـارك التى انتهت بهزيمة أبو الخطار وأسره، وتولى الحكم ثوابة بن سلامة الجـذامى، الذى توفى بعد عام ونصف من حكمه، فظهر الخلاف بين الزعماء مرة أخرى، وبعد فترة اتفق الطرفان على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى، وكان ذلـك فى عام ٧٤٧. استمر عهد يوسف الفهرى حوالى عشر سنوات وكان آخـر ولاة الأندلس. تجددت المعارك بين القوات المضرية واليمنية، واستمر القتال سـجالا بين الفريقين، ثم استقر الأمر ليوسف. فى عام ٧٥٠ تحـرك المـسيحيون فـى الولايات الشمالية، وحط القحط على البلاد، وحلت على شواطئ بـلاد الأنـدلس القراصنة الوافدين من الشمال. طاف يوسف بالأقاليم وعزل الحكـام الفاسـدين، وقضى على الظلم والفوضى قدر استطاعته، وعُنى بتنظـيم الجـيش وتدريبـه وحشد قوات جديدة لقمع الثورات الداخلية، وحماية الحـدود الـشمالية ، وسـير جيشا بقيادة ابنه لمحاربة الفرنج الذين انتهزوا فرصة الخـلاف بـين المـسلمين ليستولوا على بعض أراضيهم . استمرت المعارك طوال خمسينيات القرن الثامن حتى سقطت آخر المعاقل الإسلامية فى بلاد غاليس أو غاليا – فرنسا حاليـا – ودخل الفرنج غازين، وفتكوا بالمسلمين. استغل القوط الذين طردوا من إسـبانيا هذه الفرصة وجهزوا أنفسهم طمعا فى دخول بلاد الأنـدلس الإسـلامية التـى مزقتها أحقاد وخلافات المسلمين.

اضمحلت الخلافة الأموية فى دمشق، فخرجت بلاد الأندلس من حظيرة الإمبراطورية العربية التى وصلت إلى أوج مجدها فى عصر الخلفاء الأمويين. كتب محمد عنان فى المرجع السابق ذكره: (كان اضطرام العصبية والخلافات القومية من جهة أخرى، يعمل عمله لتمزيق روابط هذه الإمبراطورية الشاسعة. ففى إفريقية كانت ثورة البربر القومية، تستنفد قوى الخلافة ومواردها بلا انقطاع، وكان الخلاف بين العرب والبربر فى الأندلس يهدد مصير الإسلام والخلافة فى ذلك القطر النائى، ويفت فى عضد الزعماء والقادة ... كان العرب أنفسهم قدوة سيئة فى تفرق الرأى والكلمة. فكانت المعركة الخالدة بين مضر وحمير، وبين مختلف القبائل والبطون تمزق أوصال الوحدة العربية، وتقوض دعائم هذه العصبية القومية، التى دفعت يوم اتحادها وتماسكها سيل الفتوح الإسلامية إلى أقاصى المشرق والمغرب). فى ذلك الوقت لم يكن يوجد استعمار أو الولايات المتحدة الأمريكية، أو إسرائيل لنعزو إليهم أسباب الفتن والفرقة، كانت المؤامرات والخلافات كلها داخلية، منبثقة من الثقافة القبلية المتغلغة داخل طبيعة العربى، فقطعت دعائم العزم والقوة بين المسلمين حتى انهارت الإمبراطورية العربية / الإسلامية نتيجة نخر التسوس الداخلى الذى أوجده المسلمون أنفسهم.

ظل الشيعة زهاء نصف قرن ينظمون دعوتهم، ويحشدون الأنصار، يتقدمهم أبو مسلم الخرسانى الفارسى الأصل، الذى هزم قوات بنى أمية فى بلاد الفرس وطردهم منها. حشد مروان بن محمد جيشا ضخما للدفاع عن ملك بنى أمية، وسار شرقا حتى وصل إلى ضفاف نهر الزّاب الذى يعتبر فرعا من نهر دجلة بالعراق، كانت القوات الأموية تبلغ مائة وعشرين ألفا، أما قوات الشيعة فبلغت عشرين ألفا من الجنود المتسلحين بالحماسة والعزيمة. نشبت المعركة الفاصلة بين الفريقين والتى انتهت بهزيمة الجيش الأموى فى يناير ٧٥٠،

وغرق فى النهر آلاف من جنود بلاد الشام، وفر مروان إلى الشام، فسارت فى أثره القوات الشيعية وحاصرت دمشق حتى سقطت بعد قليل، فهرب مروان إلى فلسطين ثم إلى مصر، ولكن تم القبض عليه وقتل فى شهر أغسطس من نفس العام، ثم أخذ أبو العباس عبد الله أول خلفاء بنى العباس المكنى بالسفاح بتعقب أمراء وسادة بنى أمية فى جميع أقطار المسلمين فقتل معظمهم. انهارت دعائم الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية، ليبدأ عصر العباسيين، ودورة جديدة من الازدهار ثم الانحدار والانهيار.

نعود مرة ثانية إلى بلاد الأندلس، فقد قام بعض الخوارج يدعون لبنى العباس طمعا فى الرياسة، ولكن استطاع حاكمها يوسف الفهرى أن يحكم قبضتها ويناهض الخارجين بقوة وصرامة. هرب من مذابح بنى العباس فتى يسمى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، كانت أمه بربرية فهرب إلى أخواله فى أقصى غرب أفريقيا. فى أواخر عام ٧٥٣ وجد عبد الرحمن أن الصراع يشتد بين المضرية واليمنية فى بلاد الأندلس، فأرسل مرسالا إلى العصبة الأموية والشاميين الموالين لبنى أمية، وناشدهم العمل لنصرته. عبر عبد الرحمن البحر، ووطأت قدماه الأندلس، وبدأ ينظم دعوته لإحياء الدولة الأموية فى ربوع بلاد الأندلس. بعد أن انتشرت الدعوة الأموية فى جنوب بلاد الأندلس، خاف يوسف على حكمه فحاول ان يهادن عبد الرحمن، وعرض عليه تزويجه من ابنته وإهداءه مقاطعة غرناطة، ولكن لم ينخدع عبد الرحمن بوعود يوسف، وسار بقواته صوب قرطبة فى أوائل عام ٧٥٦. قامت المعارك بين قوات الطرفين، وانهزمت فيها قوات يوسف. ظفر عبد الرحمن بعرش مزعزع يكتنفه الخصومات، وبلاد تتناثر فيها القوى المتصارعة التى تأبى الخضوع لأى سلطة مركزية. وجد عبد الرحمن أنه لابد ان يبدأ بإحياء دولة إسلامية فى بلاد الأندلس، دولة تتسم بالتماسك والوحدة، مستغلا أصله العربى/ البربرى . فى عهد انتصار عبد الرحمن كان عمره لا يتجاوز السادسة والعشرين، يتميز

بالذكاء والاحترام، فاستطاع أن يحيى دولة بنى أمية فى بلاد نائية عن مركز الإمبراطورية العربية، لتستقر دولة بنى أمية فى بلاد الأندلس لأكثر من قرنين.

تجددت المعارك بين يوسف وعبد الرحمن الأموى، والتى خلصت فى النهاية إلى مقتل يوسف، بينما هرب الابن الثانى محمد بن يوسف، والأصغر القاسم . استطاع القاسم الاستعانة بحلفائه فى حشد بعض القوات التى استولت على إشبيلية، فسارع عبد الرحمن الأموى بإرسال قواته إليها وتغلب على قوات القاسم ودخل إشبيلية منتصراً. ظهرت ثورة أخرى بالقرب من طليطلة بقيادة عبد الغافر اليمانى زعيم اليمانية، ولكن استطاع عبد الرحمن استمالة حلفاء عبد الغافر من البربر، واقتتل الفريقان، فهُزم عبد الغافر، وفر بعيداً عن قرطبة، فى عام ٧٦١ قامت ثورة أخرى فى إشبيلية تحت زعامة حيوة بن ملامس الحضرمى الذى تغلب على قوات عبد الرحمن فى إشبيلية وإستجة وسار عبد الرحمن إلى إشبيلية فدارت المعارك العنيفة على مدى عدة أيام، ولكن لحق الثوار الإعياء والتعب فوقعت عليهم الهزيمة وفر زعيم الثوار، وكتب إلى عبد الرحمن يلتمس العفو والمغفرة. لم يمر وقت طويل حتى ظهرت ثورة أخرى فى طليطلة فسار إليها عبد الرحمن بقواته وحاصر المدينة حتى اضطر الثوار إلى طلب الصلح. كانت أقوى الثورات بدعم من خصوم بنى أمية، فقد استطاع العلاء بن مغيث أن يستصدر أمراً من بنى العباس لتعيينه أميراً على بلاد الأندلس. لم يكن للخليفة العباسى أى اعتراض لدعوة العلاء بن مغيث ما دام لا يطلب دعماً مادياً. تأججت الثورة فى باجة وما حولها، ولاسيما الفهرية واليمنية والجنود المصريين، فاستطاع العلاء جمع جيش كبير حوله. نشبت المعارك بين عبد الرحمن الأموى وقوات العلاء، واستمرت عدة أيام، حتى هُزم العلاء وقُتل فى هذه الأثناء، وفى عام ٧٦٤ كانت الثورة فى طليطلة قد استفحلت بزعامة هشام الفهرى فأرسل إليهم عبد الرحمن جيشاً كبيراً فطوق طليطلة وشدد الحصار

عليها حتى طلب أهلها الصلح وقبض على هشام وبعض من أصحابه، فأُخذوا إلى قرطبة فعُذبوا وصُلبوا. فى أوائل عام ٧٦٦ خرج سعيد البحصبى مطالبا بثأر اليمانية الذين قتلوا مع العلاء، فاجتمعت حوله اليمانية وسار سعيد بقواته إلى إشبيلية واستولى عليها، فخرج إليه عبد الرحمن بقواته وهزم سعيداً فى معركة شديدة ثم قتل. سار عبد الرحمن بعد ذلك إلى شذونة فحاصرها حتى أذعن أهلها لطلب الأمان. استمرت الثورات حتى نشبت فتنة أخرى من نوع جديد، فقد زعم أحد البربر أنه من نسل النبى ومن فرع فاطمة والحسين. قويت دعوة البربر، فدعا عبد الرحمن والى طليطلة لقمع هذه الثورة، ولكن استطاع هذا الدَّعى هزيمة قوات عبد الرحمن، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه واقتحم منطقة الثورة، ففر البربر إلى الجبال. فشلت الحملات المتوالية لإخماد ثورة البربر فى تلك المنطقة الوعرة، فذهب عبد الرحمن إلى الحيلة للوقيعة بين البربر باستصدار أمر بتولية كبيرهم على شرق الأندلس، فظهرت الفرقة بينهم. فى عام ٧٧٥ تجمع الثوار القدامى وتحالفوا، وحشدوا قواتهم لمهاجمة قرطبة، فعاد عبد الرحمن إليها سريعا ولجأ إلى الحيلة باستمالة البربر من قوات أعدائه. تقاعس عن القتال البربر من أعداء عبد الرحمن، فهزمت قوات الثوار وكثر القتل فى جموعهم حتى بلغ زهاء ثلاثين ألفا من المسلمين. تفرغ عبد الرحمن بعد ذلك لمطاردة الدعى الذى زعم بأنه من نسل الحسين، وأرسل حملة لقتاله ولكن لم يستطع القضاء عليه، فاتجه مرة أخرى إلى الحيلة والتآمر، فاتفق مع بعض من أنصاره لقتله، واستطاع فعلا الظفر برأسه فى عام ٧٧٦ لتنتهى أطول الثورات عمرا.

كان كل ما سبق ثورات المسلمين واقتتالهم حتى سقط منهم الآلاف، أما استعانة الثوار المسلمين بالفرنج المسيحيين فلها قصة أخرى، ففى عام ٧٧٤ تحالف كل من سليمان بن يقظان الكلبى والى برشلونة، والحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقسطة، لقتال عبد الرحمن وخلعه. حاول عبد الرحمن الأموى القضاء على ثورة شمال بلاد الأندلس، فأرسل لهم جيشا بقيادة ثعلبة

الجذامى، ولكن استطاع الثوار هزيمة هذا الجيش وتم أسر ثعلبة فى عـام ٧٧٥. فكر زعماء تحالف ولايات الشمال طلب مناصرة ملك الفرنج تحسبا لإرسال عبد الرحمن جيشا أضخم. سار سليمان الكلبى إلى لقاء شارلمان فى عـام ٧٧٧ واقترح عليه غزو الولايات الأندلسية الشمالية، وتعهد بمعاونته على قتـال عبـد الرحمن الأموى ثم تسليمه برشلونة. وافق ملك الفرنج علـى عـرض الثـوار المسلمين وبعث سليمان بأسيره ثعلبة قائد عبد الرحمن إلى شارلمان ملك الفرنج تأكيدا على التحالف وتثبيتا للثقة، فسجن فى إحدى القلاع الفرنسية. كان الخوارج قد دأبوا فى العقود الماضية إلى الاتصال بـالفرنج، طـامعين فـى مناصـرتهم للاستقلال بمدنهم أو ولاياتهم، وكان الفرنج يسارعون إلى تلبية هـذه الـدعوات لإشعال الفرقة والخلاف بين المسلمين، خاصة أن الخلافة العباسية فى المـشرق العربى كانت تبارك هذا التحالف للقضاء على حكم عبد الرحمن الأموى فى بلاد الأندلس. بدأ شارلمان فى تجهيز جيش ضخم ليس فقط للاستيلاء علـى المـدن التى وعد سليمان تسليمها إلى الفرنج بل أيضا للسيطرة على إسبانيا كلها وطـرد المسلمين منها. كان شارلمان يسعى لوقف غارات المسلمين على بلاده خاصـة القريبة من حدود الأندلس، ولكن صبغ الحملة باللون العقائدى الدينى حتى يحـث مسيحى أوروبا لمناصرته، ويتقبل مباركة البابا. سار شارلمان إلـى الجنـوب قاصدا بلاد الأندلس فى عام ٧٧٨ على رأس جيش مكون من الفرنج والجرمان ومجموعات أخرى من باقى الولايات الأوروبية. واصل شارلمان مسيرته بعـد استيلائه على بنبلونة ومعه سليمان إلى سرقسطة، مخططاً لقاء حلفائه المـسلمين على أهبة الاستعداد للاستيلاء على المدن الكبرى، ولكن أتـت الريـاح بمـا لا تشتهى السفن، فقد دب الخلاف بين الخوارج / الثوار المسلمين، فقد نقم الحسين الأنصارى والى سرقسطة على سليمان، لظهور سليمان فى الصدارة والزعامـة مع الخلفاء الخوارج، فنشبت الخصومة بين الحسين وسـليمان، فغيـر موقفـه ورفض استقبال الغزاة الفرنج ومعهم سليمان، وحصن المدينة لمقـاومتهم. لـم

تستطع قوات الفرنج الاستيلاء على المدينة لقوة دفاعهـا وتحـصينها، فغـضب شارلمان على سليمان بعد أن ارتاب فى نواياه وقبض عليه فى شهر يوليو مـن عام ٧٧٨. اتفق ولدا سليمان مع الحسين بن يحيى على تجهيز جـيش مـشترك لمهاجمة شارلمان وقواته فى طريق عودته إلى فرنسا. ما كاد الجيش الفرنـسى يعبر ممرات جبال البرنية التى تفصل إسبانيا عن فرنسا، حتى هاجمـت قـوات المسلمين مؤخرة الجيش الفرنسى بمعاونة قوات البشكنس المسيحية التى نكل بها شارلمان عند ذهابه لمحاربة عبد الرحمن. انتزعت القوات الإسلامية من جـيش الفرنج، الأسلاب والأسرى وفيهم سليمان بن يقظان، وهلك خلال هذه المعركـة عدد كبير من سادة جيش الفرنج.

بينما كان شارلمان يصارع البشكنس والمسلمين فى شمال بـلاد الأنـدلس، كان عبد الرحمن الأموى أو عبد الرحمن الداخل – كما أطلق عليـه – يحـاول تكرارا إخماد ثورة البربر. ما كاد عبد الرحمن يفرغ من ثورات البربـر حتـى ظهر خطر جديد عليه، فقد قام عبد الرحمن بـن حبيـب الفهـرى المعـروف بالصقلبى – لطول قامته وشقرته وزرقة عينيه – بعبور البحر من أفريقيـا إلـى بلاد الأندلس فى قوة كبيرة. حاول الصقلبى التحالف مع سليمان بن يقظان، ولكن تنصل ابن يقظان من وعده بإمداده بالعتاد والجنود، بل قام سـليمان بمهاجمتـه وهزمه، فعاد الصقلبى إلى بلدة تدمير لتنظيم قواته. لم ينتظـر عبـد الـرحمن الداخل حتى ينتهى الصقلبى من الاستعداد لملاقاته، بل أسرع بالهجوم وأحـرق سفنه الراسية بالساحل، ثم دس عليه بعض أصدقائه الذين تمكنوا منه واغتـالوه فى عام ٧٧٩. وقعت بعد ذلك عدة ثورات محلية عُنى عبـد الـرحمن الـداخل بقمعها، منها الثورة التى قامت فى الشمال بعد أن تقاتـل الحلفـاء والأصـدقاء القدامى، وهما الحسين بن يحيى الأنصارى وسليمان بن يقظان، وقـام الحـسين باغتيال سليمان فى المسجد الجامع. سار عبد الرحمن الداخل نحو الشمال لتأديب الحسين ثم عفا عنه بعد أن طلب الصلح وعينه واليا على سرقسطة، لما انتهـى

الداخل من هذه المهمة زحف شمالا إلى بلاد البشكنس وأرغم أميرها على تقديم الطاعة وأداء الجزية. نكث الحسين عهده بالتزام الأمن والسلام، فأرسل عبد الرحمن الداخل جيشا وتم حصار سرقسطة فى عام ٧٨٣، وضربها بالمجانيق ثم اقتحمها وقبض على الحسين وجماعته وقُتلوا جميعا. ظهرت مؤامرة أخرى بقيادة الوليد بن معاوية ابن أخى الداخل، ورهط من أقاربه، فاكتشف عبد الرحمن الداخل أسرار هذه المؤامرة، ولم يتورع عن قتل ابن عمه وابن أخيه. فى عام ٧٨٤ فر أبو الأسود الفهرى من سجنه، وأعلن الثورة فى طليطلة ، فخرج الداخل لقتاله ، وهزمه بعد أن أتفق مع بعض قواته على التقاعس والتوانى فى الحرب . قضى عبدالرحمن الأموى (عبد الرحمن الداخل) ثلاثة وثلاثين عاما هى مدة حكمه فى كفاح وصراع مستمر . لقد ظهر كفتى شريداً، وحيداً، ليس له صاحب أو نصير، معدوم المال والعزوة، ولكن بالعزيمة التى لم تمل أو تكل، وبالقوة التى أحسن تنظيمها واستخدامها، وباللجوء إلى الغدر والخديعة تارة أخرى، وبمزيج من الحزم والاعتدال واللين والمهادنة، استطاع عبد الرحمن أن يخلد اسمه كأحد أعظم الشخصيات فى التاريخ الإسلامى، فأسماه أبو جعفر المنصور "صقر قريش"، لكونه دخل بلدا أعجميا منفردا بنفسه، فأقام ملكا عظيما، وأذل الجبابرة الثائرين.

توفى عبد الرحمن الأموى / الداخل فى أكتوبر من عام ٧٨٣، وهو فى الثامنة والخمسين من عمره، فخلفه ابنه هشام بن عبد الرحمن، الذى لم يكن أكبر إخوته ولكن اختاره عبد الرحمن بين أبنائه الأحد عشر، لما له من صفات العزم والشجاعة، والعدل والتقوى. لم يعترف أخاه الأكبر سليمان بهذه الخلافة فتحالف مع أخ ثالث يسمى عبد الله على إعلان الثورة، ولكنهما فشلا. حاول ثوار الماضى استغلال هذه الفرصة، ولكن قوات هشام استطاعت القضاء على هذه الانتفاضات وسحقتها. فى عام ٧٩١ سيّر هشام جيشاً إلى شمال البلاد لتأكيد

إخضاع المسيحيين من فرنجة وبشكنس، واستطاعت القوات الإسلامية فرض سيطرتها على الولايات الشمالية والعودة إلى قرطبة محملة بالغنائم والسبايا. مثل أباه، تأهب هشام لمحاربة الفرنج، ففى عام ٧٩٢ سيَّر جيشاً على شمال شرق إسبانيا، واستطاعت قواته الاستيلاء على عدد من القلاع والحصون، وفى عام ٧٩٤ سير حملة إلى المنطقة التى يحتشد فيها البربر فى إقليم تاكرنا، فأخمد ثورتهم، وأباد جموعهم، وخرب ضياعهم، وشتتهم على جميع القبائل. فى عام ٧٩٥ أرسل هشام حملة إلى جليقية فى شمال البلاد، ففر سكانها من المسيحيين إلى الجبال، ثم نشب قتال بين الطرفين، وانتصرت القوات الإسلامية فى نهاية الأمر وغنمت كثيراً من الغنائم. توفى هشام فى عام ٧٩٦، وخلفه الحكم بن هشام وكان حازما وشجاعا، طاغية وشديد البأس على خصومه والخارجين عليه. فى عام ٧٩٧ ثار بهلول بن مروان ودخل سرقسطة، كما ثار حاكم مدينة وشقة فى نفس الوقت. عبر سليمان وعبد الله سرا من شمال أفريقيا إلى بلاد الأندلس، ساعيين إلى مقابلة شارلمان طلبا للعون والمؤازرة، فوجدها شارلمان فرصة لتحقيق مطامعه القديمة فى بلاد الأندلس، وشجع هذا التحالف باقى الثوار لإعلان تمردهم. سار الفرنج والثوار المسلمون نحو الجنوب، فأرسل لهم الحكم بن هشام جيشه لمحاربتهم، فخشى الفرنج أن تتكرر حوادث الماضى من نكث حلفائهم المسلمين، فارتدوا إلى الشمال. فى نفس الوقت كان سليمان بن عبد الرحمن قد حشد الكثير من الأنصار، فأسرع إليه أخوه عبد الله، وسارا بقواتهما إلى قرطبة، فتصدى لهم الحكم الذى هزم قوات أعمامه وأمر بإعدامهما ، ثم عفا عنهما بعد ذلك .

ذهب بعض المؤرخين إلى أن الخلافة العباسية كانت وراء الثورات، وتغذية الفتن فى بلاد الأندلس وتشجيع الغزوات المتتابعة للفرنج. تورد بعض الروايات إلى قيام الصلة بين المنصور وملك الفرنج، كما تضيف وجود المراسلات بين الرشيد وشارلمان. كانت الخلافة العباسية ترى أن إمارة قرطبة

الأموية فى بلاد الأندلس تعتبر منافسا لها فى سيادة العالم الإسلامى، دون اعتبار للعقيدة الدينية الواحدة التى تربط بينهما، فتوحدت أغـراض الخلافـة العباسـية ومملكة الفرنج فى زعزعة النظام فى بلاد الأندلس. كتـب محمـد عنـان فـى المرجع السالف ذكره : (لم يكن بعيداً أن يجد الخليفة العباسى وهو يبسط حكمه على ملايين النصارى ، وفى أرضه يقع القبر المقدس ، وسـيلة للتفـاهم مـع إمبراطور الفرنج وحامى النصرانية ، وأن يجد عاهل الفرنج ما يـشجعه علـى إذكاء تحرشه بإمارة قرطبة ، فى رفق الخليفة برعاياه النصارى ، هـذا فـضلا على أن السياسة الفرنجية تعمل بذلك على تحقيق غايتها الأصـلية فـى منـاوأة الإسلام فى إسبانيا وإضعاف سيادته ونفوذه ، وحمايـة حـدود مملكـة الفـرنج الجنوبية. وإذاً فمن المحتمل أن يكون لهذه السفارات والمراسلات السياسية، التى تقول الرواية الفرنجية بوقوعها بين الرشيد وشارلمان، صلة بهذه المرحلة مـن تدخل الفرنج فى شئون إسبانيا المسلمة، واعتدائهم المتكرر على أراضيها. وقـد وقع الغزو الفرنجى لشمال إسبانيا فى عهد الحكم بين سنتى ١٨١ و ١٨٥ هـــ، أعنى فى أواسط عهد الرشيد (١٧٠-١٩٣ هـ). والواقع أن فى اتحاد المصلحة والغاية بين الخليفة العباسى وعاهل الفرنج، ما يسبغ على هذا الغرض تأييدا).

فى عام ٨٠٥ ميلاديا اكتشف الحكم مؤامرة دبرت لخلعه، خطط لها الفقهاء الذين قضى الحكم على نفوذهم، فقد اتهموه بالخروج على أحكـام الـدين. كـاد التدبير أن ينجح لولا خوف واحد منهم فبادر بإبلاغ الحكم، فقبض الحكـم علـى معظمهم وأعدم اثنين وسبعين منهم. فى العام التالى نشبت ثورة فى ماردة بقيادة زعيمها، وفى عام ٨٠٨ غزا الفرنج بقيادة لويس ابن شـارلمان ولايـة الثغـر، وحاصروا مدينة طرطوشة، فبعث الحكم جيشا إلى الـشمال بقيـادة ابنـه عبـد الرحمن، وانتهت المعارك بهزيمة الفرنج. لم يمر عامان حتى سار الحكم علـى رأس جيش متوجهاً نحو الثغر فى شمال بلاد الأندلس، وهزم القوات المـسيحية التى كانت دوما ما تهاجم المسلمين، فقتل وسبى منهم الكثير. قامت بعد ذلك عدة

ثورات، فأرسل الحكم ابنه هشام إلى باجة لمقاتلة الثوار، ثم عادت طليطلة إلى الثورة مرة أخرى، فقاد الحكم قواته فى عام ٨١٠ لإخماد الثورة. فى أواخر عهد الحكم اضطرمت بقرطبة ثورة شعبية كادت أن تعصف به، ولكنه تصدى لها بقوة وحزم وقتل الكثير من الثوار. توفى الحكم فى مايو من عام ٨٢٢ بعد أن أنشأ فى الأندلس أول عرش إسلامى ملكى، واستكثر من الموالى الصقالبة المسيحيين، والوافدين من مختلف الدول الأوروبية.

تولى عبد الرحمن بن عبد الحكم الولاية بعد وفاة والده، مفتتحا عهده بقيام ثورة جديدة يتزعمها عم أبيه، إلا أن الموت عاجله فانتهى أمر الثورة. فى عام ٨٢٣ أغار الفونس الثانى ملك ليون الفرنسية على مدينة إسلامية فى شمال بلاد الأندلس، فنهض عبد الرحمن للجهاد وأرسل حملة بقيادة عبد الكريم بن مغيث الذى هزم القوات الفرنسية، وتوجه إلى مدينة ليون فخربها وأحرق حصونها. فى العام التالى أرسل لويس ملك الفرنج قواته لمهاجمة البشكنس المسيحيين، فاستغاثوا بجيرانهم المسلمين وتعاونوا معهم للقضاء على القوات الفرنجية. شغلت عبد الرحمن فى الأعوام التالية عدة ثورات محلية خطيرة خاصة فى طليطلة وماردة. ففى ماردة ثار البربر، وانضم إليهم المسيحيون المعاهدون، ووجد لويس ملك الفرنج أنها فرصة سانحة للتحريض فقام بتشجيع الثوار وإمدادهم بالمال والسلاح، ولكن حدث خلاف بين الفرنج والثوار فتقاتلا وبذلك انتهت الأحداث. فى عهد عبد الرحمن بن الحكم، عرفت الأندلس لأول مرة خطرا جديدا متمثلا فى الغزوات النورمانية البحرية الوافدة من دول شمال أوروبا كالدنمارك واسكتلندا وشمال ألمانيا. تطلع النورمانيون إلى إسبانيا بعد أن وصلت حملاتهم الناهبة شواطئ فرنسا وإنجلترا. هاجم النورمانيون الشواطئ الإسبانية لأول مرة عام ٨٤٣، وأطلق عليهم المسلمون اسم المجوس أى وثنيين حيث إنهم لم يعتنقوا الديانة المسيحية فى ذلك الوقت.

نزل النورمانيون ساحل أشبونة ومكثوا بها ثلاثة عشر يوما، التحموا في خلالها بالقوات الإسلامية، ثم أبحروا جنوبا إلى قادس ثم شذونة، وأخيرا إلى إشبيلية حيث أخذوا يقتلون وينهبون، ومكثوا فيها طيلة سبعة أيام، عاثوا فيها ودمروها. بعث عبد الرحمن على عجل قواته لنجدة أهل أشبيلية، وهرع المسلمون من جميع أنحاء بلاد الأندلس لرد الغزاة. بعد قتال عنيف، استطاعت القوات الإسلامية هزيمة النورمانيين وقتل منهم نحو ألف غير الأسرى والجرحى، وأحرقوا ثلاثين من سفنهم. احتمى النورمانيون فى سفنهم وأبحروا جنوبا فطاردهم المسلمون حتى غادروا مياه بلاد الأندلس بعد أن مكثوا بها اثنين وأربعين يوما، عانى فيها المسلمون الكثير من المحن والشدائد. على أثر هذه الغزوة، أخذ عبد الرحمن فى بناء سور حصين حول إشبيلية، كما اهتم بصناعة السفن الحربية الكبيرة، فكانت نواة الأسطول الأندلسى الذى وصل إلى مائتى سفينة حربية.

بعد أن انجلت المحنة، سير عبد الرحمن جيشا بقيادة ابنه هشام صوب الشمال فاخترق قشتالة، وغزا بتبلونة، وحاصرت قواته مدينة ليون فلجأ سكانها إلى الجبال، فعاثت القوات الإسلامية فى المدينة قتلا وتخريبا ثم عادت مرة ثانية إلى الأندلس. فى عام ٨٤٧، عادت الثورة إلى بعض البلاد الأندلسية، فبعث عبد الرحمن حملة لإخمادها. وفى العام التالى أرسل عبد الرحمن قطع من أسطوله إلى بعض الجزر الشرقية – جزائر البليار – لمعاقبة أهلها على التعرض لسفن المسلمين، فأصابوا من أهلها وسبوا الكثير من سكانها، حتى تعهدوا بالولاء والطاعة ودفع الجزية. جاء فى كتاب "دولة الإسلام فى الأندلس" عن غزوات المسلمين البحرية: (كان قوام هذه الحملات فى الغالب جماعات من البحارة والمجاهدين، الذين يجوبون هذه المياه طلبا للغنيمة والسبى، ويثخنون فى الثغور والجزر النصرانية القريبة. ففى سنة ٨٠٦ م – ١٩١هـ فى عهد الحكم، غزت

إحدى هذه الجماعات البحرية الأندلسية المغامرة جزيرة كورسيكا، فبعث ابن شارلمان ملك إيطاليا أسطولا لقتالهم، فهزموه واستولوا على كثير من الغنائم والسبى. ولم يمض عامان على ذلك، حتى عاد البحارة المسلمون إلى غزو شواطئ كورسيكا وسردانية، ثم توالت غزواتهم بعد ذلك. وفى سنة ٨٣٦ م خرج أسطول أندلسى ... وسار إلى مياه فرنسا الجنوبية، وهاجم المسلمون ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضى وأثخنوا فيها. وكان على عرش فرنسا يومئذ لويس ابن شارلمان، وكان ملكا ضعيفا عاجزا، فلما توفى سنة ٨٤٠ م، اضطربت أحوال المملكة، وضعف حماية الثغور، فانتهز البحارة المجاهدون هذه الفرصة، وغزوا ولاية بروفانس عند مصب نهر الرون، وهاجموا مدينة آرل وخربوها، ثم توالت غزواتهم فى تلك المياه بعد ذلك، وكان من أثرها أن قامت مستعمرات عربية كثيرة فى بوفانس وفى أنحاء أخرى فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا).

توفى عبد الرحمن عام ٨٥٢، وتولى المُلك ابنه محمد بن عبد الرحمن، بعد أن استدعى إخوته التسعة والأربعين، وأهل بيته، وعظماء المملكة، فأخذت له البيعة دون خلاف. كان محمد ألمعياً، فاطناً بصيراً بالأمور، ولكن شهد عهده أخطر الأحداث على دولة الأندلس الإسلامية. تحركت الثورة فى طليطلة، وأسر الثوار حاكمها، فأرسل الأمير محمد أخاه على رأس حملة فوقعت معركة بين الفريقين انتهت بهزيمة قوات الأمير. تيقن محمد من خطورة الموقف فسار بنفسه فى عام ٨٥٤ على رأس قوة كبيرة لإخماد ثورة المسيحيين الذين حركتهم أقاويل المحرضين عن اضطهاد المسلمين للمسيحيين فى قرطبة. استغاث المسيحيون بملك ليون، وملك نافار، فأمدهم الأول بقوة عسكرية. أشعل تدخل الفرنج حماس المسلمين فهبوا لمناصرة الأمير محمد، وقامت معركة عنيفة قتل على أثرها آلاف من المسيحيين. لم تخمد الفتنة الدينية والطائفية، فقد كان رجال الدين المسيحيون يغذونها ويدعون إلى التحرر من الاضطهاد الدينى والاجتماعى.

استمرت المفاوضات حتى عام ٨٥٨ حيث خرج محمد بقواته نحـو طليطلـة وحاصر المدينة الثائرة. لجأ محمد إلى الحيلة، فقام بهدم قواعد القنطرة الكبيـرة المقامة على نهر التاجه. أمر محمد جنوده بالانسحاب فخرج أهل طليطلة لقتاله، فلما احتشدوا على القنطرة بأعداد كبيرة سقطت بهم فى النهر، فعاد محمد بقواته ودخل المدينة وخرب حصونها ومعالمها، ونزلت قواته فى أهلها قـتلا وسـفكا حتى أزعنوا لطلب الصلح والطاعة. بعد أن فرغ الأمير محمد من طليطلة ذهب لقمع ثورة المسيحيين فى قرطبة فى العام التالى. دهم الأندلس خطر آخـر مـن عودة النورمانيين باثنتين وستين سفينة، ولكن الأسطول الإسـلامى اسـتطاع أن يقضى على طلائع الغزاة ويغنم سفينتين محملتين بالغنائم والأسـلاب. رجعـت السفن النورمانية لمهاجمة المسلمين، ودخل النورمانيون الأراضـى الأندلـسية، وقامت معارك برية وبحرية عنيفة حتى عادوا إلى بلادهم بعد أن عاثوا فى بلاد الأندلس الإسلامية قتلا ونهبا. تجددت حملات الأمير محمد إلى شمال الأنـدلس لتخوض قواته فى أراضى المسيحيين وتقتل منهم عدداً كبيراً. هـدت الغـزوات الإسلامية المتوالية من قوى المسيحيين، فمالوا إلى السلام حول عام ٨٦٦.بعـد عامين تجددت انتفاضات المتمردين فى شمال البلاد، فخرج إليهم محمد بقواتـه حتى تم سحق الثوار. كان المسلمون المنتمون إلى أصل مسيحى – والذين يطلق عليهم " المولدة " أو المولدين – دائمى التمرد، وغالبا ما كانت هذه الفئة تتحالف مع المسيحيين الفرنجة أو مع أهل الأندلس المسيحيين، فى عـام ٨٧١ عـادت الثورة بشدة فى بلاد الشمال من بعض عائلات المولدين القوية ، فخرج الأميـر محمد من قرطبة بجيشه فى العام التالى ، وعرج فى طريقه على طليطلة ، حيث عقد لأهلها الأمان ، ثم أكمل مسيرته إلى الثغر الأعلى ، ثم اتجه إلى نافار فقـام بتخريبها ، وعاد أخيرا إلى قرطبة حيث أمر بقتل رءوس الثوار.

لم يهنأ الأمير محمد بالسلام طوال حكمه، فعادت الثورة مرة أخرى فى الشمال فى عام ٨٧٨، فأرسل إليها الأمير حملة عسكرية. لم تنقطع الثورات من أنحاء بلاد الأندلس الأخرى، ولكن رئاسة الحكم فى قرطبة كانت تعطى للثغر الأعلى أهمية خاصة لوجودها على حدود الممالك المسيحية الشمالية. ففى عام ٨٨٢ أمر الأمير محمد ولده المنذر بالسير إلى الشمال على رأس جيش ضخم لسحق ثورة جديدة كانت تموج فى هذه الأنحاء، وأرسله مرة ثانية إلى سرقسطة فى العام التالى. فى عام ٨٨٣ خرج المنذر إلى الثغر الأعلى لإخماد ثورة أخرى، ثم عاد الزحف فى عام ٨٨٦ على مدينة الحامة فى شمال شرقى مالقة وحاصرها. جاءت الأخبار من قرطبة بوفاة الأمير محمد، فعاد المنذر لفوره، فتنفس الثوار الصعداء وعاثوا فى المقاطعات المجاورة. وصل المنذر بن محمد إلى قرطبة بعد أيام من وفاة أبيه، فتم إعلان البيعة وتولى العرش ليبدأ عهد جديد للمسلمين فى بلاد الأندلس.

سير المنذر بعد ولايته بقليل حملة إلى طليطلة التى عادت إلى الثورة بعد أن انضم إلى أهلها الكثير من البربر المنفيين. هزمت قوات المنذر الثوار وقُتل منهم الألوف، ثم أرسل حملة إلى الثغر الأعلى لمحاربة المسيحيين. كان الخطر الحقيقى للمنذر يتمثل فى ثورة الجنوب بقيادة أحد المولدين وهو ابن حفصون الذى اشتد بأسه بعد وفاة الأمير محمد، وأخذ يعمل على إخضاع القواعد والحصون الجنوبية لسلطانه، فامتدت سيطرته إلى أرشدونة ومالقة وجيان وإستجة وغيرها من البلاد. أخذ ابن حفصون يظهر الدعوة لبنى العباس، وراسل أمير أفريقيا فى تونس، يؤلب المسيحيين والمسلمين على الحكم الأموى فى الأندلس، ويدعو إلى الاستقلال والحرية. وصل ابن حفصون بقواته إلى المنطقة الوسطى من بلاد الأندلس واستولى على حصن بريجو. فى عام ٨٨٧ خرج المنذر بنفسه، يقود جيشا للقضاء على الثورة، فحاصر أرشدونة حتى سلمت وافتتح حصن بريجو. تحصن ابن حفصون فى ببشتر، فحاصره المنذر حتى نفد

منه الزاد فطلب الصلح والأمان على أن يذهب بأهله إلى قرطبة، فوافق المنذر وأمده بالدواب والمؤن من أجل رحلته. خدع ابن حفصون المنذر وهرب تحت جنح الظلام بعد أن رفع المنذر الحصار عن ببشتر، فعاد المنذر مرة ثانية لحصار المدينة. فى عام ٨٨٨ مرض المنذر فطلب من أخيه عبد الله أن ينوب عنه فى متابعة الحصار. تذهب الروايات إلى أن عبد الله حرض طبيب الأمير المنذر على دس السم له فقضى الأمير نحبه، وتولى عبد الله الإمارة. رفع عبد الله الحصار عن ببشتر وعاد بجيشه إلى قرطبة، فعاد ابن حفصون إلى تنظيم قواته وتوطيد سلطاته على المقاطعات الجنوبية.

انتشرت الثورة ولم تعد قاصرة على المناطق الجبلية، وامتدت إلى زعماء القبائل العربية، وظهر البربر مرة ثانية، ونشبت المعارك العنصرية القديمة بين العرب والمولدين، وأصبحت إشبيلية مسرحاً للتنافس الدموى بين العرب والبربر، وبسط ابن حفصون نفوذه على معظم الأنحاء الجنوبية، ولم يبق لحكومة قرطبة سلطان فعلى إلا فى منطقة العاصمة وما حولها. فى مايو ٨٩١ قامت معركة عنيفة بين قوات الأمير عبد الله وقوات ابن حفصون قتل خلالها ألوف عديدة من الثور، وهرب ابن حفصون إلى شعب الجبال الجنوبية. توالت حملات عبد الله على ابن حفصون طوال العقدين الأولين من القرن العاشر الميلادى، وبالرغم من أن حكومة قرطبة استطاعت أن تعمل على إحباط خططه فى السيطرة الكاملة على بلاد الأندلس إلا أنها لم تنجح فى القضاء عليه. فى نفس الوقت كانت طليطلة قد سقطت فى يد زعماء البربر بقيادة موسى ذى النون منذ عام ٨٨٨، ولكن استطاعت الحكومة المركزية أن تعيدها مرة ثانية إلى حظيرتها. لم تشهد بلاد الأندلس فترة عمّت فيها الفتن والفوضى والانكماش مثل عهد عبد الله. رزق عبد الله اثنا عشر ابنا وثلاث عشرة بنتا، وكان محمد هو أكبر أبنائه وولى عهده، ولكن كان أخوه الأصغر مطرف يحقد عليه ويرى أنه

أحق بولاية العهد. أخذ مطرف يدس فى حق أخيه، ولا يتوانى فى اتهام أخيه بالميل إلى الثورة والاتصال بابن حفصون حتى قام عبد الله باعتقاله ثم اغتيل غدراً فى معتقله. اختلفت الروايات عن مقتل ولى العهد محمد، فمن قال إن أخيه مطرف هو الذى خطط لاغتياله، ومن ذهب إلى أن اغتياله كان بعلم من أبيه عبد الله. توفى محمد فى عام ٨٩١ وهو فى السابعة والعشرين من عمره، تاركا ابنا رضيعا يسمى عبد الرحمن، كانت أمه إسبانية مسيحية تدعى ماريا، فكفله جده عبد الله حتى وفاته عام ٩١٢، فتولى محمد الولاية بعد أن اختاره عبد الله لولاية العهد، ليغدو واحداً من أعظم خلفاء الأندلس ويظهر فصل جديد فى كتاب تاريخ بلاد الأندلس الإسلامية.

رأى عبد الرحمن أن سياسة المهادنة والتردد لا تجدى مع الثوار، فقرر اللجوء إلى الحزم والقوة. لم تمض أسابيع قليلة من ولايته إلا وقد أرسل حملته الأولى بقيادة الوزير عباس القرشى إلى قلعة رباح فطهرها من الثوار، ثم أرسل حمله ثانية لاسترداد مدينة إستجة من أنصار ابن حفصون. فى مارس من عام ٩١٣ تولى عبد الرحمن قيادة حملة تحركت صوب وسط الأندلس حيث كانت الثورة على أشدها، فاستولى على حصن مرتش، ثم زحف إلى مالقة فاحتلها وطهرها من أتباع بن حفصون، ثم قصد بعد ذلك حصن مونت ليون مقر زعيم المولدين سعيد بن هزيل، فاقتحم الحصن واستسلم الزعيم الثائر طالباً الأمان. تابع عبد الرحمن فتوحاته، فاستولى على عدد من الحصون الأخرى التى كانت تحت سيطرة ابن حفصون فى كورة جيان، وقدم سائر الزعماء الخوارج طاعتهم، فعفا عنهم . سار عبد الرحمن بعد ذلك جنوبا إلى كورة رية فاحتل حصونها بعد قتال عنيف مع قوات ابن حفصون، ثم توغل فى شعب جبل الثلج واستولى على حصونها. حاول ابن حفصون الاستيلاء على غرناطة، ولكن تصدى له جيش عبد الرحمن وأهل البيرة وردوه عنها. بعد أن استولى عبد الرحمن على نحو سبعين حصنا عاد إلى قرطبة بعد أن قضى حوالى ثلاثة أشهر

فى فتوحات متتالية. فى مايو من عام ٩١٤ خرج عبد الرحمن فى غزوته الثانية فاستولى على عدد من قلاع الثوار. وفى أواخر العام التالى حل بالأندلس قحط شديد استمر لمدة عامين، فلما انقشعت الغمة عاود عبد الرحمن غزواته، فسير حملة إلى مملكة إسبانيا المسيحية فى الشمال بعد أن وطدت قواتها مستغلة فرصة انشغال المسلمين بإخماد ثورات الخوارج. فى عام ٩١٦ جنح عمر بن حفصون إلى الصلح والسلام بعد أن بلغ من العمر سبعين عاما، ثم توفى بعد ذلك بعامين على الدين المسيحى. حاول أولاد ابن حفصون استمرار الثورة فتصدى لهم عبد الرحمن وهزم سليمان بن حفصون فى معركة قتل فيها سليمان فى عام ٩٢٧. فى عام ٩٢٨ سار عبد الرحمن يرافقه ابنه الحكم إلى ببشتر ، فوجدها مدينة حصنية منيعة فعين لها والياً من أتباعه ، وأمر بإعمار مساجدها المهجورة ، ثم أمر بالقبض على أرخنتا ابنة عمر بن حفصون وإعدامها ، لارتدادها عن الإسلام والعودة إلى ديانة أجدادها ، فتم الإعدام فى عام ٩٣١.

اتخذ عبد الرحمن سمة الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله فى يناير ٩٢٩، وبدأت الدعوة لبنى أمية بألقاب الخلافة فى الأندلس والمغرب الأقصى. عادت مدينة طليطلة إلى الثورة بتشجيع من راميرو ملك ليون، فأرسل إليهم عبدالرحمن وفداً يدعوهم إلى الخضوع والطاعة فرفضوا، فأسرع الناصر عبدالرحمن بالسير نحو طليطلة فى قوات ضخمة فى عام ٩٣٠ وحاصرها، ثم غادرها بعد بضعة أسابيع، وعاد إليها بعد عامين معتزما القضاء على الثورة. حاول راميرو إنقاذ المدينة المحاصرة فسار على رأس قواته ولكن استطاعت القوات الإسلامية أن ترده فعاد تاركا الثوار يواجهون الحصار ، فاضطر أهلها إلى الجنوح إلى الإذعان والتسليم فدخلها الناصر عبدا لرحمن فى عام ٩٣٢ . فى العام التالى تجددت الاشتباكات بين قوات المسلمين والقوات المسيحية، واجتاح الناصر بقاع ألبته، محاولا استدراج راميرو ملك ليون إلى معركة

فاصلة، ولكنه تحصن فى قلاعه عاجزا عن وقف السيل المتدفق لقوات الناصر عبد الرحمن، وفى عام ٩٣٤ رجع عبد الرحمن بجيشه إلى قرطبة بعد إنجاز عدد من الانتصارات. وفى صيف ٩٣٩ سار الناصر إلى ليون على رأس جيشه الضخم، وكان راميرو يرابط على مقربة منها فى حشود عظيمة متأهبا لقتال المسلمين بعد أن اتحدت قوى إسبانيا المسيحية يعاونهم بعض الخونة من أمثال أمية بن إسحق. قامت معركة عنيفة نالت من القوات الإسلامية، وقتل فيها الكثير من المسلمين. بعد مدة من الزمان مال الجانبان إلى السلم، ولكن كالعادة كان سلما قصير الأمد، فتوالت غزوات المسلمين لأراضى ليون فى الأعوام التالية. فى يناير ٩٥٠ توفى راميرو ملك ليون فقامت الحرب الأهلية بين ولديه وأتباعهما، وانتهز المسلمون هذه الفرصة فعاثوا فى أراضى ليون أكثر من مرة. فاز الأمير أردونيو وجلس على عرش ليون، فرأى أن يعقد صلحاً مع الناصر فى عام ٩٥٥، ولكن أخاه رفض الصلح فتجددت المعارك.

تبوأت بلاد الأندلس فى عهد الناصر عبد الرحمن مركز الصدارة بين الدول الإسلامية، فقد كانت الدولة العباسية تميل إلى الإنحلال، ولم تكن الدولة الفاطمية فى الشرق الإسلامى قد بلغت أوج قوتها بعد. كانت الأندلس بما لديها من قوة وسلطان، تعتبر مركز الزعامة فى العالم الإسلامى، وكانت قرطبة ملتقى العلم والدبلوماسية وامتزاج الثقافتين العربية / الإسلامية، والأوربية/ المسيحية، ينتشر فيها العلماء والشعراء، وتشع ضوء الحضارة إلى الشرق الإسلامى، والشمال المسيحى بعد أن بهت نور الإمبراطورية البيزنطية. فى عام ٩٦١ توفى الناصر عبد الرحمن بعد أن أصابه المرض، وبعد أن حكم بلاد الأندلس الإسلامية زهاء خمسين عاماً بدأها وهو فتى صغير لم يكمل الثانية والعشرين من عمره. كان عبد الرحمن من أعظم أمراء الإسلام فى عصره، اجتمعت فيه خصال وقدرات عالية فى المجالات السياسية والعسكرية والإدارية، وكان عالما وأديبا، يقرب إليه الأدباء والشعراء.

بدأ نجم المسلمين المستعمرين فى منتصف القرن العاشر فى الأفول ، بعـــد أن عاثوا فى الأراضى الفرنسية ، وبلغوا الأراضى السويسرية يجوبـــون فيهـــا طمعا فى الغنائم والأسلاب ، ووصلوا إلى مقربة من بحيرة كونـــستانس علـــى حدود ألمانيا والنمسا ، وأنشأوا الكثير من الحصون والقلاع أسفل جبال الألـــب . كانت المستعمرات الإسلامية فى جنوب أوروبا تمثل خزياً وألماً للمسيحيين فـــى أوروبا، وخاصة لدى معقل الكنيسة الكاثوليكية فـــى رومـــا، وهـــب البابـــاوات لتوظيف العقيدة الدينية لتحث ملوك وأمراء أوروبا لتطهير بلادهم من الاستعمار الإسلامى، فكان لذلك الأثر المباشر فى تقليص المـــستعمرات الإســـلامية فـــى أوروبا فى النصف الثانى من القرن العاشر، ثم الإعداد للغزوات الـــصليبية فـــى المشرق الإسلامى فى نهاية القرن الحادى عشر.

بعد وفاة الناصر عبد الرحمن فقد العرب معاقلهم فى جبال الألب، وفى عام ٩٦٥ أخرج المسلمون من مدينة جرينوبل فى جنوب فرنسا. وفى عام ٩٦٩ تـــم إجلاء المسلمين من معاقلهم فى آكام سان برنار، وكان القـــديس برنـــار يقـــود القوات المسيحية ضد المسلمين. حدث بعد ذلك أن أسقف دير كـــان يحـــج إلـــى روما، ولما عاد من طريق دوفينيه أسره المسلمون المرابطون فى الجبـــال مـــع مجموعة من الحجاج المسيحيين، واشترط المسلمون دفع الفدية لفك أسره. بعـــد دفع الفدية استغلت الجماعات المسيحية هذا الحادث لإشعال حماس العامة، وقـــام إقطاعى من هذه الأنحاء بتجهيز قوة مقاتلة هاجمت حصن المـــسلمين وقـــضوا عليهم قتلا وأسرا. شجعت هذه الحادثة المسيحيين، فوحـــدوا أنفـــسهم وجهـــزوا قواتهم لمعركة مع المسلمين، انتصرت فيها القوات الفرنجيـــة فـــى عـــام ٩٧٥، وانهارت سلطة المسلمين فى هذه الأنحاء. بنهاية القرن العاشـــر كانـــت جميـــع معاقل المسلمين فى فرنسا وسويسرا قد انتهت، ولكن لم يمنع ذلك مـــن إرســـال زعماء الأندلس لغزوات جديدة فى القرن الحادى عشر، فقد نزلت حملة إسلامية

فى جنوب فرنسا فى عام ١٠٠٣، ثم نزلت حملة أخرى فى مقاطعة أربونة فى عام ١٠١٩ ولكنها منيت بالهزيمة. حول منتصف هذا القرن ظهر زعيم أندلسى من أمراء الطوائف وهو مجاهد العمرى الذى اهتم بالغزوات البحرية، وأرسل أسطوله إلى مياه كورسيكا وسردينيا واحتل بعضا من أرضها لفترة من الوقت.

تولى إدارة الحكومة المركزية فى قرطبة الحكم المستنصر بالله، أكبر أبناء الناصر عبد الرحمن، فلم يمض وقت طويل على توليه حتى عاود الأمراء المسيحيون النزعة العدوانية. فى عام ٩٦٣ خرج الحكم إلى الغزو، واجتمعت إليه الجيوش الإسلامية فى طليطلة، فسار إلى أراضى قشتالة، وأشرف على قلعة شنت إشتين المنيعة فحاصرها واستولى عليها المسلمون. أرسل الحكم حملة أخرى فى اتجاه نافار التى أغار أهلها على الأراضى الإسلامية، وقامت معركة انتصر فيها المسلمون. فى أواخر عام ٩٦٧ ظهر خطر النورمان الدنماركيين للمرة الثالثة، فحطم الأسطول الأندلسى بعضاً من سفنهم فارتدوا منهزمين، ولكنهم عادوا مرة ثانية فى عام ٩٧١ لتهديد شواطئ ولاية الغرب الأندلسى الغنى. تقاتل الأخوة المسلمون، ففى هذا العام أيضا أرسل الخليفة الفاطمى المعز لدين الله حملة إلى بلاد المغرب لإعادة سلطة الشيعة، وقامت الحرب بين المسلمين وقتل فيها أعداد كثيرة من الجانبين، فقام الحكم بإعداد جيش لغزو المغرب فى عام ٩٧٢، فانهزمت قوات الحكم. فأرسل جيشاً جديداً ونشبت معارك عنيفة هلك فيها الكثير من المسلمين، وانتهت المعارك أخيراً بفوز القوات الأندلسية وإخضاع المغرب للحكم الأموى الأندلسى. اقترب الزمن من نهاية عهد الحكم الذى ازدهرت فيه الحركة الفكرية والأدبية، فقد كان شغوفاً بالعلوم وإنشاء المكتبات العامة، إنسانا فاضلا وعادلا، عُنى بتوسيع المساجد، محرما الموبقات، شديدا فى محاسبة الطغاة من العاملين والحكام.

توفى الحكم فى سبتمبر من عام ٩٧٦، وتولى الخلافة ابنه الطفل هشام الملقب بالمؤيد بالله الذى كان قد أخذ البيعة قبل وفاة أبيه بعدة أشهر. حاول الخصيان الصقالبة خدام القصر القيام بحركة انقلاب، وذلك بتنحية هشام عن العرش واختيار عمه المغيرة لولاية العرش، ولكن تصدى لهم الحاجب جعفر ابن عثمان وأفسد خططهم. اجتمعت مقاليد الحكم فى الأندلس فى أيدى الحاجب جعفر، ومدير الشرطة محمد بن أبى عامر، بالإضافة إلى البشكنسية " صبح " حظية الحكم وأم ولده هشام، والتى منحت الوصاية على ولدها فاكتسبت بذلك صفة شرعية للاشتراك فى الحكم. كانت صبح أو صبيحة من بلاد الفرنج تدعى Aurora ومعناها الفجر أو الصبح الباكر، وكانت فتاة رائعة الحسن والجمال، تتمتع بنفوذ وسلطة أيام الحكم، ثم أصبحت تسيطر بجمالها ونفوذها على خلافة قرطبة فى عهد ابنها هشام.

اجتمع الشباب والغرام فى مدير الشرطة محمد بن أبى عامر وصبح، يؤيدهما الحاجب جعفر الذى كان يحافظ على سلطانه، لتثبيت حكم هشام. قوى نفوذ محمد بن أبى عامر من خلال سيطرته على صبح، وبدأ فى تعيين أقاربه وأعوانه فى مواقع السلطة والقوة. بدأت خيوط الدسائس والفتن تحاك فى قصر قرطبة، فتخلص ابن أبى عامر من الخصيان الصقالبة الذين بلغ عددهم فى ذلك الوقت زهاء ألف، فكانوا قوة يحسب لها، سنحت الفرصة بعد ذلك لكى يوطد ابن أبى عامر سلطته ويبسط نفوذه على الجيش، حيث قام بتجهيز القوات واستئناف الجهاد والسير شمالا إلى أراضى قشتالة. فى عام ٩٧٧ حققت الحملة أغراضها فقد استولى جيش المسلمين على حصن الحامة، وقويت شوكة محمد بن أبى عامر، الذى اعتبره الشعب حامى المملكة وقائدها. فى نفس العام خرج محمد فى حملته الثانية واستولى على حصن مولة فى أرض قشتالة وغنم المسلمون الكثير من الغنائم. عندما وطد محمد مركزه وصعد نجمه، حسم أمر منافسه جعفر،

وعزل جميع أعوان جعفر من مراكز القوى واستبدلهم بأعوانه وأقاربه. أصبح محمد بن أبى عامر وحده فى الميدان بعد أن قضى على جميع خصومه ومنافسيه، ولكنه خاف من التآمر عليه فقام بتأسيس مدينة ملكية جديدة بالقرب من قرطبة كمركز لإدارته سميت بالزاهرة، فتحول الحكم الفعلى من قصر الخلافة الشرعى فى قرطبة إلى المدينة الجديدة. تنبهت صبح إلى ما وصلت إليه من التضحية بابنها وملكه فى سبيل عشيق الماضى محمد بن أبى عامر، ووجدت أنها وابنها لا حول لهما ولا قوة، فثارت فيها حمية النساء وحولتها إلى قوة الخديعة والدهاء. تمكنت صبح من الوقيعة بين ابن أبى عامر وصهره القائد غالب الذى كان يعتبر من أعظم قادة الأندلس فى ذلك العصر، وقامت المعارك بين الطرفين، انتهت فى عام ٩٨١ بهزيمة قوات غالب ومقتله.

بدأت سلسلة من الغزوات لأبن أبى عامر، بدأها بالسير إلى مملكة ليون لمعاقبة ملكها على معاونته لخصمه غالب، وفى طريقه قصد مدينة سمورة، ولما لم يتمكن من دخول قلعتها المنيعة تركها وحول قواته إلى السهول فأمعنت فى التخريب والقتل. زحف ابن ابى عامر بعد ذلك إلى مدينة ليون وحاصرها، ولكن الشتاء قد بدأ وغمر مخيمه البرد والثلوج فاضطر إلى الرجوع إلى قرطبة. على أثر انتصاراته اتخذ ابن أبى عامر سمة الملك، فتسمى بالحاجب المنصور، واستأثر بجميع السلطات فى بلاد الأندلس، ولم يبق من الخلافة الأموية إلا الاسم فقط. استمرت حملات المنصور ابن ابى عامر والتى بلغت زهاء خمسين حملة حربية حتى وفاته فى عام ١٠٠٢. بعد وفاة أبيه، عاد عبد الملك إلى قرطبة لمقابلة الخليفة هشام المؤيد، واستصدر منه مرسوماً بتوليته الحجابة، وجلس فى الحكم مكان أبيه بالزاهرة، وكان يبلغ الثامنة والعشرين من عمره. افتتح عبد الملك المنصور عهده بإسقاط سدس الجباية عن أهل الأندلس مما بث الشعور بالرضى على العهد الجديد، ثم عزم على السير على سنة أبيه فى متابعة غزوات الممالك المسيحية فى شمال البلاد. توفى عبد الملك عام

١٠٠٨ ولم يكن قد جاوز الرابعة والثلاثين من عمره، وقيل إنه مات مسموما بتحريض من أخيه عبد الرحمن. حكم عبد الملك ستة أعوام قضى معظمها في غزوات متعاقبة، وكان مثل أبيه يحرض على حجب الخليفة هشام في قصره، إلا أنه كان أكثر توددا للخليفة.

جاء عبد الرحمن ابن المنصور بعد أخيه عبد الملك، وقد كان ضعيفاً وسيئ الطباع كثير الفجور والمجون، يقضى معظم وقته فى اللهو والشرب. وكان يلقب بسانشول كون أنه حفيد لسانشو ملك نافار عن طريق أمه التى تزوجت المنصور واعتنقت الإسلام. استطاع عبد الرحمن بالتهديد والتودد أن ينتزع من الخليفة الضعيف ولاية عهده فى نفس العام وجلس فى قصر الزاهرة فى هيئة الملوك يحيط به كبار رجال الدولة. كان الشعب يرى أن العامرية مغتصبون للحكم، وكانت النفوس متأهبة لأى تغيير. ظهرت شخصية جديدة من بنى أمية على مسرح أحداث التاريخ وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، وكان عبد الملك قد أمر بإعدام أبيه هشام بتهمة التآمر. فى نفس الوقت كانت الذلفاء والدة عبد الملك تسعى إلى الإطاحة بعبد الرحمن لاعتقادها بأنه قد دس السم لابنها. بدأت الذلفاء الاتصال بزعماء بنى أمية فى الأندلس ، وتحثهم على استرجاع دولتهم والانتقام من بنى عامر والقضاء على عبد الرحمن . اختار بنو أمية محمد بن عبد الجبار زعيما وكان فتى جريئا ومغامرا فى الثالثة والثلاثين من عمره. استغل الثوار فرصة خروج عبد الرحمن المنصور إلى الغزو بمعظم قواته فقاموا فى فبراير ١٠٠٩ بالهجوم على قصر الخليفة فى قرطبة، وتم الضغط على الخليفة الضعيف هشام حتى خلع نفسه بعد أن ظل فى الخلافة الصورية نحو ثلاثة وثلاثين عاما. تولى الخلافة محمد بن عبد الجبار، فهرعت الجموع من أهل قرطبة إلى قصر الخلافة مؤيدة ومبايعة. فى أحداث موازية هجمت مجموعة أخرى من أتباع محمد على قصر الزاهرة واستطاعت

دخول القصر بمعاونة الذلفاء، وهدمت أسواره ونهبت خزائنه، وسرقت نفائسه حتى تحول إلى أطلال ماض قد غبر. حاول عبد الرحمن المنصور فى طليطلة أن يجمع حوله بعض الأنصار بحجه نصرة الخليفة المخلوع هشام، فلم يعبأ أحد بدعوته، فحاول استمالة البربر الذين سايروه علنا مضمرين التخلى عنه إذا تأزمت الأمور. سار عبد الرحمن مع أتباعه إلى قرطبة ظنا أن أهلها سيدعمونه، ولكن لم يجد أحداً فى انتظاره، حتى البربر الذين ناصروه تخلوا عنه وتركوه. وفى النهاية استطاع أعوان محمد بن هشام القبض عليه ثم قُتل بعد ذلك وفُصل رأسه عن جسده.

تسلق محمد بن هشام الملقب بالمهدى كرسى الخلافة، وانتهى عصر ثنائية السلطة. كان من الممكن أن ينجح المهدى كثائرفى حالة تكوين دولة جديدة، ولكن شخصية متهورة ووضيعة لم تمارس الحكم بالرضاعة، لا تستطيع أن تحكم دولة قائمة ومكونة من قوميات مختلفة، وبها أكثر من دين. أطلق المهدى العنان لأهوائه وطغيانه وجمع حوله بطانة السوء الذين بدؤا فى التحامل على البربر ونزعوا سلاحهم، ثم انقلبوا على الصقالبة فنفوهم. أخفى المؤيد الخليفة السابق هشام وزعم أنه مات، وظن أن الأمور قد استتبت له فبالغ فى الاستهتار والفجور، وبطش بكثير من الناس ومنهم ولى عهده سليمان بن هشام الذى سجن مع جماعة من الأصل القرشى، وأخرج من الجيش آلافاً من الجنود الذين قطعت أرزاقهم. حاول هشام والد ولى العهد المسجون خلع محمد بن هشام بمعاونة أعدائه الكثيرين، فدارت معارك بين الطرفين انتصر فيها الخليفة الجديد. تجمع البربر مرة ثانية وتحالفوا مع سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، واتفقوا مع سانشو أمير قشتالة لإمدادهم بالسلاح مقابل تسليمه الحصون الواقعة على الحدود. هزم جيش البربر قوات المهدى الذى أخذ فى تحصين قرطبة بينما كان سليمان بن الحكم وقوات البربر والقوات القشتالية بقيادة سانشو تسير نحو قرطبة. اشتبك الفريقان فى نوفمبر ١٠٠٩، وانهزمت قوات قرطبة وقتل منهم

حوالى عشرة آلاف بينهم عدد كبير من العلماء والأئمة. حاول المهدى أن ينقذ الموقف، فأظهر الخليفة المخلوع ودعا بأنه ليس إلا نائب للخليفة الشرعى لبلاد الأندلس، ولكن رد عليه البربر بسخرية، فانسل المهدى متخفيا إلى خارج قرطبة. بايع شعب قرطبة الخليفة المنتصر سليمان بن الحكم الذى تلقب بالمستعين بالله. وصل محمد المهدى إلى طليطلة وأخذ يدبر أمر قواته استعدادا لمعركة جديدة بين فريقين مسلمين من بنى أمية، وقامت المعركة فى مايو من عام ١٠١٠ بالقرب من قرطبة، واستطاعت قوات المهدى وحليفه واضح حاكم مدينة سالم، الاستيلاء على قرطبة. اعتزم المهدى القضاء على البربر، فجمع المال من أهل قرطبة، وأعطى حلفاءه الفرنج أعطياتهم، وحشد قواته وخرج لمطاردة البربر. قامت معركة جديدة، دارت فيها الهزيمة على المهدى وحلفائه، فارتد المهدى إلى قرطبة. سارع الفريق الآخر المكون من سليمان المستعين والبربر فى السير نحو قرطبة للاستيلاء عليها. فى هذه الأثناء ضاق واضح من تصرفات المهدى فضرب عنقه، واتفق الجميع على إخراج الخليفة الشرعى هشام من محبسه بالقصر ونادوا بولايته. رفض البربر حلفاء سليمان عودة هشام فزحفوا نحو ضواحى قرطبة يعيثون فيها قتلا ونهبا وتخريبا، فى نفس الوقت طالب سانشو أمير قشتالة بالحصون الواقعة على الحدود فأجيب إلى طلبه، فكان نتيجة اختلاف واقتتال المسلمين مع بعضهم البعض، فوز الطرف الآخر. لم يستسلم البربر وسليمان فأخذوا يغيرون على قرطبة وضواحيها حتى قامت المعركة الفاصلة فى عام ١٠١٣ دخل على أثرها البربر مدينة قرطبة وقتلوا آلافا من سكانها وأوقعوا بها السلب والنهب، وأحرقوا المبانى واغتصبوا النساء. دخل سليمان المستعين قصر قرطبة وتلقب بلقب آخر وهو الظاهر بحول الله مضافا إلى المستعين، وتفككت عرى الدولة وقصر نفوذ الحكومة على قرطبة وما حولها، وأصبح للبربر السلطة الحقيقية فى تسيير الوزارة.

تمزقت بلاد الأندلس، فقد استولى البربر على الولايات والثغور الجنوبية، واستقر العامريون فى شرق الأندلس، وكون الصقالبة مقاطعة لهم. فى هذا المنعطف ظهر رجلان من عقب الأدارسة المغربية – لهما جذور عربية وبربرية – هما على والقاسم ابن حمود. كان على بن حمود قد ولى حكم سبتة أما أخوه الأكبر القاسم فكان يحكم الجزيرة الخضراء، ولا يفصلهما إلا مضيق جبل طارق. كان على بن حمود يطمع فى حكم قرطبة، فاستعان بالعامريين خصوم سليمان المستعين وزحف إلى قرطبة، وقامت معركة انتصر فيها ابن حمود، وقام بقتل سليمان وأبيه وأخيه، ودعا إلى البيعة لنفسه فبويع بالخلافة فى يوليو ١٠١٦، وتلقب بالناصر لدين الله، وبذلك انتهت الدولة الأموية فى بلاد الأندلس بعد أن عمرت مائتين وثمانية وستين عاما. عندما استقر على بن حمود فى الحكم اشتد فى معاملة البربر، واستطاع إخماد تمردهم وثوراتهم المتكررة. فتك ابن حمود بالمعارضين له سواء من العرب أو البربر، فهابه الجميع. لم تستتب الأمور طويلا فقد أعاد البعض الدعوة لبنى أمية فى شخص عبد الرحمن الذى لقب بالمرتضى، ولكنه قتل فى مقربة من غرناطة. عندما كان على بن حمود يتأهب لمنازلة خصومه الجدد تآمر عليه بعض الصقالبة الموالين لبنى أمية فقتلوه فى عام ١٠١٨. حضر القاسم بن حمود سريعا إلى قرطبة وقبض على قتلة أخيه، وبويع بالخلافة تحت اسم المأمون. انقلب يحيى بن على مع أخيه إدريس على عمهما المأمون، ودخل يحيى قرطبة بعد هروب عمه وبويع بالخلافة وتلقب بالمعتلى بالله. استقر القاسم بن حمود فى إشبيلية وتسمى بالخلافة وتلقب بالمستعلى. بعد عام ونصف أعلن البربر خلع يحيى وأحضروا القاسم من إشبيلية، وجددت له البيعة وتسمى بأمير المؤمنين. اصطفى القاسم البربر الذين اشتدوا فى معاملتهم على أهل قرطبة، فثاروا على البربر والقاسم وتقاتل الطرفان، حتى استطاعت القوات القرطبية خلع القاسم فى عام ١٠٢٣، وقبض عليه بواسطة ابن أخيه وأودع السجن. ضاق أهل قرطبة من حكم البربر

وأشياعهم فذهبوا إلى اختيار أحد من بنى أمية لتولى الخلافة، فآلت إلى عبد الرحمن بن هشام الذى لقب بالمستظهر بالله، الذى بادر بالقبض على عدد من الوزراء والأكابر، وأعاد للبربر هيبتهم ومراكزهم فهاج شعب قرطبة وهجم على القصر، فهرب عبد الرحمن، وظهر ابن عمه محمد الذى كان مختفيا خشية البطش به، ولكن القرطبيين بايعوه فى عام ١٠٢٤ وتلقب باسم المستكفى بالله، والذى بحث عن ابن عمه الخليفة الهارب حتى عثر عليه مختبأ فى حالة مزرية، فتم إعدامه. مال المستكفى إلى حياة الفسق والمجون، فهاج عليه العامة وطلبوا إليه التخلى عن الخلافة، فهرب خوفاً بعد أن حكم لمدة عام وبضعة أشهر، وغادر قرطبة متخفيا فى ملابس امرأة، وفى الطريق اغتاله مرافقيه طمعا فى أمواله التى كان يحملها. استمر الاضطراب فى قرطبة، وتتابعت عمليات الخلافة ثم الخلع، فقتل الخليفة، وتحولت بلاد الأندلس الإسلامية إلى أشلاء ممزقة وولايات متصارعة، يسيطر على بعضها الصقالبة أو البربر.

فى عام ١٠٣١ تم إلغاء الخلافة الأموية الأندلسية بقرار اتخذه زعماء قرطبة بزعامة الوزير أبى حزم الأجهورى. كان هذا القرار يمثل كارثة دمرت بلاد الأندلس فيما بعد. كان هذا الحدث هو بداية للنهاية المحتومة لسقوط الأندلس الإسلامية، والتى تأخر سقوطها لنحو أربعة قرون بسبب تدخل بلاد المغرب لنجدة المسلمين. لقد أدى هذا القرار إلى انفراط عقد الوحدة الإسلامية، واستقلال كل أمير بإمارته، وكل حاكم بمقاطعته أو مدينته، وأعلن كل صغير نفسه أميراً أو ملكاً أو سلطاناً. بلغت الأسر الحاكمة فى بلاد الأندلس – التى كانت موحدة – عشرين أسرة مستقلة، فى عشرين مدينة أو مقاطعة، وسمى هؤلاء بملوك الطوائف. أرادت كل إمارة أن تظهر بمظهر القوى والسلطان، فتصارعت وجرت الحروب بينها، مما أدى إلى عجزها جميعاً أمام الممالك المسيحية التى أخذت تتوحد فى شمال الأندلس، وبدأت فى الزحف نحو الجنوب، تفرض

الأتاوات على الإمارات الإسلامية الصغيرة والضعيفة. لقد كانت الخلافة رمزاً للوحدة السياسية والدينية والاقتصادية والعسكرية، وجاء الإلغاء فتفتت الوحدة والقيادة، وضعفت الأجزاء حتى انتهى الأمر بالسقوط.

كانت الفرصة سانحة لأوروبا المسيحية للقضاء على المسلمين فى الأندلس لولا أنها كانت تعانى أيضا من الانقسام، ولكن عادت الهمة والعافية لإسبانيا المسيحية، فاستطاعت فى عام ١٠٨٥ انتزاع طليطلة من أيدى المسلمين الذين اتجهوا إلى إخوانهم من مسلمى ما وراء البحار تستدعيهم لنجدتهم، فتدفقت جيوش المرابطين من المغرب لإنقاذ سقوط الأندلس الإسلامية. أرسل زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين قوة من الفرسان تحت قيادة داود بن عائشة، عبرت البحر واحتلت الجزيرة الخضراء فى أغسطس ١٠٨٦، ثم بدأت الجيوش المرابطية على رأسها يوسف تعبر البحر من سبتة إلى بلاد الأندلس. والمرابطون قبيلة من البربر قد تكون قد امتزجت مع بعض القبائل العربية الوافدة إلى المغرب، وسادت سيطرتهم على الشمال الغربى لأفريقيا من ليبيا إلى المحيط غرباً وإلى السودان جنوباً. كان يوسف بن تاشفين قد اختار أرضا تكون قاعدة لجيوشه شمال غرب مدينة أغمات كانت مملوكة لبعض المصامدة، فاشتراها وأنشأ بها مدينة فى عام ١٠٦٢ سميت " مراكش " ومعنى الكلمة بلغة المصامدة " امش مسرعا ". ما كاد يوسف ينتهى من تنظيم جيشه حتى تأهب لفتح مدينة فاس عاصمة المغرب القديمة.

لم ينته عام ١٠٨٢ حتى كان يوسف يحكم قبضته على بلاد المغرب، وقضى على سلطان سائر الأمراء المحليين الذين كانوا يقتسمون المدن والثغور. نزل يوسف بن تاشفين ثغر الجزيرة الخضراء فى شهر يونيو، فأخذ بتحصين الجزيرة ثم سار فى قواته صوب إشبيلية. كان يوسف قد كتب أثناء مسيرته إلى جميع ملوك الطوائف الأندلسية يدعوهم إلى الانضمام له والمشاركة فى الجهاد

فى سبيل نصرة الإسلام، فلبى البعض دعوته، واعتذر آخرون. انتهت الجيــوش الإسلامية المتحدة فى سيرها إلى سهل يقع على مقربة من حدود البرتغال يسمى بالزلاقة. أيضا توحدت القوات المسيحية الأوربية وسارت إلى الجنــوب للقــاء المسلمين، لإبعاد المعارك عن بلادهم. كانت القوات المــسيحية تفــوق قــوات المسلمين فى العدد، وكان الجيش الإسلامى ينقسم إلى وحــدتين كبيــرتين همــا قوات الأندلس، والقوات المرابطية. لبث الجيشان علــى مــدى ثلاثــة أيــام لا يفصلهما سوى نهر، وكتب يوسف إلى ملك قشتالة المسيحى يعرض عليه دخول الإسلام أو الجزية أو الحرب. استشاط ألفونسو ملك قشتالة غــضبا ورد علــى يوسف بخطاب يفيض غيظاً ووعيداً. حاول ألفونسو خديعة المسلمين فكتب إلــى المعتمد قائد قوات الأندلس، يقول له: إن غدا يوم الجمعة وهو عيــدكم، وبعــده السبت وهو يوم اليهود وهم كثير فى قواتنا، وبعده الأحد وهو عيــدنا، فيكــون اللقاء يوم الاثنين. أدرك يوسف والمعتمد الخديعة، فقد جــاءت طلائــع جيــوش المسلمين بأنباء عن حركة وضوضاء فى صفوف القــوات المــسيحية، فتأهــب المسلمون لخوض المعركة فى اليوم التالى.

حدث ما توقعه المسلمون، ففى يوم الجمعة ٢٣ أكتوبر عــام ١٠٨٦ بــدأ القتال، وكانت المعارك سجالاً، حتى قام يوسف بالتقدم بقواته الاحتياطية وتجاوز قوات أعدائه، وهجم على مركز المعسكر المسيحى وكانت تحرسه قوة ضــعيفة، فقضى عليها ثم التف إلى مؤخرة القشتالين وأثخن فيهم الضرب بالنبال والــسهام وأضرم فى خيمتهم النيران. استغل يوسف فى الحرب التأثير النفــسى بإعطــاء أوامر إلى قارعى الطبول بالالتفاف حول جيش العدو مصدرين أصوات عاليــة تصم الآذان، كما استغل التأثير التنظيمى بالقتال فى صفوف متراصة ومتناســقة، فارتبكت القوات المسيحية التى اعتادت علــى القتــال الفــردى. اشــتد هجــوم المرابطين، واستردت جيوش الأندلس شجاعتها، وجاءت الضربة القاضية بــدفع

يوسف بكتيبة مكونة من الجنود السود قوامها أربعة آلاف مقاتل إلى قلب المعمعة، واستطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة ويطعنه بخنجر فى فخذه. أشرفت الشمس على المغيب، وأدرك الفونسو وقواد القوات المسيحية أنهم هالكون، فانسحبوا تحت جنح الظلام، مثكلين بالجراح، تاركين قتلاهم وأسلحتهم فى أرض المعركة. تقول الروايات: إن من نجى من القوات المسيحية لم يتجاوز خمسمائة من ثمانين ألف، وأن الأسلاب التى جمعها المسلمون كانت عظيمة. طارد المسلمون القوات المسيحية، فلم يصل منهم إلى قواعدهم سوى مائة فارس. سميت هذه المعركة بالزلاقة وهو اسم السهل الذى قامت فيه المعارك. ذاعت أنباء النصر فى سائر أنحاء الأندلس، وقرر يوسف العودة بقواته إلى المغرب تاركا ثلاثة آلاف من جنوده رهن تصرف المعتمد. يُرجع المؤرخون العودة السريعة ليوسف إلى سببين أولهما وفاة ابنه فى بلاد المغرب، والآخر يرجع إلى استيائه من أحوال أمراء الأندلس وخلافاتهم.

لم ينته عدوان القشتالين على المدن الإسلامية فى الأندلس، فأرسل المعتمد إلى يوسف يطلب المعاونة. عبر ابن تاشفين البحر إلى الأندلس فى يوليو ١٠٨٨، ثم زحف بقواته نحو حصن أليدو المنيع، قاعدة هجمات القوات المسيحية، حيث وافاه بعض القوات الأندلسية ، فأقاموا الحصار على الحصن. استمر الحصار مدة أربعة شهور ولم تنجح القوات الإسلامية فى اقتحامه. علم يوسف أن ملك قشتالة يقوم بتجهيز قوة لمساعدة المحاصرين، فآثر الانسحاب خاصة عندما عايش أحوال أمراء الأندلس المشاركين فى الحصار، ورأى الوقيعة والطمع السائد بينهم. فى عام ١٠٩٠ أعد ابن تاشفين عدته للعبور إلى بلاد الأندلس للمرة الثالثة دون أن يستغيث به أحد من أمراء الأندلس، فقد انتوى الاستيلاء على بلاد الأندلس، لما رآه من ضعف العقيدة الدينية لأمراء الطوائف، وانغماسهم فى حياة الترف والمجون، مما ضعف عزمهم على الجهاد، والمحافظة على إماراتهم. ذهب بعض المؤرخين إلى وجود سبب آخر لقرار ابن

تاشفين وهو قيام أمراء الطوائف الأندلسين بقطع المدد والمؤن عن قوات ابن تاشفين التى تركها فى الأندلس، وكذلك محاولة بعض رؤساء الطوائف لمصادقة ألفونسو ملك قشتالة واستعداده لمحاربة ابن تاشفين. قد يكون قرار يوسف صادراً عن عامل دفاعى وإستراتيجى، فسقوط بلاد الأندلس فى يد ملك قشتالة، قد يؤدى بعد ذلك إلى عبور المسيحيين إلى بلاد المغرب واحتلالها والقضاء على ملكه. ذهب محمد عنان إلى سبب آخر أورده فى المرجع السابق دون تزيين أو توظيف للعقيدة: (يمكننا أن نضيف ذلك الباعث الطبيعى، الذى يضطرم به كل زعيم قوى وكل متغلب، ونعنى شهوة الفتح والتوسع، فلا ريب أن يوسف بن تاشفين وصحبه، وهم أولئك البدو الصحراويون، قد راقهم ما شهدوه من خصب الأندلس ونعمائها، وطيب هوائها، ومن ثم فإن الرواية تحدثنا بصراحة عن طمع يوسف فى الجزيرة وتشوقه إلى مملكتها، وتذكر لنا أنه قال يوما لبعض ثقاته: كنت أظن أنى قد ملكت شيئا. فلما رأيت تلك البلاد – الأندلس– صغرت فى عينى مملكتى). إذا كانت العقيدة هى الستار الذى تتوارى خلفه الأهواء الإنسانية، فإن الإنسان يعلم أن ذاته بداخلها شهوات وغرائز واحتياجات مادية يسعى إلى إشباعها، ولكنه يتناسى أن جميع البشر لديهم نفس الشهوات، فيحاول سترها وتقديم القيم والأخلاق والعقائد عليها، حتى يبدو فى مظهر العفيف التقى وينفصل عن ذاته. كانت النتيجة انفصام معظم البشر عن ذاتهم الداخلية، تعيش فى غربة وعذاب، بالرغم من أن هذه الظاهرة ليست بداء، ولكن على الإنسان أن يعيش واقعه الذى حتمته جيناته، ومجتمع هو نفسه جزء منه.

عبر أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين إلى شبه الجزيرة، مغلفا حملته بطابع العقيدة والجهاد فى سبيل الله. وردت أخبار إلى يوسف من الأندلس عن اتفاقات سرية يعقدها المعتمد بن عباد، والمتوكل بن الأفطس، وعبد الله بن بلقين، مع

ألفونسو السادس ملك قشتالة للتعاون فى رد المرابطين. سار يوسف إلى طليطلة واجتاح فى طريقه أراضى قشتالة، ولم يتقدم أحد من أمراء الطوائف لمعاونته أو السير معه. عاث المرابطون فى ضياع طليطلة ثـم ضـربوا الحـصار حـول العاصمة القوطية القديمة وعاصمة قشتالة يومئذ، ولكن عنـدما رأوا أسـوارها العالية وتحصين قلاعها، أيقنوا استحالة اقتحامها فارتدوا إلـى الجنـوب نحـو غرناطة وحاصروها. عندما أدرك أمير المدينة عبد الله بن بلقين أنـه لا سـبيل للمقاومة وأن الفونسو ملك قشتالة لن يرسل إليه العون، ذهب إلى يوسف يبايعـه ويطلب الأمان. بعث يوسف بسرية إلى مالقة لفتحها، وعندئذ أيقن المعتمـد بـن عباد قرب السقوط فذهب إلى يوسف لتهنئته بالفتح ولكن ابن تاشـفين اسـتقبله بجفاء. أقام يوسف فى سبتة يجهز الجيوش والإمدادات، ويترقب نتـائج أعمـال جيوشه التى أرسلها لجميع أنحاء الأندلس. كتب محمد عنان فى موسوعته " دولة الإسلام فى الأندلس " عن مبررات يوسف لقتال ابن عبـاد: (إن يوسـف بـن تاشفين كان يرى فى مملكة إشبيلية واسطة عقد الأندلس، وفى أميرها المعتمد بن عباد عميد الطوائف فإذا سقطت فى يده إشبيلية، كان له ملك الأندلس. ولم يكـن أمير المؤمنين تعوزه المبررات فى قتال ابن عباد، فقد كان لديه المبررات المادية والشرعية الكافية. ذلك أنه احتاط للأمر، واستصدر الفتاوى الشرعية اللازمة من فقهاء المغرب والأندلس، بأن مسلك المعتمد فى مصانعة النـصارى وتـسليمهم البلاد، والاحتماء بهم، ... ، وغير ذلك مما يخالف أحكام الـشرع ومجاهرتـه بالمعاصى، كل ذلك مما يفقده أهليته لحكم المسلمين، ويوجب محاربته وخلعـه. أما عن المبررات المادية فقد وقعت فى يد يوسف بعـض المراسـلات الـسرية الموجهة من ابن عباد إلى ملك قشتالة، يستغيث به ويطلب معونته وكان المعتمد بعد أن رأى جنود قشتالة تجتاح بلاده، وتمعن فى تخريبها دون أن يستطيع دفعا لهم، وشعر من جهة أخرى بما يضمره المرابطون نحوه من النيات الخطرة، قـد

أيقن أنه لا مَعْدَى له عن الالتجاء إلى ملك قشتالة، والتفـاهم معـه علـى دفـع المرابطين عن الأندلس).

سقطت قرطبة فى أيدى المرابطين، وعلى أثرها سقطت مـدائن أخـرى، وبذلك سيطروا على الوادى الكبير وعلى سائر قواعد مملكة إشبيلية. فـى عـام ١٠٩١ حاصر المرابطون إشبيلية بقوات ضخمة، واستمر حصارها زهاء أربعة أشهر، دافع فيها المعتمد وجنده دفاعا عسيرا، حتى سقطت فى شـهر سـبتمبر، واستولى المرابطون على المدينة والقصور الملكية، وأسروا المعتمد وأهله وقتلوا ابنه، وساد القتل والنهب فى سائر أنحاء المدينة، وتحول المرابطون إلى المـدن الأخرى التى يحكمها أولاد المعتمد، فدخلوها ونهبوهـا وقتلـوا أبنـاء آخـرين للمعتمد. قضى المعتمد فى أغلال الأسر عدة أعوام، يتجرع الذل فـى سـجن جنوب مدينة مراكش المغربية حتى توفى فى عام ١٠٩٥، بعد أن عاش عهـدى الإمارة ثم المهانة. فى عام ١٠٩٤ هاجم المرابطون أشبونة وقتلوا وأسروا معظم حاميتها المسيحية، وأعيد هذا الثغر إلى حظيرة المملكة الإسـلامية. فـى عـام ١٠٩٦ رد ملك قشتالة على سقوط أشبونة فقام بغزو لأراضى الأنـدلس وسـار نحو قرطبة وهاجمها واستولى على غنائم وفيرة وسبى جموعا عظيمة، ثم اتجه نحو إشبيلية فامتنع أهلها عن الخروج لقتاله فعاد بغنائمه إلى قشتالة. فـى العـام التالى كانت جميع ممالك الطوائف قد سقطت فى أيدى المرابطين. وفـى عـام ١١٠٦ توفى ابن تاشفين بقصره بمدينة مراكش بعد أن حكم الدولـة المرابطيـة بالمغرب نحو أربعين عاما، وحكم منها الإمبراطورية المغربية الأندلسية زهـاء خمسة عشر عاما.

عبرت جيوش الموحدين مرات عديدة إلى شبه جزيرة الأندلس ولكنهم لـم يحرزوا نصراً حاسماً ضد القوات المسيحية، فقد انهزمت حملـة الخليفـة أبـى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ضد القشتالين فى عـام ١١٧٢، وتغلبـت عليـه

القوات البرتغالية فى حملته الثانية عام ١١٨٤، والتـى منيـت فيهـا الجيـوش الموحدية بهزيمة فادحة، وقتل الخليفة فى هذه الموقعة. لم يحسب للموحـدين أى انتصار إلا فى معركة الأرك ضد القشتالين والتى قادها الخليفة يعقوب المنصور فى عام ١١٩٥. لم تمض عدة سنوات حتى أحرز القشتاليون فـى عـام ١٢١٢ نصرهم الساحق على الجيوش الموحدية بقيادة الخليفـة محمـد الناصـر ابـن المنصور وأخذت قوات الموحدين تضعف وتتدهور، حتى انهار سلطانهم وأخذت قواعدهم تسقط تباعا فى أيدى المسيحيين. بالرغم من أن المرابطين والموحـدين ينتمون إلى أصل واحد وهو البربر، إلا أن الصراع بينهما كان سبباً رئيسياً فـى ضعف القوة الإسلامية فى بلاد الأندلس. لقد انقلب الموحدون المسلمون المنقذون للإسلام إلى فاتحين وغازين للإمارات المسيحية والإسـلامية معـا، واسـتولى المرابطون المسلمون على دول الطوائف الإسلامية الواحدة بعد الأخرى، واقترن فتحهم فى بعض الأحيان بكثير من العنف والقسوة.

تحرك إلى الأمام مؤشر خروج المسلمين من بلاد الأنـدلس منـذ انهيـار صرح الخلافة الأموية المركزية الموحدة فى الأنـدلس، وقيـام دول الطوائـف الصغيرة المفككة. فى عام ١٢٣٣ كان فرناندو الثالث ملك قشتالة يتسنح الفرصة لينتزع ما يمكن الاستيلاء عليه من أراضى الأندلس الإسلامية المتاخمة لقتشالة، فسير حملة استطاعت هزيمة المسلمين فى عدة مواقع، ثم سارت نحـو قرطبـة فحاصرتها لعدة أشهر حتى استسلمت فى عام ١٢٣٦، ثم توالى سـقوط بلنـسية ومرسية وإشبيلية. كانت عناصر الفتنة والفوضى تـتمخض عـن قيـام إمـارة إسلامية جديدة فى جنوب الأندلس وهى إمارة غرناطة، لتكون المـلاذ الأخيـر للدولة الإسلامية فى الأندلس لزمن طويل آخر. ظهر فى هذه الفترة محمـد بـن يوسف النصرى بعد عهد تاشفين. والذى ترجع أصوله إلى سعد بن عبادة سـيد قبيلة الخزرج العربية وأحد أكابر الصحابة. التف المـسلمون – ولاسـيما فـى الجنوب – حول محمد النصرى المكنى بابن الأحمر، فى مملكة هشة تتكون من

هضاب وسهول يغلب عليها القفر أكثر من الخصب. كانت روح الفرقة والصراع متأصلة فى نفوس الطامعين الطامحين من صغار الحكام والزعماء الذين فضلوا الانطواء تحت سلطان ملك قشتالة المسيحى، يقرون بملكه وحكمه ويؤدون له الجزية مقابل التمتع بحكم مدنهم والاستيلاء على مواردها. لقد آثر محمد بن هود والى مرسية، وحكام قرطاجنة وجنجالة وغيرها، عقد الصلح مع المسيحيين، فكان الخلاف بين المسلمين فى تلك الآونة العصيبة، والذى ضحى فيها بالعقيدة فى سبيل الملك والسلطان.

ما كاد يستقر ابن الأحمر فى غرناطة حتى نشط فى محاربة القوات المسيحية، وسار إلى قلعة مرتش فى عام ١٢٣٨ على رأس قوة كبيرة وضرب حولها الحصار، ثم اشتبك مع المسيحيين فى معركة حامية وهزمهم. ما كاد فرناندو ينتهى من إخضاع الثغور الشرقية حتى عمد إلى مهاجمة ابن الأحمر، وحاصر غرناطة فى عام ١٢٤٤، ولكنه فشل فى اقتحامها. فى العام التالى زحف المسيحيون على جيان وحاصروها حتى كادت تسقط فى أيديهم، فذهب ابن الأحمر إلى مهادنة ملك قشتالة، وتم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته باسم ملك قشتالة وأن يؤدى له جزية سنوية. فى ذلك الوقت كانت إسبانيا المسيحية قد انتهت من الاستيلاء على الولايات الشرقية للأندلس، ولم يتبق إلا الولايات الغربية. استطاع ابن الأحمر إقناع حكام القلاع القريبة من إشبيلية بالتسليم لملك قشتالة مقابل تعهده بحقن دماء المسلمين، ولم يأتى عام ١٢٤٧ حتى كان ملك قشتالة قد استولى على جميع الحصون الأمامية لإشبيلية. بدأ المسيحيون فى حصاره إشبيلية فى هذا العام بمعاونة قوات ابن الأحمر الذى كان يرمى إلى الانتقام من أهلها الذين خذلوه وخرجوا عن طاعته. بعد حصار مضى عليه سنة ونصف، استسلمت المدينة الحصينة على أن يؤمن المسلمون فى أنفسهم وأموالهم، وأن يمهلوا شهرا لتسوية شئونهم قبل الرحيل. وفى ديسمبر من

عام ١٢٤٨ دخل فرناندو الثالث مدينة إشبيلية فى موكب ضخم، بعد أن حكمها المسلمون أكثر من خمسمائة عام، وفى الحال – كالعادة – حول مسجدها " الجامع " إلى كنيسة وأزيلت من المدينة معالمها الإسلامية. بسقوط إشبيلية سقطت سائر المدن والحصون الإسلامية والواقعة بينها وبين مصب الوادى الكبير، واستولى المسيحيون تباعا على شريش وشذونه وقادس وغيرها.

كان ابن الأحمر يتقبل مهانة سقوط المدن الإسلامية على أمل ازدياد قوته ورسوخ سلطانه للقيام بعمل مضاد بمساعدة إخوانه من مسلمى بلاد المغرب بعد قيام دولة جديدة قوية هى دولة بنى مرين، وذلك بعد احتضار دولة الموحدين. فى عام ١٢٦١ بدأت كتائب المجاهدين من بنى مرين العبور إلى بلاد الأندلس بقيادة أبو معرف محمد المرينى، وأخوه الفارس عامر. تحالف ابن الأحمر مع القوات المغربية، فاستطاعت القوات الإسلامية تحقيق بعض الفوز. خشى الفونسو العاشر ملك قشتالة أن تتزايد الإمدادات فيشتد ساعد ابن الأحمر، فكثف من ضغوط قواته على المدن الإسلامية، ودخل استجة فقتل وأسر الكثير من المسلمين. عاد ابن الأحمر إلى أسلوب المهادنة مرة ثانية، ففى عام ١٢٦٣ تنازل للمسيحيين عن عدد كبير من البلاد والحصون الإسلامية. توفى محمد بن الأحمر فى نهاية عام ١٢٧٢ على أثر سقوطه من جواده، حين عودته من معركة رد فيها بعض الخوارج، وخلفه فى الملك ابنه أبو عبد الله الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه، بالإضافة إلى قوة عزمه وسعة أفقه وبراعته السياسية. كانت للفقيه وقائع طيبة فى ميدان الجهاد ضد المسيحيين، فقد زحف فى عام ١٢٩٥ على أراضى قشتالة وغزا منطقة جيان، واستولى على مدينة قيجاطة وأسكن بها المسلمين، وفى نهاية هذا القرن غزا أراضى قشتالة مرة أخرى.

توالت الأحداث، وكالعادة فى حالات الضعف والتفكك تقاتل المسلمون، حتى جلس السلطان أبو الوليد اسماعيل على عرش غرناطة فى عام ١٣١٤، وامتاز عصره باستقرار الأمور وإحياء عهد الجهاد. لم يخل هذا القرن من المعارك بين

المسلمين والمسيحيين، وفى عام ١٣٤٢ نشبت معركة بحرية بين الطرفين هـزم فيها المسلمون وغرق أسطولهم، وحاصر المسيحيون ثغر الجزيرة الخضراء، وأضحى الثغران المشرفان على مضيق جبل طارق، وهما الجزيرة وطريف فى أيدى القوات المسيحية. ظل ملك قشتالة على خطته فى إرهاق المملكة الإسلامية بالمعارك والغزوات، والمسلمون يدافعون جهد استطاعتهم، بينما أمراء المغرب مشغولون بخلافاتهم. حاول ملك قشتالة الاستيلاء على جبل طارق فى عام ١٣٥٠، ولكن أنقذ المسلمين تفشى الوباء فى قوات قشتالة فهلك منهم الجميع وفيهم ملكهم. فى عام ١٣٥٤ اغتيل السلطان يوسف أثناء صلاته بالمسجد الأعظم فى يوم عيد الفطر، وخلفه فى الحكم ابنه محمد الملقب بالغنى بالله. فى عام ١٣٥٩ نشبت فى غرناطة ثورة فقد فيها السلطان محمد ملكه، قادها أخوه إسماعيل والذى كان معتقلا فى برج من أبراج الحمراء. حدث انقلاب آخر فى غرناطة قتل فيها السلطان الجديد إسماعيل، واستطاع السلطان المخلوع فى عام ١٣٦١ استرداد ملكه. فى عام ١٣٦٦ نظم بعض الزعماء الخوارج مؤامرة لخلع السلطان، فهاجموا قلعة الحمراء ولكن تصدت جنود السلطان لهم، وفشلت المؤامرة. فى هذا العهد توثقت أواصر الصداقة والمودة بين بلاط غرناطة، وبين سلطان مصر الأشرف شعبان. توفى الغنى بالله فى عام ١٣٩١ وخلفه ابنه يوسف أبو الحجاج، وقام بأمر دولته خالد مولى أبيه والذى قام بقتل إخوة يوسف الثلاثة، ثم سخط السلطان يوسف على وزيره خالد وقتله عندما علم أنه يحاول اغتياله بالسم. بدأ يوسف حكمه بالكتابة إلى ملك قشتالة فى طلب الهدنة والسلام، وبادر بإطلاق بعض الأسرى من الفرسان المسيحيين، فاستجاب ملك قشتاله وعقد السلم بين المملكتين.

توفى السلطان يوسف فى عام ١٣٩٤ بعد حكم قصير، وخلفه إبنه محمد بعد أن دبر مؤامرة لإقصاء أخيه الأكبر من الحكم. بعد أن توفى ملك قشتالة،

تجددت المعارك بين القوات الإسلامية، وبالرغم من ذلك كانت غرناطة ترتبط بمملكة أراجون المسيحية – منافسة قشتالة – بصلات المودة والصداقة. توفى محمد وخلفه فى الحكم أخوه يوسف الذى كان سجينا طوال حكم أخيه. انتهت الهدنة بين قشتالة وغرناطة، فزحفت القوات القشتالية نحو غرناطة وضربوا الحصار حول مدينة أنتقيره، وقامت معركة كبيرة هزم فيها المسلمون فدخلها المسيحيون فى عام ١٤١٢. فى هذا العهد، ثار أهل جبل طارق ودعوا ملك المغرب أبا سعيد المرينى إلى احتلال الثغر لاعتقادهم أنه أقدر على حمايتهم من غارات المسيحيين، فأرسل إليهم أخاه عبدالله فى قوة حربية، ولكن أرسلت غرناطة المدد إلى حاكم جبل طارق واستطاع الجنود الغرناطيون هزيمة المغاربة، وأسر زعيمهم عبد الله، فأكرمه يوسف ورده إلى المغرب بعد أن زوده بالمال ليناهض أخاه ويثور عليه، ثم نجح فعلا فى انتزاع الملك من أخيه. توفى السلطان يوسف فى عام ١٤١٧، وتوإلى على عرش غرناطة عدد من الأمراء الضعاف، عاشت فى عهدهم القوات المسيحية فى مملكة غرناطة فى سلام وأمان.

شهد الربع الأخير من القرن الخامس عشر، نهاية المسلمين فى بلاد الأندلس الأوربية. فى عام ١٤٧٤ أعلنت إيسابيلا ملكة لقشتالة وليون مع زوجها فرناندو، وفى عام ١٤٧٩ ارتقى فرناندو عرش أراجون على أثر وفاة أبيه خوان الثانى، وبذلك اتحدت المملكتان الإسبانيتان فى ظل عرش واحد بعد أن فرقت بينهما المنافسات، وكان الاتحاد بداية للعصر الذهبى لإسبانيا المسيحية، معلنة فصل النهاية لإسبانيا المسلمة التى اعتراها التفكك والخلافات والفتن والمؤامرت. بينما انشغل المسلمون فى غرناطة فى الصراع على الحكم، كان ملك قشتاله يستولى على معاقل المسلمين واحداً بعد الآخر. فى عام ١٤٨٧ تبوأ الحكم أبو عبد الله محمد سلطان غرناطة، وآخر ملوك الأندلس المسلمين، ولكن لم يكن يحكم إلا مملكة صغيرة. وفى عام ١٤٩٠ خرج ملك

قشتالة فى قواته وزحف على أراضى غرناطة، ووقعت معارك فى ظاهر غرناطة، وكانت سجالا بين الطرفين. أيقن ملك قشتالة أنه لابد أن تقع غرناطة، عاصمة مملكة المسيحيين لمد سلطانه على جميع أراضى إسبانيا، فقام فى عام ١٤٩١ بتجهيز قوات ضخمة استعدادا للفتح. دافع المسلمون ببسالة عن مدينتهم ولكن دون جدوى فقد أرهق المسلمين التفكك والصراع الداخلى، بينما كان المسيحيون ينعمون بالقوة والاتحاد. تم تسليم مدينة غرناطة إلى ملك قشتالة فى يناير من عام ١٤٩٢، ثم عقد اتفاق بين الملكين الكاثوليكيين فرناندو وزوجته إيسابيلا، وبين أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس فى ١٥ أبريل ١٤٩٣، ليتنازل الأخير عن سائر حقوقه وحقوق أهله وصحبه ومغادرة حدود أوروبا إلى المغرب العربى، وبذلك تنتهى حقبة حكم فيها المسلمون جزء من أوروبا المسيحية واستعمروها لفترة تناهز الثمانى قرون، كما انتهت من قبل حقبة حكم فيها المسيحيون الكاثوليك جزءاً من الوطن العربى، أثناء ما يسمى بالحروب الصليبية، وهذا فصل آخر من فصول المنظومة البشرية القائمة على الصراع.



الحروب الصليبيـــة

تجلت عملية توظيف العقيدة الدينية بوضوح وصراحة فى سلسلة حـــروب دامت إلى ما يقرب من قرنين من الزمـــان فـــى الفتـــرة ١٠٩٥-١٢٩١م بـــين الإسلام الكائن فى الساحل الشرقى الجنوبى لحوض البحر المتوسط (بلاد الـــشام ومصر)، والمسيحية الغربية الغازية من الدول الأوربية، فى بقعة تحوى رمـــوزاً أساسية للأديان السماوية الثلاثة. اشتق مصطلح الحروب الـــصليبية Crusades من كلمة Cruzada باللغة الإسبانية، وتعنى "عليه علامـــة الـــصليب". تعـــددت وتداخلت الأسباب الحقيقية للحروب الصليبية، فهى أسباب سياســـية واقتـــصادية واجتماعية، أدخل فيها الغرب الأوروبى وعلى رأسه النظام البابوى الكـــاثوليكى العامل الدينى، لتبدأ حرب حَوَتْ جميع متناقضات الحياة من كراهيـــة وحـــب ، وفروسية ورومانسية ، وإقطاع وعبودية.

كان الحكم الإسلامى مسيطراً على منطقة الشرق الأوسط، مقسماً فى البلاد العربية إلى دويلات وإمارات. كانت الخلافة العباسية السنية فى بغداد قد تدهور أحوالها بعد الحركات الانفصالية التى سادتها، ثم سيطرة بنى بويه، ثم الـــسلاجقة على بعض من أراضيها. وفى مصر كانت الخلافة الفاطمية الشيعية التى انتابها الضعف، تسيطر أيضاً على فلسطين فى زمن قدوم الحملة الـــصليبية الأولـــى. تمتعت الطوائف المسيحية فى منطقة أورشليم / القدس بحرية واسعة فى ممارسة شعائرها الدينية، باستثناء فترة حكم الحاكم بأمر الله الذى دمر كنيـــسة الـــضريح المقدس عام ١٠١٠م، ولكن تكفل المسلمون بمعظم تكلفة إعادة بنائها فـــى عـــام ١٠٢٧م فى عهد الخليفة الفاطمى الظاهر، أما شمال بلاد الشام فقد كانت تتكـــون من دويلات صغيرة غير موحدة يحكمها أمراء يتمتعون باستقلالية الحكم الذاتى، بعد ان كانت ذات سلطة مركزية قوية فى دمشق فى عهد الخلافة الأموية.

تذمر حجاج أوروبا المسيحيين بعد عودتهم من أورشليم / القدس، من المتاعب والمضايقات التى كانوا يتعرضون لها بعد سيطرة الأتراك السلاجقة Seljuk Turks على المدينة المقدسة. حمل أحد رجال الدين الغربيين رسالة من بطريق بيت المقدس فى عام ١٠٨٨ م إلى بابا الفاتيكان أوربان الثانى يستنجد فيها لإنقاذ المسيحيين من المعاناة والاضطهاد من قبل المسلمين. أما بالنسبة للأسباب السياسية فكان ما لحق بالإمبراطورية البيزنطية المسيحية — التى كانت بمثابة البوابة الشرقية لأوروبا — من ضعف وخوار بعد ما تعرضت لصراع طويل مع الفرس ثم القوات الإسلامية. كان أشد العناصر خطورة على الإمبراطورية البيزنطية هم الأتراك السلاجقة المسلمون الذين هزموا قوات الإمبراطورية البيزنطية فى معركة مانزكرت فى عام ١٠٧١ م. تابع السلاجقة انتصاراتهم بالاستيلاء على إنطاقية البيزنطية عام ١٠٨٥ م، ثم توغلوا فى آسيا الصغرى حتى وصلوا إلى نيقية واستولوا عليها واتخذوها عاصمة لهم فأصبحوا على مشارف بحر مرمرة متطلعين للاستيلاء على القسطنطينية عاصمة البيزنطيين. خاف الإمبراطور البيزنطى الأرثوذكسى الكسيوس الأول من ضياع ملكه فبعث برسالة إلى البابا الكاثوليكى يستنجد به من هجمات الأتراك السلاجقة.

تمثلت الأسباب الاقتصادية فى رغبة المدن الإيطالية الساحلية مثل جنوا، وبيزا والبندقية فى توسيع مجال تجارتها على حساب الوجود الإسلامى فى الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط أى فى سواحل بلاد الشمال ومصر. لقد استطاعت القوات المسيحية منذ عام ١٠٨٥م استرداد جزء من الأراضى التى كانت يسيطر عليها المسلمون فى شمال الأندلس مما أدى إلى زيادة التجارة بين المدن الإيطالية والمدن المحررة فى شمال الأندلس. اعتقد تجار أوروبا أن الاستيلاء على السواحل الشرقية لحوض البحر المتوسط سيؤدى إلى مزيد من النشاط التجارى للمدن الأوربية. أما بالنسبة للأسباب الاجتماعية فكان أهمها انتشار النهب والسرقة من الخارجين عن القانون فى الإقطاعات الأوربية نتيجة

للحروب الأهلية، والحالة الاقتصادية والاجتماعية المتدنية لفقراء الشعوب الأوربية الذين عانوا من بذخ وسفه أمراء ونبلاء أوروبا. سبب آخر هو انتشار تطبيق نظام منح أكبر أولاد الإقطاعى جميع أملاكه بعد وفاته، فأصبح على باقى الأبناء السعى فى البحث عن إقطاعيات خاصة بهم فى خارج مناطقهم، فتقبلوا بسهولة مخاطر الانضمام إلى الحملات الصليبية فيما بعد طمعاً فى المكاسب المادية، وأملاً فى إنشاء إقطاعيات جديدة خاصة بهم فى الشرق.

تجمعت الأسباب وجاء التنفيذ، فانتهز البابا أوربان الثانى Pope Urban II الفرصة ودعا إلى مجلس دينى انعقد فى بياكتزا فى مارس ١٠٩٥ م فجر فيه فكرة الحرب الصليبية، خاصة بعد ما نجح الأوربيون فى دحر المسلمين فى شمال الأندلس وفى جزيرة صقلية. ظل أوربان يتجول فى أوروبا لاستطلاع رأى الملوك والأمراء والزعماء الأوروبيين فى فكرة الاستيلاء على المدن المقدسة فى الشرق خاصة بيت المقدس. انعقد المجلس التاريخى فى مدينة كليرمونت فى جنوب فرنسا فى نوفمبر من عام ١٠٩٥، بعد أن تجمع فى المدينة عشرات الآلاف من جميع أنحاء أوروبا انتظاراً لنتائج المؤتمر. فى هذا الجمع الكبير خطب البابا أقوى وأشهر خطبة فى تاريخ العصور الوسطى جاء فيها، كما ورد فى كتاب " تاريخ الحروب الصليبية ": (يا شعب الفرنجة يا شعب الله المحبوب المختار... لقد جاءت من بلاد فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية، أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله، قد طغى وبغى فى تلك البلاد، بلاد المسيحيين، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب والحرائق، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم. وهم يهدمون المذابح فى الكنائس، بعد أن يدنسوها برجسهم، ولقد قطعوا أوصال بيزنطة، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين. على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع، إذا لم تقع عليكم أنتم – يا من حباكم الله أكثر

من أى قوم آخرين بالمجد فى القتال، وبالبسالة العظيمة، وبالقدرة على إذلال رءوس من يقفون فى وجوهكم؟ .... ألا فليكن لكم من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم – أمجاد شارلمان وعظمته، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم – فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا، الضريح الذى تمتلكه الآن أمة نجسة، وغيره من الأماكن المقدسة لوثت ودنست، لا تدعوا إن هذه الأرض التى تسكنوها الآن، والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقمم الجبال، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضا، ويلتهم بعضكم بعضا، وتتحاربون، ويهلك الكثيرون منكم فى الحروب الأهلية. طهروا قلوبكم إذن من الحقد، واقضوا ما بينكم من خصام، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث، وتملكوها أنتم. إن القدس أرض لا نظير لها فى ثمارها، هى فردوس المباهج. إن المدينة العظمى القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم فهبوا لإنقاذها، وقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجدا لا يفنى فى ملكوت السموات). لم يتوان البابا فى مزج الترغيب السماوى بملذات طيبات القدس من ثمار وطعام وتملك أراض. لم تخل العقائد الدينية الأخرى من التحفيز الدنيوى، فأرض الميعاد/ أورشليم كانت دائما أرض اللبن والعسل فى العقيدة اليهودية، ومغانم الحروب من سبايا وأموال كان حافزا أيضا فى العقيدة الإسلامية، واختلط المؤمن مع الطامع، يحث الأول ثواب وجنات الآخرة ويحرك الثانى نعيم الدنيا ومتاعها.

نجح البابا فى إلهاب حماس المحتشدين الذين رددوا عبارة " تلك إرادة الرب"، فردد البابا وراءهم هذا النداء، ودعاهم إلى جعلها نداء دائماً فى حربهم المقدسة. أمر البابا الذاهبين إلى الحرب الصليبية أن يضعوا علامة الصليب على جباهم أو صدروهم. تقدم بعض النبلاء إلى البابا راكعين، واهبين أنفسهم وأموالهم لله، وحذا حذوهم الآف من عامة الشعوب الأوروبية، وخرج الرهبان

من صوامعهم ليكونوا جنود المسيح. تنقل البابا فى مدن أخرى طوال مدة تسعة أشهر يخطب فى الناس، داعياً إلى الحرب الصليبية. رجع البابا إلى مقره فى روما بعد غياب دام لمدة سنتين، فأحل جميع القيود التى تعوق مسيحى أوروبا للانضمام إلى المقاتلين، فحرر رقيق الأرض، وحرر العاملين فى إقطاعيات الأمراء والنبلاء من الولاء لأسيادهم، ومنح جميع المسيحيين أحقية المحاكمة أمام المحاكم الكنسية بدلا من المحاكم الخاصة بالإقطاعيين، وضمن لهم حماية الكنيسة لأملاكهم مدة غيابهم فى الحروب الصليبية، كما أمر البابا بوقف جميع الحروب القائمة بين المسيحيين تمهيدا لبدأ الحرب المقدسة، ووضع مبدأ "الطاعة للكنيسة تعلو الولاء للسيد الإقطاعى". توحدت أوروبا فى حماسة وطاعة لبابا أوروبا وأصبحت مستعدة للحرب الصليبية لتحرير الأراضى المقدسة.

تجمعت أعداد كبيرة من جميع أنحاء أوروبا تحت لواء الحرب المقدسة، تدفعهم مغريات عديدة، منها أن كل من يقتل فى الحرب تغفر له جميع ذنوبه ، كما عفا البابا المحاربين من الضرائب التى عليهم ، وأجلت ديون المدنيين على أن يؤدوا فائدة نظير هذا التأجيل . أطلق البابا سراح المسجونين، وخفف أحكام الإعدام إذا خدم – من حكم عليه بها – فى فلسطين طوال حياته. انضم إلى الحرب المقدسة آلاف من المتشردين الجائعين، والأتقياء المخلصين، والفرسان المغامرين، والتجار الباحثين عن أسواق جديدة لبضائعهم، والمنافقين الذين خافوا من وصمهم بالضعف والجبن، والعاهرات لخدمة المحاربين والحالمين بجنات الشرق وأساطيرها، وامتزج الحابل بالنابل ولكن جمعهم جميعا هدف واحد وهو تحرير أرض المسيح، وشعار واحد هو " تلك إرادة الرب".

كان الموعد المحدد للرحيل هو شهر أغسطس من عام ١٠٩٦ م، ولكن لم يستطيع الفلاحون القلقين الانتظار حتى هذا الموعد فسار بعض منهم يُقَدرون بحوالى اثنى عشر ألفا، لم يكن بينهم إلا ثمانية من الفرسان، وبدأوا رحلتهم من

فرنسا فى شهر مارس بقيادة بطرس الناسك، وقامت مجموعة أخرى عدتها حوالى خمسة آلاف متطوع من ألمانيا بقيادة القس جتسشوك، وزحفت مجموعة ثالثة من أرض الراين. كان المجندون يحملون معهم القليل من الزاد والمال، وكان قادتهم تنقصهم الخبرة والتجربة، ومن جهلهم كانوا يسألون أبناء أى بلدة يمرون بها، ما إذا كانت هذه البلدة هى القدس. لما فرغ المال والطعام من الزاحفين أخذوا ينهبون كل ما فى طريقهم من حقول ومنازل، يسرقون ويسلبون ويفجرون. هلك الكثير منهم بفعل الجوع والمرض قبل أن يصلوا إلى مدينة القسطنطينية، فرحب بهم الامبراطور الكسيوس، ولكنه لم يقدم لهم كفايتهم من الطعام، فأخذوا يعثون فى أرجاء المدينة. حتى يتخلص منهم الامبراطور، أمدهم بالسفن التى عبرت بهم مضيق البسفور، ونصحهم بالانتظار بعد عبور المضيق حتى يأتى لهم المدد. لم يستمع الصليبيون إلى نصيحة الإمبراطور وزحفوا إلى نيقية، فخرجت عليهم قوة من الأتراك السلاجقة فأبادت الفرقة التى عبرت البسفور. كانت أكثرية الموجة الأولى من الفرنسيين، لذلك ظهر مصطلح الفرنج/ الفرنجة (نسبة إلى الفرنسيين) على شعوب غرب أوروبا.

جاءت الموجة التالية من القوات الصليبية وعددها نحو ثلاثين ألفا، وعبرت بحر مرمرة فى عام ١٠٩٧م، وكانت القيادة موزعة بين عدد من القادة والنبلاء الأوربيين، ولكن كان المسلمون أشد انقساما من الصليبيين، فقد أنهكت الحروب قوة المسلمين فى إسبانيا، ومزقت المنازعات الدينية وحدتهم فى شمال أفريقيا. كان المسلمون الفاطميون يحكمون جنوب بلاد الشام، بينما أعداؤهم السلاجقة الأتراك المسلمون يحكمون الجزء الشمالى، ويمتلكون الجزء الأكبر من آسيا الصغرى. فى هذه الأثناء تمردت أرمينيا على محتليها من السلاجقة وتحالفت مع الصليبيين. زحفت القوات الصليبية نحو نيقية وحاصرتها، واستسلمت المدينة بعد أن وعدها الإمبراطور الكسيوس بالأمان. استراح الصليبيون فى المدينة أسبوعا ثم استكملوا مسيرتهم إلى الشرق، واخترقوا آسيا الصغرى فى صيف عام

١٠٩٧م، فمات الكثير منهم تأثرا بالحر الشديد الذى لم تتعوده القوات القادمة من بلاد أوروبا الباردة. بعد سلسلة من التلاحم مع العرب المسلمين، تقدم الصليبيون جنوبا حتى وصلوا إلى طرابلس، فطلب أميرها الأمان مقابل إطلاق سراح حوالى ثلاثمائة من أسرى الصليبيين. بالإضافة إلى مبلغ من المال. وافق الصليبيون على هذا العرض وغادروا طرابلس فى منتصف مايو ١٠٩٩ م، واتجهوا جنوبا حتى وصلوا إلى بلدة جبيل على حدود الدولة الفاطمية عند نهر الكلب. لم يكن للفاطميين قوات فى تلك البقاع، لذا أكمل الصليبيون مسيرتهم حتى وصلوا إلى بيروت، فخاف أهلها وقدموا للقوات الصليبية الهدايا وسمحوا لهم بالمرور عبر أراضيهم بشرط عدم الإضرار بمزروعاتهم. وافق الصليبيون على ذلك وواصلوا زحفهم جنوبا إلى بلدة صيدا.

دافعت صيدا عن نفسها ضد الصليبيين الذين لجأوا إلى نهب وتخريب الحدائق المحيطة بها، ثم زحفوا جنوبا نحو صور ولم يهاجموها وواصلوا سيرهم حتى وصلوا إلى ضواحى عكا. قام حاكم عكا المسلم بتقديم الهدايا للصليبين طلبا للأمان، فتركتها القوات الصليبية التى واصلت السير جنوبا حتى قيسارية، ومنها إلى بلدة أرسوف. خاف أهل يافا القريبة على أنفسهم فهجروا المدينة، بينما وصلت فى منتصف شهر يونيو من عام ١٠٩٩م بعض السفن الصليبية إلى ميناء المدينة فاستولت على المدينة بسهولة. كانت هذه السفن تحمل آلات الحصار والكثير من المؤن، مما أدى إلى تدعيم مركز القوات الصليبية أثناء حصارها لأورشليم / القدس.

توغل الصليبيون إلى الداخل حتى وصلوا مدينة الرملة التى تركها سكانها، خاصة أن حامية المدينة كانت قليلة العدد. دخلت القوات الصليبية مدينتى الرملة واللد بسهولة وأقاموا حامية لهم فيهما. نادى بعض القادة الصليبيين بالتوجه إلى مصر، بينما رأى البعض الآخر مواصلة السير إلى بيت المقدس، وتغلب الرأى

الأخير. فى السادس من يونيو سارت القوات الصليبية من الرملة فوصلت مشارف القدس فى السابع من يوليو، وتمركزت أمام المدينة. كان الفاطميون قد أخرجوا قوات الأتراك السلاجقة من القدس من قبل، فكان عليهم الدفاع عن المدينة بالرغم من قلة عددهم. لما رأى الفاطميون أن ميزان القوى ليس فى صالحهم، عرض الخليفة الفاطمى على الصليبيين أن يعقد صلحاً معهم، متعهدا بتأمين سلامة الحجاج المسيحيين إلى الأماكن المقدسة.

رفض القادة الصليبيون وعلى رأسهم الدوق جودفرى Godfery، والكونت بوهمند Bohemond، عرض الخليفة الفاطمى، وطلبا من القوات الفاطمية الاستسلام بدون قيد أو شرط. كان الدوق جودفرى حاكماً لمدينة بويون البلجيكية يجمع ما بين صفات الجندى والراهب، وكان متعصباً فى الدين ومقاتلاً شجاعاً ومحنكاً فى الحروب. أما الكونت بوهمند فكان من سادة ترنتو، ويحلم باقتطاع ملكا له ولجنوده النورمان من الأملاك البيزنطية فى الشرق الأدنى الإسلامى.

قاومت الحامية الفاطمية المكونة من ألف مقاتل، حصار القوات الصليبية لمدة أربعين يوماً. وفى الخامس عشر من يوليو عام ١٠٩٩ قاد القواد الصليبيون رجالهم وتسلقوا أسوار مدينة القدس واستولوا عليها. عاثت القوات الصليبية فى المسلمين قتلا وذبحا. صور الدكتور محمود عمران فى كتابه " الحروب الصليبية " يوم استيلاء الصليبيين على القدس نقلاً عن المؤرخ القس ريموند الأجيلى أحد شهود العيان للحملة الصليبية: (وشاهدنا أشياء عجيبة، إذ قطعت رءوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام، ثم أحرقوا فى النار. وكنت ترى فى الشوارع أكوام الرءوس والأيدى والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل والدماء... وفى رواية أخرى أن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب، والأطفال الرضع

يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار، أو تهشم رءوسهم بدقها بالعصى، وذبح السبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا فى المدينة، أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم، وأشعلت فيهم النار وهم أحياء. واحتشد المنتصرون فى كنيسة الضريح المقدس، وكانوا يعتقدون أن مغارة فيها احتوت فى يوم ما السيد المسيح. وفيها أخذ كل منهم يعانق الآخر ابتهاجاً بالنصر وبالاستيلاء على المدينة، ويحمدون الله على ما نالوا من النصر).

تم الذبح باسم الدين والعقيدة، وأبيح القتل باسم "الرب " ، وتناسى الصليبيون كلمات السيد المسيح: (طوبى للرحماء لأنهم يرحمون . طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله. طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون). وأد الصليبيون تعاليم يسوع عليه السلام: (سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا. ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين. من سألك فأعطه. ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده. سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضكم. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم. لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين. لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم. أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك . وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأى فضل تصنعون أليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا. فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل).

لم يفرق الصليبى بين مسلم ويهودى – عدو الماضى، نصير وحليف الحاضر – فكلاهما بالنسبة له لا يدينا بدينه، ولا يؤمن بعقيدته. لقد سمح

إنسان – أيا كان دينه أو عقيدته – بالتنفيث عن غرائزه العدوانية، وشهوة القتل وسفك الدماء، متعللاً بالحرب المقدسة، مدعياً الدفاع عن اسم وتعاليم الإله. لقد شكل الإنسان إلهه بداخله للمحبة والسلام كما يدعو للحرب والانتقام. وتظل منظومة القوى هى السائدة كعنصر أساسى فى المنظومة البشرية، تحكم وتملى إرادة من يمتلكها.

فى الشهر التالى لسقوط القدس، ترددت أنباء تجهيز جيش مصرى بقيادة الوزير الأفضل يتحرك نحو عسقلان، فى نفس الوقت الذى كان فيه الأسطول المصرى يتولى حماية المدن الساحلية لبلاد الشام. أرسل جودفرى رجاله لتتبع اخبار القوات الفاطمية، ونجحوا فى القبض على بعض الكشافة المصريين وعرفوا منهم معلومات كافية عن أعداد وعتاد القوات المصرية، وخططهم وأهدافهم. قاد جودفرى القوات الصليبية من القدس، بعد أن ترك بها حامية قليلة العدد، وأرسل إلى القادة الآخرين للتجمع لمواجهة القوات الفاطمية. نجحت القوات الصليبية فى مفاجأة القوات الفاطمية والانتصار عليها، واستطاع الوزير الأفضل الفرار من أرض المعركة متجهاً إلى عسقلان ومنها إلى مصر. توصل الصليبيون إلى حقيقة ضعف القوات الفاطيمية وتأكد لهم السيطرة على مدينة القدس وما حولها. بالرغم من اندحار القوات الفاطمية فقد قام المسلمون فى المدن الساحلية من أرسوف وعسقلان بالإغارة على المعسكرات الصليبية القريبة، فبدأ جودفرى فى تحصين مدينة يافا. فى شهر يونيو من عام ١١٠٠م وصل إلى يافا أسطول من البنادقة يتكون من حوالى مائتى سفينة، وعرض قادة هذا الأسطول خدماتهم على الصليبيين، وبدأوا فى حصار مدينة عكا من ناحية البحر بينما تولى جودفرى حصار المدينة من ناحية البر، ولكن موت جودفرى أدى إلى تحويل الحملة نحو حيفا التى سقطت فى أيدى الصليبيين فى أغسطس من نفس العام.

بعد وفاة جودفرى فى عام ١١٠٠ م، نادى أخوة بلدوين Baldwin بقيام مملكة أورشليم / القدس، التى كانت أكبر ولاية من الولايات الصليبية فى الشرق ، وتولى بلدوين الأول الملك منذ عام ١١٠٠ وحتى وفاته فى عام ١١٣١ م . كان نظام الحكم فى القدس الصليبية مقارب للنظام الفرنسى حيث كان معظم الصليبيين من أصل فرنسى أو يتكلمون اللغة الفرنسية. وكان الملك يحكم من خلال مجلس بارونات Barons متساوين – حتى الملك – فى المرتبة، ولكن الملك يعتبر فقط على رأس المجلس الحاكم . قاوم ملوك القدس الصليبيون محاولات رجال الدين المسيحيين الذين كانوا يأملون تحويل القدس إلى دولة دينية Theocracy خاضعة لحكم رجال الدين.

خاف حكام المدن الساحلية من العرب من انتصارات الصليبيين، وأرسلت بعض المدن مثل أرسوف، وقيساريه، وعكا، وصور، سفراءها إلى القدس فى مارس ١١٠١ م حاملة الهدايا إلى الملك بلدوين الأول. فى أبريل من نفس العام وصل إلى حيفا أسطول من جنوا يحمل المندوب البابوى الكاردينال موريس أسقف مدينة بورتو البرتغالية. عقد الملك بلدوين تحالفاً مع قادة الأسطول جاء فيه أن يعمل الأسطول تحت إمرة الملك لمدة ثلاثة أشهر ويكون للأسطول نصيب الثلث فى الغنائم. كانت مدينة أرسوف الهدف الأول للاتفاق، فهاجم الأسطول المدينة من البحر، وهاجم بلدوين وقواته من ناحية البر، فلم تستطع المدينة الصمود طويلا فعرضت الاستسلام مقابل الأمان وخروج الأهالى بأمتعتهم ووافق الملك بلدوين وتسلم المدينة. كانت الخطوة التالية للصليبين مدينة قيسارية، فبدأ الحصار فى أوائل شهر مايو، فقاومت المدينة لمدة خمسة عشر يوماً حتى سقطت فى أيدى الصليبيين. استباحت القوات الصليبية المدينة فنهبتها، ولجأ سكانها إلى مسجد المدينة، ولكن الصليبيين لاحقوهم وجرت مذبحة داخل صحن المسجد.

وصلت أنباء سقوط أرسوف وقيسارية إلى الدولة الفاطمية فى مصر فأعـد الوزير آلافضل جيشا كبيرا بقيادة مملوكه سعد الدولة الطواشى. سارت الحملـة برا حتى وصلت إلى عسقلان فى مايو ١١٠١م، تحرك الجيش الفـاطمى نحـو مدينة الرملة فى الرابع من شهر سبتمبر، فهاجمتها القوات الصليبية بقيادة بلدوين ، وهزم الجيش المصرى بعد قتال قصير . تراجع الجيش المصرى إلى مدينـة عسقلان وظلت القوات الصليبية تطارده حتى أسوار المدينـة. أعـادت الدولـة الفاطمية فى مصر الكرة، وأرسلت حملة أخرى فى مـايو مـن عـام ١١٠٢، ومنيت هذه الحملة بالهزيمة مثل سابقتها.

كانت بعض المدن الساحلية مثل صور وعكا وعسقلان ما تزال فى حـوزة الفاطميين، وكثيرا ما خرجت السفن الفاطمية لمهاجمة السفن التجارية الـصليبية. أراد الملك بلدوين أن يضع حدا لهذه الأعمال فقام بحصار مدينة عكـا، ولكـن خرج الأسطول المصرى من صور وصيدا فى طريقه إلى عكا، ممـا اضـطر الملك بلدوين إلى رفع الحصار. فى شهر مايو من عام ١١٠٣م، وصـل إلـى مدينة حيفا أسطول صليبى من جنوا فتحالف معه بلدوين على مهاجمـة عكـا. دافعت المدينة عن نفسها ببسالة حتى عجزت عن المقاومة فعرضت الاستسلام، فأصبحت عكا الميناء الرئيسى للصليبيين. استمرت الحملات وتواصلت الحروب، فسقطت مدينة طرابلس فى أيدى الصليبيين فى عام ١١٠٩ م، ثم سقطت بيروت فى العام التالى، واستسلمت صيدا فى نهاية عام ١١١٠ م، وبعد مزيد من الكـر والفر، سقطت صور فى أيدى الصليبيين فى عام ١١٢٤م.

مرت الأيام وتسلسلت الحوادث للوصول إلى الحملة الصليبية الثانية. مـات فولك أوف أنجوى الملك الثالث للقدس الصليبية فى عام ١١٤٣، وخلفـه ابنـه بلدوين الثالث الذى كان فى الثالثة من عمره، فتولت أمه الوصاية على المملكة . فى نفس العام مات الامبراطـور البيزنطـى يوحنـا الثـانى كومينـوس John

Commenus II، الذى كان ذا بأس وشكيمة، وانشغل الإمبراطور الجديد بـــأمر عرشه وصراعه مع أمير إنطاكيه . فى نفس الوقت وبعد عام ١١٢٧ اســتطاع السلاجقة تقوية شوكتهم فى الموصل وما حولها. والسلاجقة Seljuks هـــم فـــى الأصل قبائل تركمانية مسلمة، كانت تعيش فى منطقة بخارى، وشقــت طريقهـــا بالحرب فى غرب آسيا، حتى أقامت لهـــا كيانا حاكما وامبراطورية فـــى آســيا الصغرى، وشمال سوريا (مدينة حلب وما حولها). راقـــب القائـــد الــسلجوقى عماد الدين زنكى فى الموصل الموقف، فخطط وعزم على ضـــرب الإمـــارات الصليبية فى الشام، واتخذ مدينة الرها كأول أهدافه. ومدينة الرها Edessa تقـــع شمال مدينة حلب وكانت ضمن نطاق إمبراطورية السلاجقة. سار زنكى بقواتـــه إلى مدينة الرها، وأرسل إلى حاميتها ليسلموه المدينة سلماً مقابل عهـــد الأمـــان ولكن جاءه الرد بالرفض. نصب زنكى المجانيق ونقب أسوار المدينة ليل نهـــار من أجل سقوط المدينة فى أقرب وقت قبل وصول المدد من الإمارات الـــصليبية الأخرى. بعد ما يقرب من شهر سقطت مدينة الرها فى أيـــدى المـــسلمين فـــى الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١١٤٤. خرب زنكى الكنائس الثلاث التـــى كان يستعملها الصليبيون الكاثوليك واستخدم حجارتها فى إصلاح سور المدينـــة، أما كنائس الطوائف الأخرى فقد قام بإصلاحها، كما أصلح المسجد الـــذى كـــان يتخذه أسقف المدينة مقرا له. شجع سقوط الرها المسلمين لاســتعادة أراضـــيهم بعدما لمسوا ضعف الكيان الصليبى. تسلم المسلمون مدينة البيـــرة ســـلما بعـــد حصارهم لها، وخوف القوات الصليبية الخوض فى القتـــال. حـــاول جوســـلين الثانى Joscelin II حاكم الرها استعادة المدينة، وانتهز فرصة مقتل عماد الدين زنكى وهو يحاصر قلعة جعبر ، فاتصل بسكان المدينة من الأرمن الذين يميلون إليه لكون أمه أرمينية. زحف جوسلين بقواته نحو الرها وتمكن مـــن دخولهـــا، وحاصر قلعة المدينة التى تتحصن فيها قوات المسلمين . لما بلـــغ الأمـــر نـــور الدين – الذى خلف والده فى حلب – هرع بقواته إلى مدينـــة الرهـــا ودخلهـــا

وقضى على القوات الصليبية. بعد أن تحالف الأرمن ضد المسلمين، لم تفرق القوات الإسلامية بين الصليبيين الغربيين والمسيحيين المحليين والأرمن والسريان، وإنما أعملوا السيف فى الرجال، وساقوا النساء والأطفال إلى حلب ، فخلت المدينة من أهلها.

فى أول ديسمبر من عام ١١٤٥ وجه البابا يوجين الثالث Eugenius III خطاباً إلى لويس السابع ملك فرنسا، تناول فيه سقوط الرها، وماله من أسوأ الأثر على الكيان الصليبى فى بلاد الشام، وطلب من الملك إرسال حملة صليبية إلى الشرق. أعلن لويس فى يوم ٢٥ من ديسمبر عزمه على حمل الصليب والتوجه إلى الأراضى المقدسة. تحدد للحملة الصليبية الثانية يوم الخامس عشر من يونيو ١١٤٧، بقيادة ملك فرنسا لويس السابع Louis VII ، وملك ألمانيا كونراد الثالث Conrad III . تحرك الملكان بقواتهما منفصلين لأسباب تعود إلى الغيرة المتبادلة والنابعة من الإثبات الذاتى الملكى . بالنسبة للحملة الألمانية فقد تقدم كونراد على رأس قواته التى بلغت سبعين ألفا من الفرسان بالإضافة إلى المشاة، نحو الحدود البيزنطية. قامت القوات الألمانية الصليبية بنهب القرى بعد عبور مدينة صوفيا، وقامت بحرق ضواحى المدينة التى أغلقت أسوارها. طلب الإمبراطور البيزنطى مانويل من كونراد أن يتخذ طريقه عبر بوغاز الدردنيل ليبعد عن عاصمته القسطنطينية، ولكن كونراد رفض وسار نحو العاصمة. وصل كونراد بقواته إلى القسطنطينية فى سبتمبر ١١٤٧، وقام رجاله بأعمال عنف ضد البيزنطيين. غضب كونراد عندما طلب منه مانويل السيطرة على قواته، وهدد مانويل بمهاجمة القسطنطينية. تأزم الموقف بين الملكين المسيحيين ولكن تدخلت زوجة مانويل ونجحت فى التوفيق بين زوجها، وبين كونراد زوج أختها. وصلت القوات الفرنسية إلى القسطنطينية، وحدثت مصادمات بينها وبين القوات الألمانية، مما دفع كونراد إلى عبور البسفور بقواته منعا لمزيد من الصدام. توجه كونراد إلى بلاد الشام مختارا أقصر الطرق، وهو

طريق يمر بالعاصمة السلجوقية قونية. كان الطريق مليئا بالوعورة ويمر من خلال ممرات ضيقة وجبال عالية. تبين للصليبيين أن السلاجقة منتشرون على قمم الجبال المحيطة بهم، وقطعوا الطريق على القوات الألمانية وأمطروهم بوابل من السهام. سادت الفوضى صفوف القوات الألمانية وكانت مذبحة للقوات الألمانية التى قتل منها ما يقارب تسعة أعشارها، وأصيب كونراد بجرحين، فآثر الانسحاب. لاقى الجزء الثانى من القوات الألمانية الذى اتخذ طريقا آخر نفس مصير القوات الرئيسية التى قادها كونراد، وبذلك فشلت الحملة الصليبية الألمانية. تعلم السلاجقة المسلمون من تجربة الحملة الصليبية الأولى، فقد أدى تحالفهم مع البيزنطيين إلى هزيمة القوات الفاطمية، فخسر السلاجقة أهم مدنهم ومنها مدينة الرها التى احتلتها القوات الصليبية.

علم ملك فرنسا لويس السابع بهزيمة القوات الألمانية عندما كان يستعد للرحيل من الأراضى البيزنطية. فى طريق الرحلة إلى بلاد الشام تعرضت القوات الفرنسية لأكثر من هجوم من السلاجقة، وتعرض الملك لويس للموت والأسر أكثر من مرة. فى بلدة أضاليا البيزنطية قرر لويس إكمال الرحلة عبر الطريق البحرى وساعده حاكم المدينة فى تدبير بعض السفن لنقل القوات الفرنسية. تخلفت بعض القوات لنقص فى السفن، فتعرضت القوات الفرنسية المتخلفة لهجوم السلاجقة الذين أنزلوا بالقوات الفرنسية والبيزنطية خسائر فادحة. فى هذه الأثناء كان الملك كونراد يعالج من جروحه فى العاصمة البيزنطية حتى تعافى، ومع حلول ربيع عام ١١٤٨ رحل بحرا إلى عكا ومنها توجه إلى القدس، فوصلها فى شهر أبريل من نفس العام. أما لويس السابع فقد هبط فى ميناء السويدية، فوجد نفسه وسط مجموعة من الأمراء الصليبيين الذين يجمعهم الأهواء المتعارضة، وصراع المصالح. توجه لويس بعد ذلك إلى القدس وتلاقى مع كونراد وعقدا اجتماعاً ضم بلدوين ملك أورشليم/ القدس، وكبار القواد والشخصيات الدينية . اتفق المجتمعون على مهاجمة دمشق، بالرغم من

أنها الدويلة الوحيدة فى العالم الإسلامى التى انفردت بالحرص على صداقة الصليبيين، فقد كانت مثل الصليبيين تعتبر العادل نور الدين محمود بن زنكى حاكم حلب أكبر عدو لها.

بدأت الجيوش الصليبية فى التجمع لمهاجمة دمشق فى صيف عام ١١٤٨. استطاع المسلمون رد الغزاة عن أسوار دمشق خاصة بعد ما وصل المدد من الجنود الأتراك، فتحول المسلمون من الدفاع إلى الهجوم. بينما كانت قوة المسلمين فى ازدياد، دب الخلاف بين الصليبيين مبشرا بفشل الحملة الصليبية الثانية. لقد اختلف الأمراء الصليبيون على الوليمة – دمشق – قبل الاستيلاء عليها، فطفحت أطماعهم بعد أن كانت خافية. يرى بعض المؤرخين أن قائد دمشق الداهية معين الدين أنر قد اتصل سرا بأمراء أورشليم من الصليبيين، وقدم مبلغ ضخما من النقود نظير تضليل الحملة لدفعها نحو الطريق الشرقى من دمشق، حيث الأرض وعرة والماء بعيد. هدد معين الدين أنر الصليبيين بقرب وصول الجيوش العربية المتحدة من الشمال بقيادة نور الدين بن زنكى، فآثرت جيوش الملكين كونراد ولويس الانسحاب بعد اكتشافهما خيانة أمراء الشرق الصليبيين. فى يوم ٢٨ من يوليو ١١٤٨ أى فى اليوم الخامس لوصول الصليبيين أمام دمشق، قاموا بإزالة معسكرهم ورحلوا إلى الجليل، إلا أن القوات الإسلامية أمطرت الجيوش الصليبية بوابل من السهام، وكان الوقت صيفا والحرارة قاسية على الجنود القادمين من أوروبا، وتناثرت جثث الجنود الصليبيين وجثث خيولهم على طول الطريق. وأخيرا عادت الحملة الصليبية إلى مواقع الحاميات الصليبية حول القدس، محملة بالخيبة والهزيمة. لم يلبث الملك كونراد طويلا فى فلسطين، فأبحر مع رجاله من عكا فى الثامن من سبتمبر من عام ١١٤٨، بينما مكث الملك لويس فى القدس حتى أوائل صيف عام ١١٤٩ميلاديا.

يبين تاريخ مصر والشام فى الحقبة التالية، والصراع الدائر بين الحكام المسلمين، تغلب المصالح على العقيدة الدينية، فقد تحالف بعض الحكام المسلمين مع الصليبيين ضد حكام مسلمين آخرين من أجل السلطة والسلطان. شهد النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى وفيرا من المؤمرات بين الحكام المسلمين، وكثيرا من المنازعات والحروب بين القوات الإسلامية والصليبية، وصعود نجم الكردى صلاح الدين الايوبى ليصبح قائدا للمسلمين ومنتصرا على الصليبيين.

زاد طمع الصليبيين فى الاستيلاء على مصر نتيجة للصراعات الداخلية فيها فى عهد الخلافة الفاطمية. بعد موت بلدوين الثالث فى عام ١١٦٢، تولى أخوه عمورى الأول **Amalric I** الحكم. انتهز عمورى فرصة مقتل ابن رزيك فى مصر، فاتجه إلى سيناء وحاصر الفرما ولكن ضرغام الذى تولى الوزارة – بعد عزل حاكم الصعيد شاور – تصدى له وأجبره على الأنسحاب. فر شاور إلى الشام ولجأ إلى نور الدين بن زنكى لمساندته ضد ضرغام وإعادة وزارة مصر إليه، على أن يكون نائبه فى مصر ويقدم له جزية سنوية تعادل ثلث إيراد مصر. وافق نور الدين على العرض وأرسل مع شاور أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب (صلاح الدين الأيوبى). عندما علم ضرغام بالاتفاق، أرسل يطلب النجدة من الملك الصليبى عمورى ، الذى وجدها فرصة سانحة لدخول مصر . نجح شيركوه وقواته فى الوصول إلى مصر قبل عمورى وقواته، وتمكن من هزيمة ضرغام وقتله وتولى شاور أمر الوزارة فى مصر. لم يف شاور بوعده، وأظهر الغدر لناصره شيركوه، فأشار عليه ابن أخيه صلاح الدين بالتقهقر إلى بلبيس. استنجد شاور بالصليبيين، الذين زحفوا نحو مصر حتى وصلوا موقع مدينة فاقوس الحالية فى اغسطس عام ١١٦٤، وحاصرت قوات شاور المصرية والصليبيين قوات شيركوه وصلاح الدين وأرغمتها على العودة إلى بلاد الشام. أقنع شيركوه نور الدين بالرجوع إلى

مصر حتى لا تقع فريسة للصليبين. تكررت الأحداث، فاستنجد شاور بالقوات الصليبية وعقد معهم اتفاقاً بأن تدفع مصر لمملكة أورشليم الصليبية مائتى ألف دينار مقابل ألا يرحل عمورى وقواته الصليبية عن مصر إلا بعد جلاء قوات أسد الدين شيركوه، وصادق الخليفة الفاطمى على هذه المعاهدة. هزم شيركوه القوات المتحالفة فى موقعة البابين، واتجه بقواته إلى الفيوم ومنها إلى الإسكندرية. اتفق الصليبيون مع شيركوه على عقد صلح، فعاد على أثره شيركوه إلى الشام، ولكن عمورى اشترط أن يترك حامية صليبية فى الأراضى المصرية بالإضافة إلى ذلك تدفع له مصر جزية سنوية.

ألح الصليبيون على عمورى لاحتلال مصر، فزحف إليها واستولى على بلبيس فى نوفمبر ١١٦٨ وواصل الزحف نحو الفسطاط، فأحرقها شاور حتى لا يستولى عليها الصليبيون. أرسل نور الدين قواته من الشام بقيادة شيركوه مصطحبا معه صلاح الدين الأيوبى. عندما وجد عمورى أن قوات شيركوه تحالفت مع القوات المصرية انسحب عائداً إلى مملكته فى القدس، وانتهت هذه الحملة بمقتل شاور وتولى أسد الدين شيركوه أمر الوزارة الفاطمية فى مصر، مديناً فى نفس الوقت بالولاء لسيده نور الدين. توفى شيركوه فى مارس ١١٦٩ وتولى الوزارة صلاح الدين الأيوبى، فى نفس الوقت اتصل عمورى بملوك أوروبا والإمبراطورية البيزنطية لمساعدته فى غزو مصر بحراً عن طريق دمياط، وبرا عن طريق سيناء، ولكن بفضل التجهيزات الحربية التى قام بها صلاح الدين، وكذلك إغارة نور الدين على ممتلكات الصليبيين فى الشام، فقد فشلت الحملة الصليبية على مصر.

مات نور الدين فى مايو ١١٧٤، وتولى الملك ابنه الملك الصالح إسماعيل ذو الإحدى عشرة سنة. اختلف الأوصياء على الملك الصغير، طمعا فى فرض النفوذ، فضعفت وحدة المسلمين، مما أوجد للصليبيين فرصة للتوسع، فزحف

عمورى على مدينة بانياس وحاصرها. جمع ابن المقدم – الوصى على العرش – قواته وهدد عمورى بطلب النجدة من الموصل ومن مصر، فآثر عمورى الذى كان مريضاً الانسحاب، وعاد إلى القدس حتى إشتد به المرض ومات فى يوليو من نفس العام. خطط وليم الثانى ملك صقلية لغزو مصر معتمداً على دعم القوات الصليبية فى القدس بقيادة عمورى، وبمؤازرة بعض أعيان مصر الذين أضيروا من حكم صلاح الدين. اكتشف صلاح الدين المؤامرة فتولى أمر الخونة من أعيان مصر، وبوفاة عمورى تهاوى الركن الثانى فى المؤامرة. هاجم أسطول وليم الثانى وقواته مدينة الإسكندرية فتصدى لهم المصريون بقيادة صلاح الدين، واستمر القتال ثلاثة أيام، واستطاع المصريون هزيمة قوات وليم الثانى ودحرها فرجعت أدراجها تاركة أسلحتها ومؤنها.

علا شأن صلاح الدين، ونظم أمور مصر وسياستها، وجهز جنوده للذهاب إلى الشام، فوصل دمشق فى نوفمبر ١١٧٤، وتركها بعد أن ولى أخاه ضغتكين واليا على المدينة ليحكمها باسم الملك الصالح الذى هرب من دمشق مع أمه إلى حلب ليصبح في رعاية كمشتكين أمير المدينة. اتجه صلاح الدين بجنوده نحو حلب، فأغلق أميرها أبواب المدينة، طالبا النجدة من الصليبيين. حاصر صلاح الدين حلب، ولكنه قرر الانسحاب والعودة جنوبا إلى حمص بعد أن هاجمها ريموند الذى تولى حكومة مملكة أورشليم الصليبية. انسحبت القوات الصليبية عندما علمت بقدوم صلاح الدين الذى هاجم حمص حتى سقطت فى أبريل ١١٧٥، بذلك نجح ريموند فى عدم سقوط حلب فى أيدى صلاح الدين الذى بسط سلطانه على بلاد الشام حتى حماة. أثارت انتصارات صلاح الدين غضب سيف الدين أمير الموصل، فأرسل أخاه عز الدين على رأس جيش إلى حلب لمناصرة أميرها. وقع القتال بين القوتين الإسلاميتين، وانتهى الأمر بانتصار صلاح الدين، وعقد هدنة تقضى بسيطرته على بعض البلاد الواقعة شمال حماة. تخلى

صلاح الدين عن تبعيته للملك الصغير الصالح إسماعيل واتخذ لنفسه لقب سلطان مصر والشام.

علم صلاح الدين أن الصليبيين يستعدون لغزو مصر، فعاد لتجهيز قواته بالرغم من فشل الحملة الصليبية قبل أن تبدأ. خرج صلاح الدين بقواته نحو عسقلان فحاصرها ببعض من قواته، وسار بالبعض الآخر نحو القدس. طلب بلدوين الرابع ملك مملكة أورشليم العون من قوات صليبية كائنة في غزة، وخرج من عسقلان مع قواته التى تلاقت مع قوات صلاح الدين عند تل الجزر، فانهزمت قوات صلاح الدين وعادت إلى مصر فى نهاية عام ١١٧٧. حدثت بعض المناوشات بين القوات الصليبية وقوات صلاح الدين فى عام ١١٧٨، حتى قام بمهاجمة قلعة مخاضة يعقوب الصليبية ونجح فى السيطرة عليها وهدمها حتى سويت بالأرض وكان ذلك فى أغسطس ١١٧٩. قامت القوات الإسلامية أيضاً بشن غارة على إقليم الجليل، كما شن الأسطول المصرى هجوماً على السفن الصليبية فى ميناء عكا. طلب الملك بلدوين الرابع من صلاح الدين عقد هدنة لمدة عامين، كما طلب أيضا ريموند كونت طرابلس هدنة. حاول الملك بلدوين خلال هذه الهدنة تنظيم جبهة صليبية لمواجهة المسلمين، كما استغل صلاح الدين فى نفس الوقت الهدنة فى توحيد الجبهة الإسلامية.

لم يحافظ الصليبيون على الهدنة، فقد طمع رينو أوف شاتيون – المعروف بأرناط – فى قافلة تجارية إسلامية قرب واحة تيماء واستولى عليها. اشتكى صلاح الدين إلى بلدوين الذى لم يستطع عمل شئ ، فغادر مصر فى مايو ١١٨٢ ، متجها بقواته نحو دمشق ومكث فيها بعض الوقت ثم تركها نحو بيروت ، مخططا لأن يقوم الأسطول بمهاجمة المدينة فى نفس وقت دخول قواته البرية . جمع بلدوين جيشه واتجه إلى الجليل، وطلب من السفن الصليبية الراسية فى عكا وصور إنقاذ بيروت. لم يستطع صلاح الاستيلاء على بيروت

قبل قدوم القوات الصليبية فعاد إلى دمشق، ولكن ما لبث أن استعاد سيطرته على الموقف واستطاع السيطرة على الرها، وسروج، وحلب، وغيرها من المدن الأخرى، وبذلك أصبحت مملكة صلاح الدين تمتد من نهر دجلة شرقا حتى مصر غربا متخذة من دمشق عاصمة لها. أيد الخليفة العباسي في بغداد صلاح الدين، وسعى السلاجقة فى آسيا الصغرى إلى كسب وده، وأصبحت الفرصة متاحة لصلاح الدين ليعد عدته لإزالة وصمة احتلال الصليبيين للأراضى الإسلامية.

استمرت المعارك بين القوات الصليبية وقوات صلاح الدين برا في بلاد الشام، وبحرا على سواحل البحر الأحمر والبحر المتوسط. سقطت مدينة طبرية فى أيدى المسلمين فى أول يوليو من عام ١١٨٧، فحشد الصليبيون قواتهم لاستعادة المدينة مرة ثانية. علم صلاح الدين بتحرك الجيش الصليبى، فتحرك بقواته حتى بلغ حطين، وبدأ الجيشان فى الاستعداد لمعركة فاصلة. أشعل المسلمون النار فى الأعشاب التى تحيط بموقع الصليبيين، وأثناء ذلك حرك صلاح الدين قواته تحت ستار الظلام وطوق الجيش الصليبى، ومع طلوع النهار الرابع من يوليو هاجمت القوات الإسلامية الجيش الصليبى الذى كان يعانى من شدة الحرارة ونقص المياه. قُتل الكثير من القوات الصليبية، وتم أسر عدد كبير من ملوك وأمراء ونبلاء الإمارات الصليبية فى الشرق. لقد تم فى معركة حطين تدمير أضخم جيش للمملكة الصليبية، وأصبح صلاح الدين زعيماً وقائداً للعالم الإسلامى. توجه صلاح الدين إلى عكا، ولما عرف حاكمها الصليبى ما حدث فى حطين عرض على صلاح الدين تسليم المدينة مقابل السلام فوافق صلاح الدين، ثم أرسل قواته لاستعادة المزيد من المدن التى استولى عليها الصليبيون، فنجحت القوات الإسلامية فى الاستيلاء على قيسارية وحيفا وصفورية ومعليا، وغيرها من البلاد الأخرى. وصلت القوات الإسلامية إلى نابلس فدخلتها وحاصرت قلعتها حتى تم سقوطها. أرسل صلاح الدين إلى أخيه العادل حاكم

مصر يطلب منه أن يسير بقواته إلى القلاع والحاميات الصليبية القريبة من مصر، فسار إلى حصن مجدل يابا وفتحته القوات الإسلامية. لم تستطع قوات صلاح الدين دخول مدينة صور لقوة تحصينها، فتركوها واتجهوا إلى صيدا واستولوا عليها بدون قتال، وبعد ذلك تم الاستيلاء على مدينة عسقلان، ثم تم فتح الرملة وغزة وبيت لحم وغيرها من البلاد المجاورة.

قرر صلاح الدين تحرير القدس، فأمر بخروج أسطوله المصرى بقيادة حسام الدين لؤلؤ الذى استطاع قطع الطريق على السفن الصليبية وتم أسر بعض منها. قبل أن يغادر صلاح الدين عسقلان متجها إلى بيت المقدس، وصل وفد صليبى من مدينة القدس بناء على طلب صلاح الدين للمفاوضة، ولكن رفض الوفد تسليم المدينة. وصلت القوات الإسلامية إلى القدس يقودها صلاح الدين فى العشرين من سبتمبر عام ١١٨٧. وجد صلاح الدين أن شمال القدس هو أنسب المواقع للهجوم، فنقل قواته على جبل الزيتون ونصبت المجانيق استعداداً للقتال. استمر الكر والفر من خيالة الطرفين لعدة أيام، ووصل الجنود المسلمون إلى خندق مدينة القدس ونقبوا سوره تحت ستار من ضربات المجانيق ورمى السهام والنبال. عندما تأكد للقادة الصليبيين أن المدينة على وشك السقوط، قرروا الاستسلام مقابل الأمان. رفض صلاح فى أول الأمر طلب الصليبيين، ولكن أرسل القائد الصليبى باليان رسالة إلى صلاح الدين يهدد فيها إن دخل صلاح الدين المدينة حربا فسوف يهدم الصليبيون المسجد الأقصى والمواقع الإسلامية الأخرى، ثم يحرقون المدينة ويقتلون أولادها ونساءها، ثم يذهبون للقتال قاتلين ومقتولين، فيخسر المسلمون جنودهم، ولا يغنمون من المدينة شيئا. بعد التشاور مع قواده، وافق صلاح الدين على استسلام الصليبيين وإعطائهم الأمان بشرط دفع الفدية. تسلم المسلمون المدينة المقدسة فى يوم الجمعة الموافق الثانى من أكتوبر من عام ١١٨٧، وكان هذا اليوم يوافق الاحتفال بمناسبة الإسراء والمعراج. بعد دخول القوات الإسلامية المدينة طلب صلاح الدين من رجال

الشرطة الطواف بشوارعها لمنع أى اعتداء على الفرنجة، ورفعت الأعلام والرايات الإسلامية على أسوار المدينة. أطلق صلاح الدين آلافاً من فقراء الأسرى الفرنجة الذين كانوا لا يملكون فديتهم، وفاقت رحمة صلاح الدين كل وصف حتى إن المؤرخين الأوربيين قد شهدوا بأن دخول المسلمين القدس كان يتسم بالإنسانية بعكس ما فعله الصليبيون عند دخول المدينة عام ١٠٩٩.

بعد أن انتهى صلاح الدين من تحرير القدس، وجه قواته إلى الحصون الأخرى فى الشمال والجنوب لفتحها. حاصرت القوات الإسلامية قلعة الكرك لمدة طويلة حتى اضطر أهلها إلى أكل دوابهم، واضطروا إلى الاستسلام. استولت قوات صلاح الدين أيضا على قلعة صفد، وقلعة هونين، ومدينة اللاذقية، وقلعة صهيون، وغيرها من المواقع الصليبية. تبقى فى أيدى الصليبيين القليل من المواقع والمدن مثل إنطاكية وميناء السويدية وطرابلس ومدينة صور. كانت صور الساحلية مدينة حصينة لجأ إليها الكثير من قادة الصليبيين وجنودهم. وصل صلاح إلى المدينة فأيقن صعوبة دخولها، فأحضر الماركيز مونتفرات من دمشق وكان من الأسرى، وهدد بإعدامه إذا لم تستسلم المدينة، ولكن الصليبيين رفضوا التهديد، ولم ينفذ صلاح الدين تهديده رأفة ورحمة بالماركيز، ثم رحل عن المدينة إلى مزيد من الفتوحات الأخرى.

انتهى فصل آخر من فصول رواية الحروب الصليبية، ليبدأ فصل جديد عن الحملة الصليبية الثالثة. بعد سقوط القدس فى أيدى المسلمين، استخدم الصليبيون أسلوب الدعاية والإثارة لطلب النجدة من ملوك وأمراء أوروبا، فبعثوا إليهم صورة لمدينة القدس يظهر فيها كنيسة القيامة وقبر السيد المسيح، وصوروا عليها فارس مسلم يطأ القبر بفرسه. نجحت دعاية صليبى الشرق فى إثارة مشاعر أوروبا المسيحية، فبدأت أوروبا تجهيز حملة صليبية جديدة، بقيادة الامبراطور الالمانى فردريك، والملك الفرنسى فيليب، والملك الإنجليزى

ريتشارد قلب الأسد.خرجت القوات الألمانية فى يونيو ١١٨٩ متجهة إلى الشام عبر نهر الدانوب ثم الامبراطورية البيزنطية ثم بلاد سلاجقة الروم. عانى الألمان من ضربات السلاجقة التى كانت تلاحق أطراف الجيش مما حث فردريك على سرعة السير نحو بلاد الشام. فى أثناء المسيرة غرق الامبراطور الألمانى فى نهر سالف فى أقليم أرمينية، فتولى ابنه فريدريك دوق سرابيا قيادة الجيش، حتى وصوله إلى إنطاكية فى شمال بلاد الشام فى يونيو ١١٩٠، فقدم أميرها بوهمند الترحيب والولاء. قبل وصول القوات الفرنسية والإنجليزية توافدت على سواحل الشام بعض الإمدادات من أوروبا. بدأ صلاح الدين فى جمع قواته وأرسل إلى الخليفة الموحدى يعقوب المنصور فى بلاد المغرب يستنصره على قتال الجيوش الصليبية الزاحفة على بلاد الشام، ولكن قوات وأساطيل الخليفة كانت مشغولة فى صراع آخر ضد المسيحيين فى إسبانيا والبرتغال، لذا لم يكن رده إيجابيا. أبحر ملك فرنسا فيليب فى نهاية شهر مارس من عام ١١٩٠، حتى وصل إلى مدينة صور حيث استقبله كونراد ثم صحبه إلى عكا. تعرض أسطول ريتشارد إلى متاعب فى طريقه البحرى نحو بلاد الشام خاصة أمام سواحل جزيرة قبرص، فحاصر ريتشارد مدينة ليماسول واستولى على الجزيرة. أقلع الأسطول الإنجليزى فى الخامس من يونيو وهبط ريتشارد فى ميناء مدينة صور ولكن حامية المدينة رفضت السماح له بدخول المدينة بناء على تعليمات الملك فيليب وكونراد، فأبحر إلى عكا حتى وصل إلى المعسكر الصليبى.

أدى وصول الأسطولين الإنجليزى والفرنسى إلى سيطرة الصليبيين على البحر الأبيض المتوسط، وتعذر على السفن الإسلامية توصيل الذخيرة والمؤنة إلى مدينة عكا الإسلامية التى أنهك قواها قتال الصليبيين. كانت الحرب سجالا، وقامت معارك كثيرة بين المسلمين والصليبيين. حرص صلاح الدين ألا تقع مدينة عكا فى أيدى الصليبيين فقد كانت تحتوى على جميع سلاح مدن الساحل

والقدس ودمشق وحلب، وبداخلها الكثير من القواد المسلمين. رأى صلاح الدين مهاجمة الصليبيين، ولكنه فشل فى كسر خطوطهم، فقد تدفق إلى أرض المعركة الكثير من القوات الصليبية عن طريق البر والبحر. حاول صلاح الدين القيام بهجوم شامل، ولكن العساكر الإسلامية لم تساعده وتخاذلوا وقالوا– كما ورد فى كتاب الحروب الصليبية – "تنحا بالإسلام كله ولا مصلحة فى ذلك". وفى شهر يوليو من عام ١١٩١ استسلم أهل عكا وتم تسليم المدينة إلى الصليبيين بما فيها من ذخيرة ومؤن بالإضافة إلى مائتى ألف دينار، وألف وستمائة أسير.

خرج المسلمون من عكا، ودخلها الصليبيون وعلى رأسهم كونراد، والملك ريتشارد، والملك فيليب، وليوبولد دوق النمسا. غادر فيليب عكا فى نهاية شهر يوليو متجها إلى صور ومنها أبحر وهو مريض عائداً إلى فرنسا، تاركا جزء كبير من جيشه فى بلاد الشام. عزم ريتشارد على التوجه إلى عسقلان للاستيلاء عليها، وخرج بقواته من عكا فى العشرين من أغسطس، وقامت المعارك فى شهر سبتمبر بالقرب من أرسوف. كان صلاح الدين يخشى من وقوع القدس فى أيدى الصليبيين فتوجه بجيشه إلى مدينة الرملة الواقعة على طريق القدس. عرف المسلمون أن الصليبيين قد يقيمون فى مدينة يافا للتذود بالرجال والعتاد، فطلب صلاح الدين من قواده المشورة، وتقرر تخريب عسقلان حتى لا يستولى عليها الصليبيون ويغنموا ما فيها من سلاح وعتاد. بعدما تم هدم المدينة، وصلت إلى صلاح الدين أخبار عن طلب الصليبيين للصلح. لقد أثر على قرار الصليبيين النزاع بين قادتهم، وخوف ريتشارد من استغلال الملك الفرنسى فيليب لغيابه للهجوم على البلاد الإنجليزية. بالرغم من ذلك لم يتوقف القتال من الجانبين، فقد كان ريتشارد يريد صلحا مع المسلمين، بينما كان كونراد يحاول الوصول إلى تسوية سلمية مع المسلمين بعيدا عن مسار ريتشارد.

كان ريتشارد مصمما على التوجه إلى القدس بالرغم من أنه كـاد أن يقـع أسيرا فى أيدى القوات الإسلامية أكثر من مرة. أقنع القادة الصليبيون المحليـون ريتشارد بالتخلى عن فكرة التوجه إلى القدس خوفا من وقوع القوات الـصليبية بين قوات المسلمين فى الشام بقيادة صلاح الدين، وبين القوات المصرية القادمة من مصر. كما أقنعوا الملك بأن القوات الصليبية فى بلاد الـشام قليلـة العـدد ولكنهم يستطيعون الاحتفاظ بالقدس – إذا وقعت فى أيديهم – بعد عودة القـوات القادمة من أوروبا. رحلت القوات الصليبية إلى عسقلان، آخذين فـى تحـصين المدينة. اضطر ريتشارد للذهاب إلى عكا لوضع حد للصراع القائم بـين القـادة الصليبيين، مجددا فكرة عقد هدنة مع صلاح الدين، خاصة بعد علمه بأن شـقيقه يعمل على اغتصاب السلطة فى إنجلترا. علم صلاح الدين بالخلاف الواقع بـين القادة الصليبيين، خاصة بعد مصرع كونراد فى أبريل ١١٩٢ علـى يـد أحـد جماعة الحشاشين، فقرر ترك القدس فى يوليو من نفس العام للتوجه إلـى يافـا للاستيلاء عليها، فسقطت يافا فى أيدى القوات الإسلامية عدا القلعـة الـصليبية التى كانت تحت سيطرة الصليبيين. عرف ريتشارد بهذه الأحـداث بينمـا كـان يخطط للتوجه إلى بيروت، فقرر التوجه إلى يافا، ودارت عدة معارك بين قوات صلاح الدين وقوات ريتشارد. سقط ريتشارد قلب الأسد مريضا بالحمى، فبـدأت مفاوضات السلم تحيا من جديد.

استمرت المرحلة الأخيرة من المفاوضات حوالى خمسة شهور. وفى الثانى من سبتمبر من عام ١١٩٢، كانت معاهدة الصلح المعروفة باسم صلح الرملة قد وضعت فى صورتها النهائية. تقضى المعاهدة بأن تكون الهدنـة لمـدة ثـلاث سنوات، ونصت على أن تكون يافا وقيـسارية وأرسـوف وحيفـا وعكـا مـع الصليبيين، وأن تكون اللد والرملة بين المسلمين والـصليبيين، وبـذلك يكـون الصليبيون قد احتفظوا بالبلاد الساحلية من صور حتى يافا. تضمن الاتفاق أيضا على تخريب مدينة عسقلان حتى لا ينتفع بها أحد الطرفين، وأن يكون للصليبيين

حرية الذهاب إلى بيت المقدس للحج، كما يكون للمسلمين الحق فى دخول البلاد التى اختصها الصليبيون. أنهى صلح الرملة أعمال الحملة الصليبية الثالثة، ورحل بعدها ريتشارد عائدا إلى بلاده حيث تم أسره فى النمسا قبل الوصول إلى إنجلترا، انتقاما لخلاف قد حدث بين القوات الانجليزية ودوق النمسا فى مدينة عكا بعد سقوطها فى أيدى الصليبيين، ولم يطلق سراحه إلا فى مارس ١١٩٤. أما صلاح الدين الأيوبى فقد توفى ٤ مارس ١١٩٣، وقسمت مملكته بين أولاده وأخوته.

بدأت فكرة الحملة الصليبية الرابعة عام ١١٩٩، عندما ظهر فى أوروبا بعض المتحمسين للحركة الصليبية على رأسهم فولك أسقف نيللى الذى كان يدعو إلى تجهيز حملة جديدة ضد المسلمين فى الشرق. وافق بابا الكاثوليك على فكرة الحملة، وانضم إلى تأييد الحملة عدد كبير من الأمراء الفرنسيين، على رأسهم ثيبوت الرابع كونت مقاطعة شمبانيا الفرنسية. استمر الاستعداد لهذه الحملة طوال عامى ١١٩٩/١٢٠٠، وتم اختيار ثيبوت ممول الحملة قائداً لها، كما تم الاتفاق على نقل قوات الحملة بحرا، وأن تكون وجهتها مصر، باعتبارها زعيمة العالم الإسلامى ومعقل الحكم الأيوبى. بعد وفاة ثيبوت فى عام ١٢٠١، لم يستطع خليفته تدبير التمويل اللازم للحملة. تدخلت المصالح الشخصية فى توجيه الحملة، وكان من نتيجتها أن تقاتل المسيحيون وأسقطوا مدينة زارا المسيحية بدلا من قتال المسلمين، فثار بابا الكاثوليك وأصدر قرار الحرمان على هذه الحملة. رفع البابا قرار الحرمان على أن تقوم الحملة بالاستيلاء على مصر، ولكنها انحرفت مرة ثانية واتجهت إلى القسطنطينية لمساعدة الكسيوس لاستعادة عرش بيزنطة مقابل مائتى ألف مارك. وافق قطاع من الحملة الصليبية – وهم البنادقة – على إبعاد الحملة عن مصر بعد أن منحهم الملك العادل الأيوبى امتيازات تجارية فى ميناء الأسكندرية، أصبح بموجبها جميع التجارة مع ممالك الهند فى أيديهم. تم الاتفاق فى يناير ١٢٠٣ على توجه الحملة لمهاجمة

الامبراطورية البيزنطية المسيحية لتأمين تجارة أوروبا، على أن تتجه الحملة بعد ذلك إلى مصر. فتر حماس الصليبيين لمحاربة المسلمين فاكتفت بالاستيلاء على القسطنطينية فى أبريل ١٢٠٤، وبارك البابا هذه الخطوة أملا فى توحيد الكنيستين الغربية / الكاثوليكية، والشرقية / الأرثوزكسية.

كان العامل الأساسى والمباشر للحملة الصليبية الخامسة هو توحيد الملك العادل للقوى الإسلامية فى مصر والشام، والقيام ببناء حصن الطور، مما أقنع الغرب الأوروبى بضرورة الاستيلاء على مصر لتأمين ممتلكاتهم الصليبية فى بلاد الشام واستعادة مدينة القدس التى استردها صلاح الدين. كان الملك العادل ذا طبيعة مسالمة، لم يبدأ بالهجوم على الإمارات الصليبية، ولكن قام بخير وجه للدفاع عن الممتلكات الإسلامية، لذا عندما قام ببناء حصن الطور بالقرب من عكا، اعتبرت الإمارات الصليبية أن فى ذلك تهديدا للوجود الصليبى فى الشرق. تمثلت الأسباب غير المباشرة فى تطلع البابا إلى فرض سلطانه على جميع الممالك المسيحية فى أوروبا بعد أن تمكن من السيطرة على ملكى إنجلترا وفرنسا، وتأييده للامبراطور فردريك الثانى لتولى عرش ألمانيا. تشجع البابا فى الدعوة إلى الحملة الصليبية الخامسة خاصة بعد انتصار المسيحيين على المسلمين فى إسبانيا فى موقعة العقاب عام ١٢١٢. رحب أهل المدن الأوروبية الساحلية بالدعوة إلى الحملة لما يعود عليهم من منافع تجارية، وطمعا فى الاستيلاء على المدن الساحلية المصرية مثل دمياط والإسكندرية، وذلك تدعيما لوجودهم على الساحة التجارية بين أوروبا ودول شرق آسيا. فى عام ١٢١٣ دعا البابا انوسنت لانعقاد مجلس اللاتيران الكنسى فى نوفمبر ١٢١٥، وكتب إلى الملك العادل قبل انعقاد المجلس يطالبه بتسليم أورشليم. حضر المجلس كبار رجال الدين من الشرق والغرب، كما حضر مندوبون عن ملوك أوروبا. ألقى البابا فى الجمع خطاباً عبر فيه عن انتهاك المسلمين لحرمات كنيسة القيامة فى أورشليم، وطالب بالقيام بعمل مقدس لتحرير أورشليم من أيدى المسلمين. بعد

المشاورات، قرر المجلس غزو مصر مع تفويض البابا فى وضع الخطة اللازمة لتنفيذ القرار. بدأ البابا بنفسه فى تمويل الحملة ، فتبـــرع بثلاثـــين ألـــف جنيـــه بالإضافة إلى ثلاثة آلاف مارك من الفضة ، وطلب من الكرادلـــة أن يتبرعـــوا بعشر دخلهم ، كما طلب من باقى الطوائف الدينية أن يقتطعوا جزءا من دخلهـــم فى سبيل تمويل الحملة. وعد البابا أن يُنول كل من ينفذ تعليماته بنـــصيب مـــن الغفران لدخول الجنة. استغل رجال الدين سذاجة عامـــة النـــاس فـــى اروربـــا وروجوا لظهور السيد المسيح مصلوبا على خشبة الصليب ثلاثة مرات فى ثلاث مناطق متفرقة بمقاطعة كولونيا بألمانيا، مما شـــحذ حماســـة الـــشعب الأوربـــى للانضمام إلى الحملة.

نظراً للصراعات العديدة القائمة بين ملـــوك ونـــبلاء أوروبـــا، واعتـــذار الامبراطور الألمانى لقيادة الحملة، فقد استقر الأمر على قيام الملك أندريه الثانى ملك هنجاريا بقيادة الحملة الصليبية الخامسة والتى تحدد لها أول يونيـــو ١٢١٧ موعدا لقيامها، وهو نفس موعد انتهاء الهدنة مع المسلمين. قام الملـــك اندريـــه باعداد السفن اللازمة لنقل الجنود من مراكز تجمعها على خليج مسينا بإيطاليـــا إلى الأراضى المقدسة. بعد كثير مـــن الـــصعوبات، وتخلـــف بعـــض القـــوات الصليبية، وصل جزء من الحملة بقيادة ليوبولد دوق النمسا إلى عكا فى بـــدايات شهر سبتمبر من نفس العام، مواجهين مشكلة نقص المواد الغذائية، ومنتظـــرين وصول الملك أندريه وملك قبرص هيو اللذين تأخرا عن الوصول بـــسبب قلـــة الإمكانيات المالية. كانت خطة الصليبيين مهاجمة مدينة نابلس للتمويه على هدف الحملة الرئيسى وهو غزو مصر، وفى نفس الوقت تقوم القوات الرئيسية للحملة بمهاجمة مدينة دمياط. استبعدت هذه الخطة لعدم توافر سفن نقل الجنود، واقترح مهاجمة مدينة أورشليم، ولكن مجلس الحرب الصليبى رأى تأجيل هذا الاقتـــراح لعدم توافر الماء الكافى لقوات الحملة عند مهاجمة المدينة.أخيراً قـــرر مجلـــس الحرب مهاجمة مدينة دمشق، فخرج لهم الملك العادل على رأس جيش المسلمين

فوصل إلى الرملة ومنها إلى اللد. عندما علم الصليبيون بقدوم الجيش المصرى غيروا اتجاه سيرهم لملاقاة جيش الملك العادل، وبذلك سار الجيشان نحو مدينة بيسان. عندما رأى الملك العادل الجيش الصليبى، وجد أنه من الأفضل عدم الاشتباك مع الصليبيين لكثرتهم العددية وقلة عساكره، فدخل الصليبيون مدينتى بيسان وبنياس، ثم عادوا إلى عكا محملين بالغنائم والأسرى، تاركين خلفهم الكثير من القتلى والجرحى المسلمين. بعد فترة راحة قصيرة اتجهت القوات الصليبية إلى مدينة صيدا فأغاروا عليها ونهبوها، ثم نزلوا إلى الشقيف واستولوا عليها، ثم عادوا مرة ثانية إلى عكا.

انزعج السلطان العادل من غارات الصليبيين، وبدأ يستعد لمنازلتهم خاصة بعد وصول الإمدادات، فقام بتجهيز ابنه المعظم بطائفة من الجند وأرسله إلى نابلس لكى يمنع الصليبيين من الوصول إلى مدينة القدس. رأى بعض القادة الصليبيين تسيير حملة إلى حصن الطور التى وصلته فى٢٠ نوفمبر ١٢١٧، وحاولوا أخذ المسلمين بغتة، ولكن المسلمين استبسلوا فى الدفاع عن حصنهم وقرروا الدفاع عنه حتى الموت. فشلت القوات الصليبية فى حملة حصن الطور فعادوا أدراجهم، مصممين على القيام بحملة أخرى تغطى على فشلهم فى الاستيلاء على حصن الطور. توجهت الحملة إلى الميادنة التى تركها أهلها وانتظروا قدوم الصليبيين إلى جبل صيدا، ثم هجموا عليهم من أعلى الجبال وأنزلوا فيهم القتل. لم يقم الصليبيون بعد ذلك بأى عمل عسكرى ضد المسلمين، وكمنوا حتى وصول الحملة الصليبية إلى دمياط.

فوجئ السلطان العادل بوصول قوات صليبية كبيرة من عكا بحرا بقيادة الملك الصليبى جون برين، ونزول هذه القوات عند قرية بورة، ثم زحفها على شاطئ البحر حتى الشمال الغربى قبالة دمياط القديمة. استولت القوات الصليبية على برج دمياط، بينما كان السلطان العادل يقوم بتجهيز جيشه فى بلاد الشام،

وقيام الكامل محمد بقيادة القوات المصرية فمر على فارسكور فى يونيو ١٢١٨، وعسكر بجنوده عند بلدة العادلية على فرع دمياط. فى نهاية أغسطس من نفس العام توفى السلطان العادل كمدا، وخلفه ابنه الكامل محمد فى مصر، وابنه الثانى المعظم عيسى فى بلاد الشام. تقابل الجيشان – المصرى والصليبى – بالقرب من دمياط القديمة، وتقاتلا دون حسم قاطع. فى أوائل فبراير ١٢١٩ اضطر السلطان الكامل إلى الرحيل للقضاء على مؤامرة كانت تحاك ضده، فانتهز الصليبيون هذه الفرصة وقاموا بعبور النيل واحتلال العادلية بما فيها من سلاح ومؤن.

بعد أن تشاور السلطان الكامل مع أخيه، فجر مفاجأة السلام الدائم بين المسلمين والصليبيين، ففى شهر سبتمبر ١٢١٩ عرض السلطان على الصليبيين تسليم مدينة القدس، وصليب الصلبوت الذى استولى عليه صلاح الدين عند فتح المدينة المقدسة، وبعض البلاد المجاورة للقدس والتى استردها صلاح الدين، وذلك فى مقابل مغادرة القوات الصليبية الأراضى المصرية، ولكن رفض الصليبيون هذه العروض، وعقب على ذلك الدكتور محمود عمران فى كتابه السابق ذكره: (غير أن الصليبيين لم يقبلوا هذه العروض السخية، ولو كان غرضهم دينيا فقط لما ترددوا فى قبولها، بعد أن وضح لهم أن السلطان الكامل ينزل لهم عن مدينة بيت المقدس وغيرها من المدن المتعلقة بأصول الديانة المسيحية، وهى المدن التى قامت الحروب الصليبية من أجلها، على حد قول أهلها. أما السبب الذى دعا إلى رفض عروض السلطان الكامل، فهو أن المندوب البابوى بلاجيوس رأى أن مفاوضة المسلمين لا تكون إلا بعد هزيمتهم، لإملاء شروط خضوعهم، وأن مهادنتهم لا تكون إلا بعد دفع مبلغ كبير من المال بمثابة فدية يتسلمها الصليبيون قبل أن يرحلوا عن دمياط. وهناك سبب آخر بعيد كل البعد عن الأغراض الصليبية الدينية وهو أن المدن الإيطالية التى اشتركت فى هذه الحملة الصليبية، بجنودها وأموالها وأطماعها، عز عليها أن تقبل

شروطا معناها عدم البقاء فى دمياط، وهى الثغر التجارى الهام الذى تستطيع المصالح الإيطالية بخاصة، والأوربية بعامة، أن تنفذ منه إلى جوف البلاد المصرية).

اشتد حصار الصليبيين حول دمياط، وصمد أهلها بالرغم من انتشار الأمراض، وغلاء الأسعار بالرغم من إرسال السلطان الكامل قوارب تموينية لمساعدة السكان والجند. بعد حصار دام لعدة شهور دخل الصليبيون دمياط فى نوفمبر ١٢١٩ ، فرحل السلطان الكامل بجيشه عن فارسكور جنوبا. لم يقم الصليبيون بأى عمليات حربية أخرى حتى منتصف ١٢٢١. كان السلطان الكامل فى هذه الفترة ينتظر وصول الإمدادات من البلاد الإسلامية الأخرى، ولكن وصلت أيضا حملة صليبية إضافية بقيادة لويس دوق بافاريا، كما عاد الملك جون برين إلى دمياط بعد أن تركها فى فبراير ١٢٢٠ عائدا إلى عكا. زحف الصليبيون جنوبا نحو فارسكور واستولوا عليها فى منتصف يوليو من عام ١٢٢١، كما زحف السلطان الكامل بدوره شمالا. لم يكن الصليبيون على دراية بأحوال النيل الموسمية، فقد حل الفيضان فى شهر أغسطس، وأصبح من المتعذر على الصليبيين أن يعبروا بحرا أشموم، بينما قطعت القوات المصرية عليهم خط الرجعة إلى دمياط، وقامت السفن المصرية باعتراض السفن الصليبية واستولت على بعض منها بمؤنتها وعتادها، وتم أسر معظم جنودها. قام السلطان الكامل بقطع جسر النيل شمالى طلخا، وكذلك الجسر الفاصل بين النيل وبحر المحلة، ففاض النهر وغمر الأراضى الواقعة شمال مواقع الصليبيين، فأصبحت المياه الغامرة حائلا بين القوات الصليبية ومدينة دمياط. فى وضع يأس وخيبة أمل طلب الصليبيون الأمان من السلطان الكامل والعودة إلى دمياط للجلاء عن الأراضى المصرية دون قيد أو شرط. فى الثامن من سبتمبر من عام ١٢٢١ تم جلاء القوات الصليبية من دمياط ودخلتها القوات المصرية، وبذلك انتهت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل والمهانة، واحتفال عظيم للشعب المصرى.

بينما كان الصراع دائرا بين أولاد السلطان العادل، خاصة بين الكامل والمعظم، كان الصليبيون يعدون العدة لحملة صليبية سادسة. تعهد الامبراطور فردريك بتسيير حملة صليبية أخرى، ولكنه تأخر فى تجهيزها، ولم يقتنع البابا بما قدمه فردريك من أسباب واعتقد أن فردريك يماطل فى إعداد هذه الحملة فأصدر قراراً بحرمانه من رحمة الكنيسة. وصل فردريك إلى عكا فى شهر سبتمبر ١٢٢٨ محاولا تجهيز جيشا لمواجهة القوات الإسلامية، بالرغم من تخلى القيادات الصليبية عنه خوفا من غضب البابا إذا ساندوه بعد حرمانه من رحمة الكنيسة. تخلى فردريك عن فكرة المواجهة العسكرية ولجأ إلى الطرق الدبلوماسية. فى هذه الأثناء كان الملك الكامل يحاصر الملك الناصر فى دمشق، وظن أن الملك الناصر قد يطلب مساعدة الامبراطور فردريك، أو أن الامبراطور قد يستغل الفرصة ويوجه ضرباته إلى الممتلكات الإسلامية، فوجد الكامل أن الحلول الدبلوماسية هى أسلم الطرق، فتلاقت وجهتا نظر الكامل وفردريك فى الحل السلمى.

قام الامبراطور فردريك بالاستيلاء على صيدا التى كانت مناصفة بين المسلمين والصليبيين، من أجل حث الملك الكامل على قبول الصلح. لم يرد الكامل على فقد صيدا، حيث كانت قواته تحاصر دمشق التى كان يحكمها ابن أخيه الملك الناصر. بعد أن قطع الكامل المفاوضات مع فردريك عادت المفاوضات مرة ثانية حتى انتهت فى شهر فبراير من عام ١٢٢٩ بعقد هدنة بين الطرفين، والتوقيع على معاهدة صلح تضمنت البنود التالية:

- تسليم مدينة القدس إلى الامبراطور فردريك، الذى عليه أن يعيد بناء أسوارها.
- إطلاق سراح الأسرى من كلا الجانبين.
- أن يكون الحرم الشريف والصخرة المقدسة والمسجد الأقصى بأيدى المسلمين.

- أن تظل جميع قرى المسلمين تحت سيطرتهم.
- تحصل مملكة أورشليم الصليبية على المدينة وبيت لحم، وشريطاً من الأرض يخترق مدينة اللد وينتهى عند يافا، بالإضافة إلى الناصرة وغرب الخليل.
- لا تسرى المعاهدة على إمارتى انطاكية وطرابلس الواقعتين تحت الحكم الصليبى.

أنكر العالم الإسلامى على الملك الكامل تسليم القدس الشريف، وفى نفس الوقت انتقد الجانب الصليبى الشرقى، والمسيحى الأوروبى المعاهدة لأن الامبراطور لم يسترد القدس بقوة السلاح. ظلت العلاقات الودية مستمرة بين الملك الكامل والامبراطور فردريك حتى وفاته فى عام ١٢٣٨. تولى بعد ذلك ابنه الملك العادل الثانى، وبعد ذلك تولى المُلك أخوه الصالح أيوب عام ١٢٣٩، الذى داوم على العلاقة الطيبة مع الإمبراطور فردريك الذى حذره من قيام ملك فرنسا لويس السابع بتجهيز حملة صليبية جديدة. ظلت الهدنة قائمة بين المسلمين والصليبيين حتى عام ١٢٣٩ حيث قدمت حملة صليبية أخرى إلى بلاد الشام فى أول سبتمبر من نفس العام بعد أن دعا إليها البابا جريجورى التاسع، واستجاب لها بعض الفرسان الفرنسيين. عندما علم الناصر داود فى الأردن بوصول صليبى أوروبا، طرد الصليبيين القائمين فى القدس، ولكن استطاعت الحملة الصليبية استردادها مرة أخرى. بعد رحيل الحملة الفرنسية، وصلت حملة صليبية أخرى فى أكتوبر ١٢٤٠ عرفت باسم الحملة الإنجليزية، وعلى رأسها أخو ملك إنجلترا هنرى الثالث. نجحت الحملة الإنجليزية فى تأكيد استيطان الصليبيين فى القدس. بعد رحيل الحملة الإنجليزية بوقت قصير تمكن الصالح نجم الدين أيوب فى عام ١٢٤٤ من استعادة مدينة القدس التى لم يعد إليها الصليبيون بعد ذلك، ولكنها كانت سببا لقيام لويس التاسع بحملة صليبية جديدة إلى مصر.

عندما قضى الأمر، واسترد المسلمون مدينة القدس، وضعفت شوكة الصليبيين فى بلاد الشام، عز على الأوربيين هذا الهوان وقرروا الثأر والانتقام. كان الملك الفرنسى لويس التاسع على شفا الموت جراء مرض عضال ألم به، ولما تماثل للشفاء، نذر وكرس جهوده للقيام بحملة صليبية جديدة لاسترداد القدس، كشكر وعرفان للرب الذى عفاه من مرضه. دعا البابا أنوسنت الرابع إلى مجلس كنسى فى مدينة ليون بفرنسا فى عام ١٢٤٥، وصدر عن المؤتمر عدة قرارات تحث على الاشتراك فى الحملة بوعد كل من يحمل الصليب ويتجه إلى المدينة المقدسة أورشليم له الغفران التام عن جميع خطاياه وذنوبه. بعد انتهاء أعمال المؤتمر أرسل البابا مندوبيه إلى جميع أنحاء أوروبا للدعوة إلى الحملة الصليبية السابعة.

قام لويس بتجهيز أسطول كبير لنقل الجنود والعتاد والمؤن، بعد استبعاد الطريق البحرى الملىء بالمخاطر واحتمالية المناوشات الحربية. غادرت الحملة على رأسها الملك لويس مدينة باريس إلى ليون حيث حصل على البركة من البابا، ثم اتجه إلى جنوب فرنسا فى يونيو ١٢٤٨. أبحرت الحملة إلى جزيرة قبرص حيث ظلت بها حوالى ثمانية أشهر، عرفت خلالها القيادة المصرية بأمر الهجوم الوشيك على مصر، فاستعدت بتحصين مدينة دمياط بالسلاح والمؤن والمقاتلين. أسرع الصالح بالعودة إلى مصر بعد عقد صلح مع والى حمص، وأصدر أوامره بإعداد الأسطول المصرى وإرساله إلى دمياط، كما أمر قائد جيشه بالتقدم إلى البر الغربى لدمياط حتى يكون فى مواجهة القوات الصليبية التى وصلت فى الرابع من شهر يونيو عام ١٢٤٩. بعد تراشق بالرماح والنبال استولى الصليبيون على مدينة دمياط فى السادس من شهر يونيو. عندما علم سلطان مصر بفرار جنوده وتخليهم عن الدفاع عن المدينة، أمر بشنق خمسين من كبارهم، ثم أمر قواته بالتراجع إلى مدينة المنصورة الحصينة. توقفت الأعمال الحربية من الطرفين لمدة تقرب من خمسة شهور ونصف، تفسخت فيها

القوات الصليبية نتيجة إنغماسها فى الملذات، ونجحت فيها القوات المصرية فى تنظيم صفوفها.

توفى السلطان الصالح أيوب فى عام ١٢٤٩، ورأت زوجته شجرة الدر – التى كانت تنتمى إلى أصل أرمنى أو تركى – خطورة إذاعة النبأ فقررت إخفاء خبر وفاته إلا للخاصة، وزورت وثيقة تحمل توقيع السلطان بتعيين ابنه توران شاه قائداً عاماً للجيوش ونائبا للسلطان أثناء مرضه. فى أثناء هذه الأحداث كان الصليبيون يتحركون جنوباً نحو القاهرة، فوصلوا مدينة فارسكور فى شهر ديسمبر من نفس العام، ومنها تقدموا إلى البرامون وعسكروا على الضفة الشمالية لبحر أشموم، ثم شرعوا فى بناء جسر للعبور إلى الضفة الجنوبية. لم يتمكن الصليبيون من إقامة الجسر بعدما أمطرهم المسلمون بوابل من السهام، وأخيرا نجح الصليبيون – بعد رشوة أحد العربان بالمال – فى العبور ناحية المعسكر الإسلامى فى الثامن من شهر فبراير ١٢٥٠. التحم الأمير فخر الدين مع القوات الصليبية فى معركة عنيفة قتل على أثرها، فاندفع الكونت أرتو أخو الملك لويس، إلى داخل المدينة، وتصدت له القوات المصرية بقيادة ركن الدين بيبرس البندقدارى، وانتهت المعركة بانتصار القوات المصرية وقتل الكونت أرتو. فى نفس الحين استطاع الملك لويس الاستيلاء على معسكر القوات المصرية خارج مدينة المنصورة. قامت معركة أخرى طاحنة فى الحادى عشر من فبراير، انتصرت فيها القوات المصرية، وأنزلت القتل فى القوات الصليبية التى تفشى فيها الوباء بعد عدة أيام من المعارك.

بعد ما استبان النصر الذى أحرزته القوات المصرية، أُعلن وفاة الصالح أيوب ، وتولى توران شاه ملك مصر . التف الجيش المصرى حول السلطان الجديد الذى بدأ فى إعداد قواته لجولة جديدة نجحت فيها القوات المصرية فى الاستيلاء على السفن الصليبية التى كانت تمر فى بحر أشموم، ودارت معارك

عنيفة فى البر والبحر حول مدينة المنصورة. بعد أن حلت الهزيمة بالقوات الصليبية، اتجه الملك لويس إلى باب المفاوضات وعرض تسليم مدينة دمياط والأراضى التى استولى عليها نظير تنازل مصر عن بيت المقدس وبعض المدن الساحلية فى بلاد الشام. رفض توران شاه عرض لويس بعد ما تبين قوة جيشه الذى هزم قوات الحملة الصليبية. أمر لويس قواته بالانسحاب إلى دمياط، ولكن القوات المملوكية المصرية تعقبتهم بقيادة بيبرس، وأنزلت بالصليبيين خسائر فادحة. كان صلاح الدين الأيوبى قد اضطر إلى شراء اثنى عشر ألف مملوك من الجراكسة والأتراك لكى يتمكن من مواصلة حروبه ضد الصليبيين. درب صلاح الدين هؤلاء المماليك على جميع الفنون الحربية، حتى أصبحوا جندا شديدى البأس، أقوياء البطش، اشتدوا على مر الأيام حتى دانت مصر لهم وتمكنوا من حكمها.

كان من الآثار السيئة لدخول نظام المماليك على المجتمع العربى الاعتماد عليهم فى القتال، فأدى ذلك إلى السلبية فى الجهاد. كتب سيد الكيلانى فى كتاب "الحروب الصليبية" (ومن المسلمين من كان يستبدل جهاد الأعداء بكثرة الصلاة والصيام ودوام الذكر والتسبيح، معتقدين أن هذا يقربهم من الله زلفى ويغنيهم عن متاعب الكفاح ومشاق القتال. وليطمئنوا على أنفسهم ويضمنوا سلامة ذواتهم من أضرار الحرب... ومن هؤلاء الذين تخلفوا عن فريضة الجهاد وفضلوا أن يكونوا مع القاعدين أحمد البدوى، وقد شرع يجمع حوله الأنصار والأتباع وينفث فيهم تعاليم غريبة عن الإسلام... وكان أحمد البدوى فى مصر يدعو إلى هذا النوع من العيش. قيل إنه كان يلبس الملابس فلا يخلعها حتى تبلى. وقد أضرت الدعوة إلى الزهد والإعراض عن الدنيا بالشعوب الإسلامية ضرراً بليغاً، وأنزلتها دار الذل والهوان، وكستها لباس الجوع والعدم والخوف، ونشرت بين المسلمين داء الكسل والتعطل، فلا عجب أن أضحت الشعوب الإسلامية لا تعرف سوى المسابح واللحى والعمائم، والرقص فى حلقات الأذكار). ما أقرب

أمس باليوم، فالطبيعة البشرية غالبة، والجينات تتوارثها الأجيال، فما زالت شعوبنا تزيد وتكثر فى الدعاء والابتهالات، تاركة شعوب الحضارة الغربية تعمل وتزيد فى الاختراعات والابتكارات.

نعود مرة ثانية للصراع القائم بين الصليبيين والمماليك، فقد استسلمت القوات الصليبية للمماليك، ووقع الملك لويس فى الأسر ومعه أخويه الكونت شارل والكونت الفونس، وأودعوا دار القاضى فخر الدين بن لقمان فى مدينة المنصورة. افتدى الملك لويس نفسه بالمال ودفع فدية الأسرى الصليبيين الآخرين، وتم توقيع الهدنة بين الطرفين، وأخيرا رحلت الحملة الصليبية السابعة عن الأراضى المصرية فى الثامن من شهر مايو من عام ١٢٥٠.

اتجه الملك لويس إلى عكا بعد مغادرته دمياط، تاركا الكثير من الأسرى الصليبيين الذين لم يتمكنوا من دفع الفدية. جاءت الأخبار إلى لويس بأن ملك إنجلترا هنرى الثالث يستعد لغزو فرنسا، وأن العديد من فرسانه يرغبون فى العودة إلى ديارهم، ولكنه آثر البقاء فى عكا لمؤازرة المملكة الصليبية. فى هذه الأثناء كان الصراع يحتد فى الجانب الإسلامى، فقد ظهر الصراع بين الأيوبيين فى دمشق، والمماليك فى القاهرة، والتمس كل من الطرفين مساعدة الملك لويس الذى تحاشى مناصرة أى منهما. قام الناصر يوسف أمير حلب بتجهيز قواته للهجوم على مصر، ولكن المماليك خرجوا إليه والتقى الجيشان عند العباسية، وتمكن الناصر يوسف من الانتصار، ولكن المماليك شنوا بعد ذلك حملة مضادة بقيادة عز الدين أيبك وهزمت القوات الأيوبية. كان عز الدين أيبك قد تزوج من شجرة الدر وأصبح سلطانا على مصر، معلنا انتهاء الحكم الأيوبى مستهلا حكم المماليك. طلب الناصر يوسف مناصرة الصليبيين، فى مقابل التنازل عن مدينة القدس. استغل لويس هذه الفرصة وأخبر المماليك بطلب الناصر يوسف، وعرض عليهم فك أسرى الصليبيين، فوافق عز الدين أيبك مقابل عقد تحالف

عسكرى ضد الناصر يوسف. وبذلك انتصرت المصالح الشخصية على العقيدة من كلا الطرفين بعد أن وظفت لأكثر من قرن ونصف من الزمان.

لاح الخطر المغولى فى الأفق، واستيقظ ضمير القادة المسلمين، وتوسط الخليفة العباسى المستعصم ببغداد فى الصلح بين القاهرة ودمشق. بعد هذا الصلح، استعد الناصر يوسف فى العودة إلى دمشق بعد أن توجه إلى مدينة غزة لقطع الاتصال البرى بين المماليك والصليبيين. فى أثناء الفترة السابقة استغل لويس الخلاف بين القادة المسلمين فهاجمت قواته مدينة صيدا ونهبوها وأسروا الكثير من أهلها. بعد أن تم الوفاق بين الأطراف المتصارعة من المسلمين، بحث لويس عن حليف آخر، فلم يجد إلا طائفة الحشيشية للاتفاق معها على إسقاط الجزية التى كانت تدفعها مقابل الالتزام بالحياد. نجح لويس قبل رحيله من بلاد الشام فى عقد هدنة مع دمشق فى عام ١٢٥٤، وهدنة أخرى مع القاهرة لمدة عشر سنوات فى عام ١٢٥٥.

ما زال يحيط بالتاريخ المبكر للمغول الغموض، بل إن معنى اسم المغول ما زال موضع خلاف على الرغم من زعم بعض المؤرخين أنه مشتق من كلمة "مونج" Mong الصينية بمعنى باسل وشجاع. لم يكن للمغول إلا تأثير ضئيل حتى القرن الثانى عشر فى روايات عن قبائل مختلفة تعيش على الصيد والرعى فى شمال الصين. وعلى الرغم من أن المغول اتخذوا اسم التتار، إلا أن ذلك يرجع فى أغلب الظن إلى ما كان للتتار من شهرة سابقة على ظهور المغول، فقد كان التتار معروفين فى التاريخ منذ القرن السادس، كمصدر تهديد لمملكة الصين الشمالية. يعود جذور التتار إلى الشعوب التركية التى تجمع فى أسرتها الشاملة الأتراك والأذربيجان، والكازاخ والقرغيز والأيغور والتركمان وتتار القرم وتتار نهر الفولجا وغيرهم.

كان المغول لا يؤمنون بدين، ولكن يعبدون الشمس عند شروقها، ولا يعرفون حلالا أو حراما، فأكلوا لحوم جميع الحيوانات، كما كانوا يتسمون بالشجاعة والفروسية وشدة الاحتمال، علاوة على طبيعتهم التي كانت تسود عليها الغطرسة والعناد والكبرياء، والقذارة. ظهر اسم تيموجين كزعيم قبيلة فى نهايات القرن الثانى عشر، ثم أصبح بعد ذلك خانا على المغول. فى عام ١٢٠٦ أضحى تيموجين من القوة والمكانة، ما جعله يعقد مجلس النبلاء عند منابع نهر أونون، فهتف به الحاضرون " جنكيز خان " أى امبراطور العالم. جمع جنكيز خان جميع القبائل المغولية تحت لوائه، واجتاحت جموعهم الصين وآسيا الصغرى، والإمبراطورية الخوارزمية، ودولة السلاجقة ونفذوا إلى أوروبا الشرقية وروسيا وبولندا والمجر. وجرى مؤشر الزمن وتولى عرش المغول مونكو الذى أرسل أخاه الأصغر هولاكو ليرأس حكومة بلاد فارس. قامت حكومة ايلخانات فارس عند قدوم هولاكو فى عام ١٢٥٦ لتوطيد سلطان المغول وللقضاء على قوة جماعة الإسماعيلية الشيعية، وكذلك القضاء على الخلافة العباسية فى بغداد. قام هولاكو بالتحالف مع المسيحيين فى جورجيا وأرمينيا الصغرى، والإمارات الصليبية فى الشرق الأوسط للقضاء على القوات الإسلامية ودخول بلادها فاتحا. حدث أن انقسمت إمبراطورية المغول بعد وفاة الإمبراطور مونكو إلى ثلاثة أقسام / خانات، مستقلة بين أفراد أسرة جنكيز خان، فإختص هولاكو بخانية فارس، وأصبحت الصين من نصيب قوبيلاى، أما خانية التاى وغرب منغوليا فصارت إلى قيدو حفيد أوكتاى، واختص بيت جغتاى بتركستان، بينما كانت مغول جنوب روسيا أو القبجاق من نصيب بركة. اتخذ ملك المغول بالصين قوبيلاى لقب الخان الأعظم غير أنه لم يعترف له بالسيادة إلا أخوه هولاكو بينما ناصبه العداء باقى الخانات. من جهة أخرى كان هولاكو نصيراً للمسيحية بتأثير زوجته طقر خاتون النسطورية، بينما كان بركة ومغول جنوب روسيا يعتنقون الدين الإسلامى لذا كانوا يميلون إلى التحالف مع

بيبرس ضد قوات هولاكو. وأخيرا، كان على أثر غزوات المغـول علـى دول الشرق الأدنى والشرق الأوسط، قيام الدولة العثمانية، وما تلى ذلك من ظهـور النهضة الأوربية، بسبب هجرة العلماء اليونانيين إلى إيطاليا وغـرب أوروبـا، عقب سقوط القسطنطينية – عاصمة الإمبراطوريـة البيزنطيـة – فـى أيـدى العثمانيين عام١٤٥٣.

شق المغول بقيادة هولاكو طريقهم إلى بغداد ووصلوا إليها فى بداية عـام ١٢٥٨، وأحكموا حصارها واشتد الهجوم عليها حتى سقوطها فى العاشـر مـن فبراير، واستسلم الخليفة العباسى المستعصم، وكبار رجال الدولة وقادة الجيوش، فتم قتلهم جميعا، واستباح المغول ممتلكات، وأرواح المسلمين من أطفال ونـساء حتى قيل إن عدد القتلى قد تجاوز الثمانين ألفا. عين هولاكو الـوزير العباسـى مؤيد الدين واليا على بغداد مكافأة له على ولائه للمغول، ثم بدأوا فى الاسـتعداد لغزو بلاد الشام. تقدمت القوات المغولية، آخذة فى القتل والسلب كل ما يعترض طريقها حتى وصلت إلى حلب وحاصرتها بعد رفض قائد حاميتها التـسليم، ثـم اقتحمتها فى يناير ١٢٦٠ بعد أن استبسلت المدينة فى الدفاع لمدة ستة أيام. بعـد الانتهاء من حلب زحف المغول نحو دمشق، فاستعد السلطان الناصـر يوسـف للفرار والالتجاء إلى مصر، ولكن أشار عليه الـبعض بالتوجـه إلـى هولاكـو لاستعطافه، ولكن تمكن منه القائد المغولى كتبغا وقبض عليه، وظل فى الأسـر حتى قتله المغول بعد موقعة عين جالوت. وفد إلى هولاكو رسـل مـن حمـاة ودمشق لتسليم مفاتيح المدينتين، فسار الجيش المغولى بقيادة كتبغا ودخل دمـشق فى مارس ١٢٦٠. اعتنق كتبغا الديانة المسيحية، فأرتفعت معنويات الـصليبيين، أملا فى الحصول على الدعم المغولى.

أرسل هولاكو رسله إلى مصر آمرا السلطان المملوكى قطز بتقديم فروض الطاعة والخضوع. رفض قطز تهديد هولاكو وأمر بقتل الرسل، وبدأ الاستعداد

لملاقاة المغول فى بلاد الشام. نشبت حرب أهلية فى منغوليا – مسقط رأس المغول – فاضطر هولاكو إلى ارسال جزء من قواته إلى منغوليا لإخماد الثورة. تقدم الجيش المملوكى بقيادة الظاهر بيبرس إلى غزة، حيث كان يوجد جيش صغير للمغول، تمكنت القوات المملوكية من هزيمته. فى نفس الوقت كان قطز يسير بجزء من جيشه نحو بلاد الشام، حيث قامت ثورة فى دمشق ضد المغول عندما انتشر خبر انتصار المماليك. علم القائد المغولى كتبغا فى بعلبك بانتصار المسلمين فقاد جيشاً لملاقاة بيبرس. كانت خطة المماليك تقوم على مهاجمة المغول من الشمال، مما يقتضى الأمر عبور الأراضى التى يحتلها الصليبيون، فأرسلوا إلى عكا رسلاً تطلب السماح للجيش المملوكى بالعبور مع إمداده بالمؤن والمساعدات الحربية. لما كان الصليبيون لا يثقون فى المغول بسجلهم الحافل بالهمجية والمذابح، وبعد أن تعايشوا مع حضارة المسلمين، استقر رأيهم على قبول طلب المماليك. تحركت القوات المغولية بقيادة كتبغا وعبرت نهر الأردن دون أن تتبين خطة المماليك، كما تحركت القوات المملوكية نحو عين جالوت.

بدأت ساعة الزمان فى التحرك للوصول إلى واحدة من أعظم معارك المسلمين / المماليك، ففى الثالث من سبتمبر من عام ١٢٦٠ قام قطز بإخفاء الجيش الرئيسيى فى التلال، ولم يظهر للمغول سوى المقدمة التى يقودها بيبرس. هاجم المغول مقدمة الجيش المملوكى الذى انسحب إلى التلال المجاورة، فتبعتها القوات المغولية، أملا وفرحا من الانتصار السهل القريب، فوقعت فى الكمين الذى نصبه لهم قطز، وتم تطويق الجيش المغولى، وانتهت موقعة عين جالوت بهزيمة المغول، ووقوع كتبغا أسيرا فى أيدى القوات المملوكية، وحمل مقيدا بالأغلال إلى السلطان قطز، فأمر بقطع رقبته بعدما دخل دمشق منتصراً ومنتشياً. انتصر المسلمون فى عين جالوت تحت صرخة "وإسلاماه " التى أشعلت حماسهم، وفجرت فيهم قوة العقيدة، لتمحو عار هزيمة المسلمين فى بغداد

وفى بلاد الشام. بدأ السلطان قطز فى تنظيم قواته فى مدينة دمشق، واستعد لاسترداد حلب الذى دخلها بعد عدة أسابيع من معركة عين جالوت. لقى المغول هزيمة ثانية عند مدينة حمص، وتبع ذلك هزيمة أخرى عند مدينة حماة، وولت القوات المغولية المنهزمة الفرار أمام الجيش المملوكى الذى قتل وأسر منهم الكثير حتى انتهى أمر المغول بالرحيل.

انقلبت الصداقة والإخلاص إلى غدر وخيانة، فأثناء عودة السلطان قطز إلى مصر قتله بيبرس الذى تولى السلطنة فى مصر، وتحولت الأعلام والرايات التى علقت فى مصر لاستقبال السلطان المنتصر قطز إلى هتافات بحياة السلطان الجديد بيبرس. كان قطز قد وعد بيبرس ولاية حلب جزاء شجاعته وإقدامه فى محاربة التتار فى موقعة عين جالوت . خاف قطز من أطماع بيبرس فولى غيره على حلب، فدبر بيبرس مع نفر من أتباعه اغتيال قطز أثناء عودتهم إلى مصر بعد نهاية المعركة. كان قطز يخرج أحياناً للصيد والقنص، فانتهز بيبرس فرصة انفراده وطلب منه امرأة من سبى التتار، فأنعم بها عليه، فتقدم ليقبل يده فقبض عليها وانهال أصدقاؤه يضربون قطز بالسيوف من خلفه حتى مات، وفى الحال أعلن بيبرس ولايته على مصر. كان تاريخ بيبرس مفعماً بالاغتيالات، فقد كان أحد الذين أُمروا باغتيال السلطان توران شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية، وفى مدة سلطنة أيبك انضم إلى جماعة أقطاى الخارجين عليه، ثم فر إلى الكرك ومكث بها خمس سنوات مع بعض المماليك المعارضين لأيبك، وعاد إلى مصر مرة ثانية بعد أن طردهم أمير الكرك، ليوليه قطز إمارة الجيش المصرى.

استقر الأمر لبيبرس فى مصر، فأرسل قواته للانتقام من مملكة أرمينية وإمارة أنطاكية الصليبية لمساعدتهما للمغول، ثم قامت القوات المملوكية بالأغارة على أنطاكية فى عام ١٢٦٢، ثم شنت هجوماً مفاجئاً على مدينة عكا فى العام التالى. فى عام ١٢٦٥ هاجم الجيش المملوكى مدينة قيسارية الصليبية واستولى

عليها، ثم تابع زحفه إلى مدينة حيفا فدمرها، ثم إلى مدينة أرسوف فاستولى عليها. فى عام ١٢٦٦ هاجم بيبرس قلعة صفد واستولى عليها، وبذلك استطاع السيطرة على مرتفعات الجليل. تقدمت القوات المملوكية إلى الشمال بقيادة قلاوون، ودارت معركة مع الأرمن انتصر فيها المماليك، وأصبح الطريق أمامهم ممهداً لدخول مدينة أياس، وطرطوس. واصلت القوات المملوكية التقدم إلى العاصمة الأرمينية سيس، فدخلتها ونهبتها وأشعلت فيها الحرائق، وبلغ عدد الأسرى من الأرمن حوالى أربعين ألف أسير. وفى مايو ١٢٦٧ هاجم بيبرس مدينة عكا واكتفى بتخريب ما حولها من قرى، ثم توجه نحو أنطاكية – فى تركيا حاليا وعلى الحدود الشمالية لسوريا – وقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام، وبدأ بالاستيلاء على السويدية – ميناء المدينة – فقطع بذلك الاتصال بين المدينة والبحر ومنع أى إمدادات حربية للمدينة، ثم حاصر مدينة أنطاكية حتى تم فتحها فى مايو ١٢٦٨.

كانت أنطاكية أول إمارة صليبيّة تقام فى بلاد الشام، لذا كان سقوطها صدمة للعالم الصليبى فى الشرق وفى أوروبا. على أثر استيلاء المسلمين على أنطاكية، وصل إلى الشرق معلومات بقيام الملك لويس السابع بتجهيز حملة صليبية ضخمة، ولكن تغيرت خطة الصليبيين فاتجهت إلى تونس أملا فى الوصول إلى بلاد الشام عن طريق مصر. تبدد حلم الصليبيين لوفاة لويس فى تونس عام ١٢٧٠. فشلت حملة صليبية أخرى فى عام ١٢٦٩ بعد أن تصدى لها الظاهر بيبرس فى عكا. من توابع سقوط أنطاكية أيضا قيام إدوارد ابن ملك إنجلترا بقيادة حملة صليبية إنجليزية. توجه إدوارد وقواته إلى جزيرة صقلية، كمحطة للوصول إلى تونس للالتحاق بالقوات الفرنسية. عندما علم إدوارد بوفاة لويس فى تونس غيَّر اتجاه الحملة إلى عكا، فوصلها فى مايو ١٢٧١، ولحق به هيو الثالث ملك قبرص، وبوهمند السادس أمير طرابلس. كان فكر إدوارد قبل القيام بحملته الاعتماد على القوات الصليبية فى بلاد الشام، ولكنه صدم عندما

تبين له أن الهدف الرئيسى لهذه القوات هو التجارة مع المسلمين. خاب أمل الأمير الإنجليزى ادوارد فى الصليبيين الشرقيين، وفى القوات القبرصية التى رفضت القتال فى بلاد الشام، ففكر فى الاستعانة بالمغول لقتال المماليك.

أرسل ادوارد رسله إلى أياقا قائد المغول يطلب المساعدة العسكرية، فاستجاب له وأرسل بعضاً من قواته التى تكمن فى الأناضول. سارت القوات المغولية إلى بلاد الشام، فتصدت لها الحامية التى كانت تدافع عن حلب، ولكن المغول انتصروا وتابعوا سيرهم جنوبا. علم بيبرس فى دمشق بتحرك المغول فطلب الإمدادات من مصر، وسار بقواته شمالا لملاقاة المغول. أيقن المغول أن قوتهم القليلة لا تكفى لمواجهة المماليك فعادوا أدراجهم من حيث أتوا. شجع ادوارد قدوم المغول إليه لمناصرته فتقدم بجيشه نحو جبال الكرمل وأغار على سهل شارون، ولكن بعد ما تراجعت القوات المغولية، وجد أنه لن يستطيع التغلب على المسلمين فرجع بقواته إلى عكا. تأكد لادوارد أنه لن يستطيع القيام بعمل عسكرى مؤثر فقرر العودة إلى إنجلترا، وفكر فى عقد هدنة مع الظاهر بيبرس تضمن بقاء الوضع على ما هو عليه. وافق بيبرس على عقد هدنة لمدة عشر سنوات وعشر شهور للتفرغ لمواجهة أخطار المغول. عاد إدوارد إلى بلاده فى شهر سبتمبر من عام ١٢٧٢ بعد أن تعرض لمحاولة اغتيال أرقدته الفراش لعدة شهور.

توفى السلطان بيبرس فى يوليو ١٢٧٧، وتولى ابنه السعيد بن بركة الحكم، ولكن ثار عليه الأمير قلاوون فتنازل عن السلطنة لأخيه الأصغر العادل سلامش الذى كان يبلغ من العمر سبع سنوات. كان منصور سيف الدين قلاوون هو الحاكم الفعلى لمصر فتخلص من جميع رجال بيبرس حتى تمكن من تنصيب نفسه سلطانا. عادت القوات المغولية مرة ثانية إلى بلاد الشام ونزلت حمص فى عام ١٢٨١، بعد ما انضمت إليها قوات أرمينية، وقوات اسبتارية صليبية. كانت

المواجهة بين المماليك والمغول فى نهاية شهر أكتوبر خارج مدينة حمص، وأسفرت المعركة عن سقوط العديد من القتلى والجرحى من كلا الطرفين وانتهت بانسحاب المغول إلى شرق نهر الفرات. انتهت الهدنة بين المماليك والصليبيين فى عام ١٢٨٣ فعرض قلاوون تجديدها لعشر سنوات أخرى، فوافق الصليبيون. استبعدت مدينة صور وبيروت من الهدنة، فاستعد قلاوون لمهاجمتهما، فأسرعتا إلى طلب الهدنة، ووافق عليها قلاوون حتى يتفرغ لمهاجمة حصن المرقب التابع لفرسان الاسبتارية الذين دأبوا على التحالف مع المغول ضد المماليك. فى أبريل ١٢٨٥ وصل جيش قلاوون أسفل الجبل الذى تقع عليه قلعة المرقب الحصينة، ونصب المجانيق وبدأ فى دك أسوار المدينة، ثم أخذت قوات المماليك فى عمل فتحة أسفل أحد الأبراج ووضع الأخشاب بها وإشعال النيران فيها، فبدأ البرج فى الانهيار، فاستسلمت القوات الاسبتارية، ودخل قلاوون القلعة فى شهر مايو من نفس العام. انزعج الصليبيون والمغول من الانتصار الجديد للمسلمين، وتشاوروا فى تجهيز حملة صليبية أخرى.

لم يكتف قلاوون بالاستيلاء على قلعة المرقب، فأرسل حملة إلى قلعة صهيون فى أقصى شمال بلاد الشام فاستولت عليها، ثم سارت القوات المصرية والشامية إلى اللاذقية واستولت على المدينة وحاصرت برج عسكرى للصليبيين حتى سقط فى أيدى المسلمين فى أبريل من عام ١٢٨٧. فى مارس ١٢٨٩ رابضت القوات المملوكية بقيادة قلاوون أمام أسوار طرابلس، فأرسل الصليبيون فرسان الداوية والاسبتارية للدفاع عن المدينة. نصب قلاوون المجانيق وشد الحصار على أسوار طرابلس، وبدأ فى مهاجمة المدينة حتى تم اقتحامها فى أبريل من نفس العام. أمر قلاوون بهدم المدينة حتى لا يحاول الصليبيون الاستيلاء عليها مرة ثانية عن طريق البحر، وقام ببناء مدينة جديدة فى سفح تل الحجاج بعيدا عن البحر.

نعود إلى أوروبا حيث دعا البابا إلى حملة صليبية جديدة، وكانت هذه هـى الحملة الأخيرة. لم يستجب لنداء البابا إلا بعض العاطلين والفلاحين من بعـض المدن الإيطالية الصغيرة، حملتهم خمس سفن إلى ميناء عكا فـى عـام ١٢٩٠. خرج المتشردون من رجال الحملة الصليبية إلى شوارع المدينة يقتلون كل مـن يصادفهم من المسلمين، فاعتبر قلاوون أن اعتداء الصليبيين هو خرق للهدنـة. بدأ قلاوون بتجهيز قواته بالرغم من محاولة الصليبيين استرضائه بالمال. بعـد وفاة قلاوون فى عام ١٢٩٠ تولى ابنه السلطان الأشرف حكم مصر الذى أمـر جيشه بالسير إلى عكا فوصلها فى أبريل ١٢٩١. بدأت مجانيق جيش المماليـك تدك المدينة، وأخذ الجنود ينقبون أسوارها. بعد شهر من القتال وصـل هنـرى ملك قبرص إلى المدينة مما رفع من معنويات الصليبيين، ولكن لم تكـن قواتـه كافية للدفاع عن عكا. حاول هنرى اللجوء إلى الطرق الدبلوماسية لعقد اتفاق مع السلطان الأشرف الذى رفض عروض الصليبيون. فى شـهر مـايو اسـتطاع الجيش المملوكى اقتحام مدينة عكا، وهرب الملك هنرى، وحاول سـكانها مـن الصليبيين الهروب بحراً ولكن سقطت بهم السفن نتيجة ثقل أحمالها. قام المماليك بأسر العديد من الفرسان الصليبيين، وكذلك الكثير من النساء الذين دخلوا حـريم المماليك، وانخفض سعرهم حتى وصل سعر الفتاة من الأسرى درهماً واحداً.

بعد سقوط عكا تداعى عقد المدن الصليبية فى بلاد الشام، وأسرع السلطان الأشرف بتوجيه ضربات سريعة ومتلاحقة إلى المدن الصليبية الأخرى. عنـدما اقتربت القوات المملوكية من مدينة صور هرب قائدها إلـى جزيـرة قبـرص، وحاول فرسان الداوية الدفاع عن المدينة ولكنهم هزموا، فهربوا عـن طريـق البحر. دخلت القوات المملوكية مدينة بيروت فى شهر يوليو ١٢٩١. لـم تكـن القوات الصليبية كافية للدفاع عن قلعة أنطرسوس فى شمال طـرابلس، وعـن قلعة عتليت الواقعة جنوبى جبل الكرمل، فرحلت القوات الصليبية عنهمـا فـى شهر أغسطس. لم يتبق من القوات الصليبية إلا القـاطنون فـى جزيـرة أرواد

الواقعة على بعد حوالى ثلاثة كيلومترات شرقاً من قلعة أنطرسوس، الذين تركوها فى عام ١٣٠٣.

وبذلك انطوت صفحات التاريخ على سلسلة الحملات الصليبية فى الشرق الإسلامى، وصراع دام بين المسلمين والمسيحيين الكاثوليك على مدى سنوات طويلة قتل فيها مئات الألوف من **الطرفين**، ورحل الصليبيون من الأراضى العربية، كما سيرحل المسلمون بعد ذلك من أوروبا المسيحية.

جماعة الحشاشين

الحشاشون هم فرقة إسماعيلية سرية دعت إلى إمامة نزار ابن المستنصر. أسسها الفارسى الحسن بن الصباح الذى انضم وهو حدث صغير إلى الدعوة الفاطمية، ووفد على مصر أثناء حكم المستنصر الفاطمى فى القرن الحادى عشر، فانضم إلى مؤيدى إمامة نزار، ثم عاد إلى إيران، وفيها بث دعوته فالتف حوله كثيرون. استطاع الحسن بن الصباح فى العقد الأخير من القرن الحادى عشر، أن يستولى على قلعة الموت الجبلية الحصينة واتخذها مقرا لدعوته. أخذ الحسن فى الاستيلاء على قلاع أخرى، وإلى التخلص من أعدائه بالاغتيال، فكان من بين من قضى عليهم الحشاشون الوزير السلجوقى نظام الملك الذى اغتالوه فى عام ١٠٩٢. ساعد الحشاشون على تقوية صفوفهم وتوسيع نطاق دعوتهم نزعات السلاجقة على العرش وانقسام الشرق الأدنى الإسلامى على نفسه، وكذلك قيام الحروب الصليبية. تميز الحشاشون بتنظيم دقيق وباتخاذ الاغتيال كأداة ليتخلصوا من أعدائهم، فكان يرأسهم السيد أو شيخ الجبل الذى كان صاحب الأمر والنهى ويليه الدعاة، يتلقون أوامرهم منه وينفذون تعليماته، وينقسم الباقون إلى مراتب ودرجات حساب اطلاعهم على أسرار الفرقة. كان من أهم الفرق، الفدائيون القائمون بعمليات الاغتيال، وكان لا يصل إلى مرتبة الفدائى إلا صاحب بأس، شديد الطاعة والولاء، والذى يسعى إلى الاستشهاد فى سبيل

الدعوة. كان شيخ الجبل يهيئ الفدائى للقيام بوظيفته بإدخاله فى جنة غناء قائمة داخل الحصن الجبلى المعزول عن الحضارة بعد أن يكون قد تعاطى نوعا من الحشيشية المخدرة. وكان يسمح للفدائى أن يمارس فى هذه الجنة الأرضية جميع أنواع اللذات الحسية، من طعام وشراب، وخمر وجنس، ثم يضرب شيخ الجبل على وتر العقيدة بإقناعه أنه سيدخل الجنة الأبدية – التى تفوق الجنة الأرضية التى نهل من لذاتها – إذا قتل واستشهد أثناء عملية الاغتيال. كان الفدائى يحاول القيام بالمهمة على أكمل وجه، لا يخشى الموت والاستشهاد، طمعا فى اللذات التى سينالها فى الجنة الأبدية بعد موته.

توفى الحسن بن الصباح عام ١١٢٤، وخلفه على رياسة الدعوة من حصن الموت ستة من شيوخ الجبل، وكان آخرهم ركن الدين بن محمد الذى توفى عام ١٢٥٦. انتشر نطاق الدعوة فى ذلك الوقت حتى شمل بلاد فارس والهند وجميع بلاد الشام. فى عام ١٢٥٦ هاجم هولاكو خان قائد المغول قلعة الموت حتى استسلم من فيها من الحشاشين وقتل ركن الدين. تتبع هولاكو باقى الحشاشين حتى قضى على من كان منهم فى بلاد الفرس. لقى الحشاشون فى بلاد الشام نفس المصير عندما هاجم سلطان المماليك الظاهر بيبرس عام ١٢٧٢، ولم يتبق منهم بعد ذلك غير فئات قليلة متفرقة فى سوريا وإيران والهند. وفى العصر الحديث إستخدمت كلمة حشاشين Assassination فى اللغة الإنجليزية بمعنى اغتيال، وهى مشتقة من كلمة Assassin بمعنى القاتل بدافع من التعصب للعقيدة. وهكذا استغلت العقيدة فى كل مجال، وكل زمان ومكان، من خلال الحشيش وباقى أنواع المخدرات، حتى المخدرات الفكرية فى الشعوب المتخلفة فكريا وثقافيا، حتى لا تطالب بالحرية والديمقراطية.



عقيدة الحكـــم المطلق

فلسفة القوة

عاش فى القرن التاسع عشر الفيلسوف الألمانى فريدريك نيتشه رائد فلسفة القوة، مبشرا ببزوغ الديكتاتورية العسكرية القائمة على القوة والتى انتهجها هتلر بعد ذلك فى ألمانيا. قامت فلسفة نيتشه على أن إرادة القوة هى جوهر الوجـــود، عن طريقها يمكن تفسير كل مظاهر الكون، وبمقدار شعورنا بالحياة والقوة يكون إدراكنا للوجود. قام فكر نيتشه على مبدأ تقديس القوة، فالحياة لا تستطيع أن تحيا إلا على حساب حياة أخرى، أو كما جاء فـــى كتـــاب عبـــد الـــرحمن بـــدوى "نيتشـــــه": (الحياة هى النمو، وهى الرغبة فى الاقتناء، والزيادة فى الاقتنـــاء. وما دامت الحياة نموا ورغبة فى الاقتناء، فإنها محتاجة إلى شيء آخر خلافهـــا وخارجها كى تتحقق. فكأن الحياة إذاً إرادة استيلاء على الآخرين، وإرادة ســـطو واستغلال. وطابعها المميز هو الاغتصاب وهضم ما للآخرين فهى إذاً عنـــصر إفناء وهدم وإيذاء... لكن هذا الاستيلاء والإفناء لا يمكن أن يتما دون أن يصادفا مقاومة، بل لابد للحياة الواحدة من أن تجد مقاومة من أنواع الحياة الأخرى التى تصطدم وإياها. ولهذا فإن الحياة كفاح دائم، بشرط أن نفهم هـــذه الكلمـــة فهمـــاً واسعاً عميقاً يجعلنا نفهم العلاقة بين السيد والمسود بوصفها نضالا، والعلاقة بين الخاضع والسيد بحسبانها مقاومة).

استكمل نيتشه شرحه عن فلسفة القوة: (كلما كثـــرت المقاومـــة واشـــتدت الخصومة، زادت قيمة الحياة، وأصبحت إرادة القوة أكبر ثروة وأعظم خـــصباً. فالحياة التى تريد أن تعلو، والإرادة التى تريد أن تتحقق فى صور أجل وأعلـــى، لابد لها من أن تحرص على طلب المقاومات بنفسها وان تـــستثير الخـــصومات وألوان النضال طائفة مختارة، وأن تخلق لنفسها حالة توتر دائم سواء أكان هـــذا بينها وبين نفسها، أم بينها وبين الأشياء الخارجة عنها، فالحياة السامية حياة تنشد

الخطر وتلح فى طلبه... فكأن إرادة القوة إذاً هى فى الوقت نفسه إرادة الخطـر: أن يجعل الإنسان حياته فى خطر... لأن كل خطر كبير يستثير حبنا للاستطلاع بنسبة ما لدينا من قوة وشجاعة). وفى النهاية تتبلور فلسفة نيتشه فى مقولتـه : (كى تجنى من الوجود أسمى ما فيه، عش فى خطر).

ليس الألم فى فلسفة نيتشه شيئاً سلبياً، لأنه إذا كان جـوهر الوجـود إرادة القوة، والألم ينشأ من الشعور بعدم القدرة علـى المقاومـة وعـدم الإحـساس بالسيادة، لذا فإن اللذة والألم حقيقتان ضروريتان وهما أسمى ما فى ذات الإنسان من مشاعر وأحاسيس، وتفاعل مع جوهر الوجود. إن اللذة لا تنبع مـن إشـباع الرغبة وإرضاء الإرادة، وإنما تنشأ من انتصار الإرادة على كل ما يقـف فـى طريقها، أو كما كتب نيتشه: (إن الشعور باللذة أساسه عدم إرضاء الإرادة، بأن لا تكون قد شبعت بعد، بسبب إنعدام الخصم والمقاومة، لأن عدم الرضى يهـيج الشعور بالحياة، وهو دافع كبير لاستثارتها... وإن ما يريده الإنسان حقـا، ومـا يريده كل جزء من الكيان العضوى ، مهما صغر هذا الجزء ، هو الزيـادة فـى القوة ، وليس تجنب الألم والسعى وراء اللذة وطلبها) . والخلاصة إذاً هـو أن جوهر الوجود إرادة القوة، لا إرادة الحياة.

لا تختلف الدول، والمجتمعات، والتجمعات، والقوميات عن الإنسان كفـرد وسلوك نحو امتلاك القوة. فتطوير السلاح وتصنيعه وتكديسه، وعبـادة المـال حتى إن كان لا يحتاج الإنسان إلى كل ما جمعه، وخلافه من رغبـات الإنـسان فى امتلاك عناصر القوى، يؤكد شهوة الإنـسان للـسيطرة والـشعور بـالقوة والهيمنة. حتى فى السياسة حيث يطالب الضعفاء بالعدالة والحرية مـن جانـب الذين يملكون القوة. الضعيف فى فلسفة نيتشه هو الإنسان المتساهل، والمـساوم، الذى يلجأ إلى الحلول الوسط، أما القوى فهو المتكبر، المتسيد الذى لا يرضى إلا بالقيادة والوقوف فى الصفوف الأولى. الضعيف ليس له قـدرة علـى مقاومـة

الإغراء، أما القوى فهو الإغراء ذاته، لا شيء يعلوه، لأنه هو ذاته أعلى وأسمى من كل شيء، فعقيدة القوى كما يقول نيتشه: (ما لا يقتلنى يزيدنى قوة) ، وكما يقول أيضا :(إن الأسباب التى تؤدى إلى جعل الضعاف مــن النـــاس صــغارا حقراء، هى عينها التى تدفع الأقوياء والنادرين إلى العظمـــة والعـــلاء). حيـــاة القوى خصبة، أما حياة الفقير فجوفاء. إذا كان كلاهما يتألم، فإن كان ألم الفقيـــر نابع من العوز والحاجة، فألم القوى ينبع من فيض السيطرة والهيمنة. الــضعيف يريد السلام والوفاق، والحرية والمساواة، ولكن القوى يفضل الصراع والصدام. الضعيف يكبت شعوره بالانتقام داخله، أما القوى فيهاجم ولا يهادن، يرد الإهانة فى الحال، لا ينتظر حالة ضعف خصمه، حياته كلها إثارة، وتوثـــب وانتقـــاض، وانقضاض.

إرادة الحق فى فلسفة القوة، ليست إلا خادما لإرادة القوة، والحقيقة ليـــست إلا قناعا يخفى وراءه إرادة القوة. بالقوى تشكل الأشياء لتتماشى مـــع إرادتنـــا. الخير والأخلاق والإحسان.. الخ ، هى أفكار وعقائد يفيضها القـــوى مـــن زاده على الضعيف . الحياة من وجهة نظر نيتشه: (مجموعة من القـــوى المـــرتبط بعضها ببعض عن طريق تغذية مشتركة... ويتبع هذه العملية كوســـيلة لتحققهـــا كل ما يسمى باسم الإحساسات والتصورات والأفكار، أعنى أولا مقاومـــة كـــل القوى الأخرى، وثانيا إعداد هذه القوى تبعا لصورة الحياة وسياقها، وثالثا تقـــويم الأشياء من أجل تمثلها أو طرحها والقضاء عليها). الموت فى نظر نيتشه جزء من الحياة، مكملا لها، لذا لا مبرر للخوف مما بعد الموت. ليس المطلوب منا أن نحيا حياة طويلة، وإنما نحيا حياة خصبة زاخرة، مليئة بالصراع والمقاومة.

إذا كانت الثقافة الغربية قد بنيت على الفردية، فإن نيتشه قد وضـــعها فـــى صورتها الفلسفية، فالمساواة تحول الأفراد إلى حبات رمل فى كومـــة ضـــخمة سماها الشعب، الذى لا يعنيه أن يرتفع مستوى الإنـــسانية، أو يحفـــل بـــالأفراد

والمتميزين الأرستقراطيين الذين هم خلاصة الإنسانية، وواضعو قيمتها العليـــا، التى هى قيم السادة لا قيم العبيد. الفرد المتميز فى فلسفة نيتشه يجب أن يـــسود، وتتطور السيادة وتتصاعد حتى تصل إلى الإنسان الأعلى "الـــسوبرمان" الـــذى يجب أن يسود الجميع. هذا الإنسان هو الذى يملك مجموع القوى ومحـــصلاتها، بعد أن انتهى من التغلب على شهواته وغرائزه ونزواته، فتفرغ للالتحـــام مـــع الآخرين، يصارعهم ويتغلب عليهم. المساواة ما هـــى إلا أكذوبـــة فـــى عـــالم تتصارع فيه القوى المتباينة فى أشكالها وصورها المختلفة. إن قيمـــة الإنـــسان تقاس من وضعه فى المنظومة البشرية، بكونه متقدماً أو متأخراً، سيداً أو عبـــداً، قوياً أو ضعيفاً. الإنسان الأعلى يجب ألا يتقيد بوطن معين، ولا يجذبه مال يأتى من نكوص الرأس، ولا تشده سلطة ناتجة من الإذلال للأعلى، أو منصب يـــأتى من النفاق والرياء. الإنسان المتميز هو الذى يضع نفسه فوق القوانين وأعلى من القيم لأنه هو واضع القوانين ومنشئ القيم والأخلاق والمثل، لا يأبه بمصطلحات وضعها البشر: من خير وشر، ومن حب وكره، من قـــسوة وحنـــان، ...الـــخ. الإنسان الأعلى يجب أن يتحرر من أى قيود، يخاطر بذاته من أجـــل اكتـــشاف الجديد وفرض قيمه وأخلاقه على الآخرين. الحياة نضال فـــى نظـــر الإنـــسان الأعلى، من أجل السيطرة والهيمنة، والفوز، والامتلاك، لا يعنيـــه شـــىء إلا أن يسير قدماً نحو هدفه.

الشفقة فى شريعة القوى هى فضيلة الضعيف، ولكن القسوة وحـــدها هـــى التى ترفع الإنسان إلى أعلى، تهذبه وتقويه. طبيعة الكون ســـارت منـــذ وجـــود الكائن الحى على قانون الانتخاب الطبيعى: البقاء للأقوى ماديا وعقليا – للـــذى يملك مقومات القوة: من سلطة، وسلاح، ومال، ومعرفة. الضعيف غيـــر جـــدير بالحياة، وإن عاش فهو يجب أن يبقى عبداً للقوى، أو كمـــا كتـــب نيتـــشه: (إن الإنسان يفقد قواه حين يشعر بالشفقة – نحو الآخرين أو نحـــو نفـــسه – وعـــن

طريق الشفقة يزداد فقدان القوة الذى سببه الألم فى الحياة من قبـــل). يتحـــول نيتشه بعد ذلك إلى الشعور بالمسئولية، فلابد للإنسان أن يكون قـــوى الـــشعور بالمسئولية عن كل ما يقوم من أعمال ومخاطر من أجل السمو بالحياة، والصعود إلى أعلى حتى يصل إلى مرتبة الإنسان الأعلى. إذا كان العدوان واستخدام القوة غريزة كائنة داخل الإنسان، فإن نيتشه قد وضعها فى قالب فلـــسفى، شـــد إليـــه الزعيم النازى هتلر ليضعه فى الصيغة التنفيذية، ثم جذب إليه الـــزعيم الفاشـــى الإيطالى موسولينى لينتهج نفس السياسة... سياسة القوة. قد يلجأ الإنـــسان إلـــى القوة من أجل نيل احترام وتقدير الآخرين، فقد كتب توماس هوبز: (إن الإنسان يسعى إلى أن يقيمه الآخر كتقييمه لنفسه، فإن بدرت من الآخر بادرة تشير إلـــى احتقاره أو الانتقاص من قدره، كان من الطبيعى أن يحاول بقدر ما تواتيه الجرأة أن ينتزع أكبر قدر من التقدير ممن ناصبوه الاحتقار، عن طريق إيذائهم). مـــن هذا المنطلق كتب فوكوياما فى كتاب " نهاية التاريخ " أنه توجـــد فـــى طبيعـــة الإنسان ثلاثة أسباب رئيسية للنزاعات: أولها التنـــافس، وثانيهـــا فقـــدان الثقـــة بالنفس، وثالثها المجد، وقد تدفع الرغبة فى المجد إلى الحـــروب بـــسبب أمـــور تافهة. قد يتنازع البشر أو تتصارع الدول على الضروريات، غير أن الكثير من الناس يتصارعون من أجل نيل الاعتراف والتقدير، إن كثيرا من الحـــروب قـــد نشبت ليس من أجل الحصول على منافع مادية، بل إرضاء للكبريـــاء وإشـــباعاً الغرور.

النازية والفاشيـــة

ساعدت عدة عوامل على قيام الفاشية Fascism فـــى إيطاليـــا، والنازيـــة Nazism فى ألمانيا فى بدايات القرن العشرين. كان من أهم هذه العوامل:

- أزمة التغيير الناتجة من التحويل من الرأسمالية الصناعية إلى مرحلة أكثـــر انفتاحا وحريـــة سميت "رأسمالية التكنولوجيا والتنظـــيم الإدارى". تميـــزت

فترة التحويل من نظام سياسى / اقتصادى/ إدارى سابق إلى آخر لاحق بألم التغيير والتحويل، وهو ألم نفسى ينتاب الفرد أو المجتمع فى فترة التغيير حتى إن كان للأفضل. كانت الطبقة البرجوازية – وهى طبقة تقع غالبا فى وسط السلم الاجتماعى أو أعلى منه قليلا – هى أكثر الطبقات تأثرا ومعاناة من هذا التغيير. إن الطبقة السفلى الواقعة فى قاع المجتمع وأسفل السلم الاجتماعى لا تتأثر فى العادة بالتغيير، فالقريب من الصفر لا يهمه إن زاد عن الصفر قليلا أو انزلق أسفل الصفر، فمعاناته دائما موجودة، ومن كثرتها واستمراريتها تجمدت نفسيته من تأثير حدوث التغيير. أما الطبقة العليا فهى فى العادة طبقة تجاوزت ألم التغيير فغالبية أعضاء هذه الطبقة يكونون قد حموا أنفسهم من غدر الزمان والتغيير، وكنزوا ما يؤهلهم لاجتياز أى أزمة مالية / اقتصادية / سياسية / تنظيمية.

- تأخر ألمانيا وإيطاليا النسبى فى اللحاق بمسيرة التحديث -- خاصة التحديث السياسى – التى غشت معظم القارة الأوربية، والولايات المتحدة الأمريكية، ومعاناتهما فى الكفاح فى معركة الحداثة. وفى هذه المناسبة يجب الإشارة إلى معركة التحويل / الثقافى / الحضارى التى يشهدها العالم الآن فيما يسمى "بالعولمة"، أى محاولة تسييس الثقافات وصهرها فى ثقافة واحدة، أقرب ما تكون إلى الثقافة الغربية، وصراع المقاومة من بعض الثقافات الأخرى، وأشدها الثقافة الإسلامية.

- كثفت معاناة ألمانيا من الهزيمة فى الحرب العالمية الأولى، من تأثير أزمات التغيير والتحديث، فتواجدت التربة الصالحة لنمو الحزب النازى فى ألمانيا، والفاشية فى إيطاليا. سنوات ليست بطويلة قبل هذه الأحداث قامت الثورة البلشفية Bolshevik الشيوعية فى روسيا، مما ساعد على تفشى نغمة الإيدلوجيات اليسارية من شيوعية واشتراكية فى باقى دول أوروبا.

أصبحت أوروبا تعيش فترة مخاض بوجود أكثر من جنين إيـدلوجى فـى أحشائها، تجادل وتتصارع، حروب فناء مثل الحـرب العالميـة الأولـى، وثورات دموية مثل ثورة روسيا الشيوعية، وكان من نتيجة هذه الأحـداث تهيئة المستقبل لأعنف وأكبر حرب دموية فى تاريخ الإنسانية وهى الحرب العالمية الثانية التى وصل فيها إجمالى القتلى والجرحى إلى ٤٥ مليون نسمة.

اشتقت كلمة " نازى " من اسم " حزب الاشتراكية الوطنية للعمال الألمان " باللغـة العربيـة National Socialist German Worker's Party، باللغـة الإنجليزيـة، Nationalso Zialistische Deutsche Arbeiterpartei باللغـة الألمانية. تكوّن هذا الحزب فى مدينة ميـونيخ بولايـة بافاريـا الألمانيـة فـى فبرايرعام ١٩٢٠، كحزب منشق من " حزب العمال الألمان". تبوأ أدولف هتلـر قيادة هذا الحزب فى عام ١٩٢١، وبعد فترة قصيرة اتجه الحزب إلى الأيدلوجية الغوغائية Demagogic Ideology ، بمعنى مفاهيم ثقافية قائمة علـى أسـلوب التهييج والتحريض الذى يؤدى إلى العنف والعدوان . قام هتلر بأول نجـاح لـه عندما حوّل النطاق السياسى الضيق لحزبه واليأس الغاشى على أعضائه، إلـى قوة سياسية مؤثرة فى ولاية بافاريا. كان من نتيجة استعادة الاقتـصاد الألمـانى نشاطه وحيويته بعد عام ١٩٢٤، وكذلك وجود نظام سياسى مستقر، أن انـزوى الحزب النازى، واتجه إلى الظل. لم يتخل الحظ عن هتلر بعـد عـدة سـنوات، فحدث الكساد العظيم الذى ساد أوروبا والولايات المتحدة فى نهايـة عـشرينات وبداية ثلاثينيات القرن العشرين، مما أدى إلى إتاحة الفرصة لتجميـع الحـزب أعضاء جدد، واستعاد الحزب حيويته ونشاطه، وأخيرا اضطلع الحزب النـازى بالحكم وسيطر على قيادة البلاد والحكومة الألمانية فى عام ١٩٣٣.

لم تقم الاشتراكية الوطنية فى ألمانيا على أيدلوجية واضحة المعالم أو على عقائد ثابتة، أو من جذور راسخة. لم يكن لهذا الحزب فلسفة سياسية متماسكة ومترابطة ولكنه تشبع بعقائد مبهمة وغير واضحة، وأفكار متناثرة ومتباينة مثل:

- خلق الله العرق الأبيض الشمالى Nordic Race (من شمال أوروبا – ذو العيون الزرقاء والشعر الفاتح) لكى يسود ويحكم العالم، ويجب أن يستعبد باقى الشعوب خاصة اليهود والملونين.
- يجب توحيد جميع الشعوب التى يجرى فى عروقها الدم الألمانى (مثل ألمانيا والنمسا) فى دولة واحدة وهى ألمانيا العظمى. تتجسد هذه الدولة فى الرايخ الثالث Third Reich أى الدولة النازية.
- يجب أن تناهض الاشتراكية الوطنية الألمانية، الشيوعية الماركسية وتقضى عليها.
- العمل على إذابة المجتمع التعاونى الذى ساد أوروبا فى القرون الوسطى، مع المجتمع الجرمانى القروى فى مجتمع نموذجى يتمثل فى الرايخ الثالث.

تعنى كلمة الرايخ " الإمبراطورية الغربية " التى بدأت من الإمبراطورية الرومانية Roman Empire ، أو قد يرجعها مؤرخون آخرون إلى الإمبراطورية المقدونية التى أسسها الإسكندر الأكبر Alexander the Great (٣٥٦-٣٢٣ قبل الميلاد) . كان الإسكندر ملكاً على مقدونيا، وعند بلوغه سن ٣٢ عاما، كان قد أسس أكبر إمبراطورية فى العصر القديم، والتى امتدت من البحر الإدرياتيكى إلى بلاد الهند، شاملة مصر وبلاد الشام، وبلاد فارس، ثم قامت الإمبراطورية الرومانية على أنقاض الإمبراطورية الإغريقية بعد وفاة الإسكندر الأكبر. فضل الرومان أن تتوسع إمبراطوريتهم بواسطة المعاهدات والتحالف السلمى بدلا من الأسلوب الحربى الذى اتبعه الإسكندر الأكبر. كانت العقيدة الرومانية وسياستها هى أن تقوم على تبادل المنفعة بين

الإمبراطورية وحلفائها من أجل استمرار الإمبراطورية وازدهارها. امتدت الإمبراطورية الرومانية إلى معظم الدول الأوربية، كما شملت بلاد شمال أفريقيا وباقى سواحل البحر المتوسط، وبلاد الشام وبلاد الحبشة وخلافه، فقد كانت الإمبراطورية الرومانية مؤلفة من حوالى مائة أمة مختلفة.

أطلق اليونانيون والرومان على القبائل الألمانية لفظ برابرة Barabari، ومعناه الفظ، أو الجلف، غير المثقف. كان اتصال الألمان بالحضارة الرومانية على مدى الخمسه قرون الأولى بعد الميلاد عن طريق التجارة والحرب. تأثرت ثقافة القبائل الألمانية بالحضارة الرومانية، ولكن بالرغم من كرم ضيافتهم وأمانتهم، كانت تعوزهم دماثة الخلق ودبلوماسية المعاملة، وكانت نزعتهم فردية إلى حد الفوضى. أطلق مصطلح البرابرة على القبائل الألمانية فى القرنين الرابع والخامس، والتى كانت تعيش جنوب نهر الدانوب وعلى جبال الألب. كان هؤلاء البرابرة الألمان يتركون شعورهم طويلة، ويلبسوا السراويل، ويرتدون ملابس من الفراء، وكانت سحنتهم تلقى الرعب فى قلوب أعدائهم، فقد دأبوا على قطع خدود ذكور أبنائهم بالسيف حتى يتعودوا على تحمل ألم الجروح. كان للكبار وجوه مشوهة من ندوب جروح السيوف، وكانوا ماهرين فى القتال، وبارعين فى استعمال الأقواس والسهام. فى منتصف القرن الرابع الميلادى عاشت هذه القبائل فى أوروبا، متجهة نحو الأقاليم الروسية، يدفعهم الجدب الذى غشى أراضيهم. التقى البرابرة الألمان مع قبائل الهون Hun المغولية الغازية القادمة من شمال آسيا بقيادة أتيلا، وانضموا إليهم فى غزو أراضى الإمبراطورية الرومانية، مُوقعين بالجيوش الرومانية أشنع هزائم على مر تاريخ إمبراطوريتهم. زحف تيار البرابرة والهون الجارف نحو أسوار روما فى عام ٤٠٨م حتى استولوا على المدينة فى عام ٤١٠م، يعيثون فيها قتلا وسلبا واغتصابا لنسائهم.

فى عام ٧٤٢م ولد شارلمان Charlemagne أعظم ملوك العصور الوسطى فى أوروبا، يتكلم اللغة الألمانية، ويجرى فى عروقه الدم الألمانى، قوى الجسم، ويتسم بالبسالة ورباطة الجأش. فى عام ٧٧١م انفرد شارلمان بالحكم وهو فى التاسعة والعشرين من عمره، متخذا من مدينة آخن – فى ألمانيا – عاصمة له. دخل شارلمان فى سلسلة من الحروب بلغت ثلاثاً وخمسين بهدف تأمين دولته، فاتحا بافاريا وسكسونيا، وقضى على المعارضين له، ثم قام بحماية إيطاليا من غارات الغزوات الإسلامية، كما قام بتقوية حصون فرنسا حتى تستطيع الوقوف أمام مسلمى إسبانيا الذين يبغون بسط سلطانهم عليها. فى عام ٨٠٠ م، توج "بابا روما" شارلمان كإمبراطور على رأس الإمبراطورية الرومانية، واعتبر هذا التتويج دلالة على بداية: الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية، والتى امتدت حتى عام ١٨٠٦، عندما أعلن نابليون بونابرت حلها. سميت هذه الإمبراطورية بالرايخ الأول The First Reich، وتعنى كلمة رايخ فى اللغة الألمانية امبراطورية. أما الرايخ الثانى فقد امتدت من عام ١٨٧١ وحتى عام ١٩١٩ فى زمن الإمبراطورية الألمانية الثانية، والتى أعقبها الجمهورية الألمانية الفيدرالية فى الفترة (١٩١٩-١٩٣٣)، حتى استلم هتلر قيادة الدولة النازية فى الفترة من (١٩٣٣-١٩٤٥)، والذى أطلق عليها الرايخ الثالث. كان الهدف من سرد ما سبق عن تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وتعاقب عهود الرايخ سببين، أولهما الرجوع إلى جذور الثقافة الألمانية التاريخية القائمة على العنف والجدية فى العمل والتى منها تكونت الشخصية الألمانية، والتى أدى عنفها إلى دخولها حربين عالميتين كبد العالم الملايين من الضحايا، وجديتها فى العمل الذى أدى إلى تفوقها فى الفنون وخاصة الموسيقى، وفى الفلسفة، وكذلك فى مجال العلم والتكنولوجيا. أما السبب الثانى فهو الوصول إلى بدايات تكوين الإمبراطوريات الألمانية والتى كان هتلر يحلم بإحيائها بعد أن تشكلت بداخله كعقيدة راسخة،

عندما عشق قــراءة التاريــخ وهــو فى ســنوات مراهقتــه، وشــغف بفكرة الإمبراطورية الألمانية الموحدة.

اكتسبت النازية شعبيتها من الأيدلوجيات الشعبية، فاحتوت الطبقة المتوسطة من حرفيين وتجار ومدرسين، وبعض الموظفين ذوى الياقات البيضاء White-Collar، المتحمسين للتغيير، المتطلعين إلى ثورة تطيح بالفئة العليا. بنهاية العشرينات من القرن العشرين، كان هتلر يتحكم فى مشاعر هذه الفئات التى ألبسته رداء الزعيم المنقذ والقائد الثائر. عندما حل كساد الثلاثينات من هذا القرن، انضم إلى أنصار هتلر مزيد من ذوى الياقات البيضاء، وطبقة البرجوازيين Bourgeois (أبناء المدن من الطبقة المتوسطة التى تسيطر على المصالح التجارية والصناعية – الرأسمالية الصغيرة). لقد استطاع هتلر أن يحرك مشاعر الجماهير بخطبه المؤثرة، وعباراته القوية، ونغمة صوته الرنانة، مستمراً فى العزف على أوتار غرائز الثورة والعصيان على ما هو قائم، واعداً بإحياء الإمبراطورية الألمانية.

أما الفاشية التى سيطرت على الحكم فى إيطاليا فى النــصف الأول من القرن العشرين فهى بصورة عامة نظام أو أيدلوجية تمجد الدولة والعرق وتدعو إلى إقامة حكم أوتوقراطى مركزى يسيطر على كل شكل من أشكال النشاط القومى. وتعنى الأتوقراطية Autocracy حكم الفرد الذى له سلطان مطلق فى الحكم ، أو الجماعة التى تسيطر على إدارة شئون الدولة دون الرجوع إلى أى مؤسسات تشريعية أو دستورية، وتعتبر الأوتوقراطية عكس الديمقراطية . والفاشية فى اللغة الإنجليزية Facism ، وباللغة الإيطالية Fascismo مشتقة من كلمة Fascio الإيطالية، أو Fasces اللاتينية بمعنى الحزمة أو العصبة. استعمل مصطلح الفاشية بعد ذلك للتعبير عن الفلسفة/ العقيدة السياسية التى تمجد الدولة والعرق، والتى تدعو إلى إقامة حكم مركزى يترأسه زعيــم ديكتــاتورى

يسيطر على جميع أنشطة الدولة. استغل موسولينى هذه العقيدة ليمتطى حكم إيطاليا ويتحول إلى ديكتاتور تتركز جميع سلطات الدولة فى يديه فى دولة تحكمها المركزية.

هتلـــر:

ولد هتلر فى عام ١٨٩٠م فى بلدة نمساوية قريبة من الحدود الألمانية. كتب هتلر عن طفولته فى كتابه " كفاحى " ونشأته كطفل، والتى كان لها أثر ملحوظ فى تشكيل شخصيته: (بالرغم من صغر سنى كنت أفكر فى مستقبلى، فلم تستهونى مهنة ولم أكن أميل إلى الوظيفة.... كنت أجد فى نفسى موهبة القائد.... كنت أمضى أوقات الفراغ فى مكتبة والدى أنكب على مطالعة كتب التاريخ والمجلات المصورة، وفى ذات يوم عثرت على مجلة فيها وصف مدهش للحرب بين بروسيا وفرنسا، وكنت أتساءل وأنا أقرأ عن معارك الجيش البروسى المظفر، أين كان ألمان النمسا يومئذ ؟ .... ثابرت على دراسة فن الرسم وأهملت دروسى الأخرى، ولكن كنت متفوقا فى مادتى التاريخ والجغرافيا.... رسخت فى ذهنى ملاحظات أستاذ التاريخ إن النمسا جزء لا يتجزأ من ألمانيا.... توفيت والدتى بعد عامين من عودتى إلى معهد الفنون وأصبحت وحدى فى مفترق الحياة وأنا لم أزل فتى مراهقا، لا أملك ما يقينى شر العوز بعد أن تبدد المال الذى خلفه والدى خلال الأربعة أشهر التى قضتها والدتى وهى على فراش المرض.... كان على أن أعمل لأعيش، فذهبت إلى فيينا وكان سلاحى الوحيد الإرادة والتصميم على مواجهة المصير...) . يبين الميل إلى علم الجغرافيا رغبة هتلر للتوسع عندما أصبح قائداً – فيما بعد – أما الاهتمام بالتاريخ فهو الذى يزرع بذرة طموح القيادة والخوض فى الحروب تيمناً بعظماء القواد والغازين على مر التاريخ المكتوب. وكانت الظروف المالية

الصعبة التى عاشها مراهقا، حافزا له للتصميم على الوصول إلى مراتب أعلى وسط زخم التنافس البشرى، ومشكلا لنزعته الثورية.

التحق هتلر بالجيش أثناء اشتعال الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤، وانتهت الحرب وهو يعتقد بأن ألمانيا هُزمت بفعل العملاء والخونة اليهود والشيوعيين. بعد أن خرج هتلر من الجيش طلب العودة مرة ثانية ليضمن الغذاء والملبس والمأوى، وكانت مهمته أن يأتى لقيادته بأخبار الشيوعيين واليهود. انضم هتلر لحزب العمال الألمانى، ثم كون جماعة واختار لها شعارا هو الصليب المعقوف رمزاً للجنس الآرى النقى. وفى عام ١٩٢٠ أنشأ الحزب النازى وأطلق هتلر على نفسه اسم الفوهرر أى الزعيم، وانتشرت شارة الصليب المعقوف وأصبح للحزب النازى شرطة عسكرية تحت اسم "الجستابو" وكذلك جناحه المسلح الذى عرف بقوات العاصفة. قرر هتلر القيام بانقلاب مسلح، فاقتحم فى ٨ نوفمبر من عام ١٩٢٣ مكانا كان يجتمع فيه كبار قادة الجيش. وقف هتلر على إحدى الموائد ليعلن بداية الثورة الوطنية. أبرق هتلر إلى العاصمة برلين ليعلن انتصار الثورة الوطنية ويطلب تسليم السلطة إلى النازى. فشلت محاولة هتلر، وألقى القبض عليه وعلى الكثير من مجموعته، وفى أول أبريل من عام ١٩٢٤ أصدرت المحكمة قرارا بإدانته وحكمت عليه بالسجن خمس سنوات حيث كتب أثناء هذه الفترة كتابه الشهير "كفاحى".

خرج هتلر من السجن بعد أقل من سنة، وذلك طبقا لقانون العفو عن المسجونين، وأكمل كتابة " كفاحى " ونشره بعد ذلك. تعلم هتلر من تجربة السجن وقرر محاولة الاستيلاء على السلطة عن طريق الانتخابات، وكذلك الاعتماد على فصاحته وسحر بيانه وقدرته الخطابية. فى خريف عام ١٩٣٠ بدأت الحكومة البرلمانية الديمقراطية تنهار أمام الأزمة الاقتصادية التى شملت معظم دول العالم، وتمت دعوة الشعب الألمانى لانتخابات عامة فى سبتمبر من

نفس العام، وكانت دعاية هتلر فى هذه الانتخابات أن الحكومة النازية إن نجحت فى الانتخابات سوف ترفض الاستمرار فى دفع التعويضات للحلفاء، وكذلك إعادة الحياة إلى المصانع والشركات المغلقة، وضخ الأموال فى البنوك المفلسة. وعد هتلر أيضا بإيجاد عمل لكل ألمانى. استطاع هتلر أن يستميل الكثير من الشعب الألمانى، وفاز حزبه النازى بمائة وسبعة مقاعد فى البرلمان الألمانى "الرايخستاج" من بين أربعمائة وواحد وتسعين مقعدا.

جرت انتخابات الرئاسة فى ألمانيا ورشح هتلر نفسه وحصل على نسبة ٣٧٪ من الأصوات، وحصل الرئيس هندنبرج Hindenburg على نسبة ٥٣٪، أما المرشح الشيوعى فقد حصل على نسبة ٤٧٪ من المقاعد. فى الرابع من يناير عام ١٩٣٣ عقد هتلر اتفاقية مع "بابن"، فقد عقدت المجموعة المحافظة Conservative Group بقيادة مستشار ألمانيا السابق فرانتس فون بابن Chancellor Papen اتفاق تحالف مع هتلر لدخول الحزب النازى والمجموعة المحافظة الحكومة معا. لتشكيل حكومة يكون هتلر فيها هو المستشار، وبابن نائبه، وبذلك أصبح هتلر مستشاراً لألمانيا فى يناير ١٩٣٣. أصدر هتلر قراراً بوقف نشاط جميع الأحزاب عدا الحزب النازى، وألغى حرية الخطابة وحرية الصحافة، وأقام معسكرات الاعتقال وبدأ فى اضطهاد اليهود. حدث بعد ذلك خلافات داخل الحزب النازى، ووقع صراع بين قوات الصاعقة وبين هتلر فى عام ١٩٣٤، فقام على أثره بالاتفاق مع قادة الجيش على تصفية قوات الصاعقة مقابل أن يصبح رئيسا للجمهورية خلفا للرئيس هندنبرج الذى توفى. نفذ هتلر حكم الإعدام فى قادة العاصفة الذين حملوه إلى كرسى المستشارية، وأصبح رئيسا لألمانيا فى عام ١٩٣٤.

كان هتلر دائما ضد النظام الشيوعى واليهود، ومن سيرته الذاتية فى كتابه " كفاحى " يتضح جذور هذه الكراهية: (زاد عطفى على الاشتراكية الديموقراطية

اعتقادى بأنها تعمل من أجل الطبقة الكادحة كى ترفع من مستواهم. وبقيت على هذا الاعتقاد إلى أن بلغت السابعة عشرة وبدأت أتفهم خطورة الحركة النقابية فى البلاد على ضوء التظاهرات الشعبية والاضطرابات، وقد حضرت أكثـر مـن اجتماع وكان فى نيتى الانضمام إلى الحزب الاشـتراكى الـديمقراطى، ولكـن سرعان ما تكشفت لى حقيقته، فهو ضد الأمة وضد الوطن وأداة البورجوازيـة لاستغلال الطبقة الكادحة، وضد الشرائع لأنه أداة بيد السلطة الحاكمه تـستخدمها لإرهاب البروليتاريا، وضد الدين لأنه وسيلة لتخدير الشعب وإضعافه يـستعبده المستغلين إلى الأبد.... وكنت أثناء حضورى لهذه الاجتماعات أحاول ألا أتكلم، ولكن استرسال الخطباء فى هدم كل ما هو سام ونبيل أخرجنى عـن صـمتى، فصبحت أدخل معهم فى جدل طويل لم تتسع له صدورهم، فحرضوا علىّ نفر من المتعصبين، فآثرت عدم الحضور إلى اجتماعاتهم). لم يستطيع هتلر أن يجد له مكانا فى الاشتراكية الديمقراطية فى فيينا، بل قد تعرض للأذى من قبل أعضاء الحزب، فآثر الانسحاب، كامنا فى داخله كراهية ظلت ملازمة له فيما بعد.

جاءت كراهية هتلر لليهود بعد أن تبين أن اليهود وراء الحملات التى كانت تشنها الصحافة على الرايخ الألمانى – الامبراطورية – وكذلك موالاة الـصحف لفرنسا التى كان يعتبرها العدو الأساسى لألمانيا فى ذلك الوقت. كتب هتلر فـى "كفاحى": (أدركت مع الأيام أن أهداف الحركة الاشـتراكية الديمقراطيـة هـى نفسها أهداف اليهود كشعب واليهودية كـدين، والـصهيونية كحركـة سياسـية قوميه.... فى حداثتى كنت أعتبر يهود بلادى مواطنين، وكنت لا أعتبر الخلاف فى الدين، حتى إنى وبخت صديقا لى لإهانته أحد التلاميذ اليهود. وظلت نظرتى هذه إلى اليهود إلى أن انتقلت إلى فيينا.... كانت الصحف التى تهـاجم اليهـود قليلة الانتشار، والصحف التى تتولى الرد عليها كانت من الـصحف الكبـرى، ولكن سرعان ما ضايقنى تزلفها الشديد للسلطات وحملاتها العنيفة على الـرايخ

والامبراطور غليوم الثانى الذى كنت معجبا به لتزويده ألمانيا بأسطول بحرى من الطراز الأول، كما ضايقنى من الصحافة عطفها على فرنسا ونعتها بالأمة المتمدنة، وكنت أتساءل لمصلحة من هذه الصحف، ومن هم موجهوها ؟ فجاء الجواب فى الوقت الذى تكشفت لى فيه اليهودية على حقيقتها) .

كان يهود أوروبا من أشد المعجبين بفرنسا منذ أن قام نابليون بنشر حرية العقيدة محاولاً كسب اليهود إلى جانبه والاعتماد على أموالهم فى حروبه التى شنها فى أوروبا وفى الشرق الأوسط. ولما كانت فرنسا عدواً لألمانيا، فتولدت لدى هتلر كراهية لليهود. سببا آخر لهذه الكراهية وهو ارتباط الثورة الشيوعية فى روسيا باليهودية حيث كان معظم قادة الحركة البلشفية من اليهود . كتب هتلر فى نفس المرجع: (وقد توصلت نتيجة دراستى للمسألة اليهودية إلى تفهم الحركة الماركسية، ذلك أن اليهود هم الذين وضعوا مبادئها وتولوا الدعاية لها، وعرفوا كيف يستغلون جهود الذين كانوا ضحيتها).

اعتبر هتلر أن الفلسفة الماركسية لا تعترف بالعنصرية التى كان يتبناها، من تفوق الجنس الألمانى الآرى على باقى الأجناس البشرية. اكتسب هتلر هذه النعرة من فلسفة نيتشه عن عبادة القوة والقضاء على الإنسان الضعيف، وصورة الإنسان القوى " سوبرمان " Super – Man المتمثل فى الجنس الألمانى المميز. كتب هتلر فى سيرته الذاتية: (إن العقيدة اليهودية المعبر عنها فى التعاليم الماركسية لا تعترف بالمبدأ الأرستقراطى وتضع التفوق العددى محل القوة والمقدرة، وبالتالى تنكر قيمة الإنسان الفردية، كما تنكر أهمية الكيان القومى والعنصرى، مجردة للبشرية من العناصر التى لابد من وجودها لاستمرارها وبقاء حضاراتها).

اعتمد هتلر فى نشر مبادىء الحركة الوطنية الاشتراكية على الدعاية، وفن الخطابة الذى أتقنه. كان هتلر يرى أن المفكرين لا يصلحون أن يكونوا زعماء،

فكتب في "كفاحي": (يجب العمل على نشر الفكرة أولاً، وحين تجمع حولها عدداً ضخماً من المؤيدين، يمكن البحث عن الأشخاص المؤهلين للزعامة. ويخطئ من يعتقد أن العلوم النظرية تكفي للشخص بأن يصبح مؤهلاً لاحتلال مركز الزعامة، فالمفكرون قلما يصلحون للتنظيم لأن عظمة المفكر ومؤسس المنهج تقوم على المعرفة وسن القوانين، ولكن المنظم يجب أن يكون رجلاً عملياً مطلعاً على نفسية البشر ليعالج القضايا بشكل موضوعي، ولا يسقط من حسابه، في محاولته إنشاء منظمة حية، الضعف البشري والنزوات الحيوانية.... من النادر أن نجد صاحب فكرة مؤهلاً للزعامة، ولكن باستطاعتنا إيجاد زعماء بين صفوف المحرضين مثلاً، لأنهم يكونون أعلم من غيرهم بنفسية الجماهير نتيجة احتكاكهم بها. المفكر دائماً منطوٍ على نفسه، مستغرق في تأملاته، بمعزل عن الناس. فالتوجيه والقيادة يعنيان تحريك الناس أو الشعب، أما موهبة خلق النظريات والمبادئ فإنها لا تؤهل صاحبها للزعامة).

سيطرت على هتلر سياسة التوسع الاستعماري بغرض خلق الإمبراطورية الألمانية الجديدة بعد أن انتقل من فيينا إلى ميونيخ في ألمانيا عام ١٩١٢، فكتب في سيرته الذاتية: (لن ينقذ ألمانيا من خطر الجوع إلا الاستيلاء على أرض جديدة. والبلاد الصغيرة في مساحتها تبقى معرضة للمفاجآت العسكرية والسياسية، فالمساحة الكبيرة هي تجد نفسها عاملا أساسيا من عوامل الاستقرار، فكما امتدت أراضي شعب سهل الدفاع عنه، فقد رأينا أن الانتصارات السريعة كانت على أراضي شعوب مجالها الحيوي ضيق، بينما كان على العكس من ذلك بالنسبة للبلدان ذات المساحات الشاسعة، إذ إن قوة المهاجم تنهار قبل وصوله إلى هدفه البعيد.... يجب على كل فرد أن يكافح ليؤمن مايكفل له البقاء، وإن لم يتمكن بالمسالمة واللين فعليه بالقوة. ولو أن أجدادنا استسلموا وتخاذلوا، كما هي

عقلية جيلنا اليوم، لما كان لنا الآن ثلث أراضى وطننا الألمانى، ولولا نـضالهم لما قامت للرايخ أية قائمة).

ربط هتلر ما بين الماركسية كأيدلوجية سياسـية / اقتـصادية، واليهوديـة كعقيدة دينية، ونعتهما بأسوأ الصفات كما ورد فى كتابه " كفـاحى": (درسـت العلاقة بين الماركسية واليهودية، وتأكدت لى حقيقة اليهود ومراميهم فى إشـاعة الفوضى والخراب فى العالم ليتمكن هذا الشعب المختار من استغلال الفوضـى ويفرض مشيئته فى كل مكان... لقد أدركت خلال مشاهداتى فى فيينا وألمانيا أن الجمود المميت الذى سيطر على أمتنا كان بسبب جرثومة الماركسية الرهيبـة، والسموم التى كان ينفثها اليهود أساتذة الماركسية وحماتها... قـررت الاشـتغال بالسياسة واضعاً أمامى إنقاذ ألمانيا من عدوين: الماركسية واليهودية. إن غليـوم الثانى كان أول إمبراطور ألمانى مد يده إلى الماركسيين الذين صافحوه وبيـدهم الأخرى يخفون الخنجر المسموم...).

تأثر هتلر بفلسفة نيتشه عن الإنسان المتميز والقوى، فأسقط هـذه الفلـسفة على الجنس الآرى الذى تنتمى إليه الشعوب الألمانية، فكتـب فـى "كفـاحى": (التزاوج بين كائنين متفاوتى القيمة هو تحد لإرادة الطبيعة التى تسعى إلى رفـع مستوى الكائنات، وهذا لا يتحقق إلا بانتصار من اختـارتهم الطبيعـة، فـالقوى مدعو للسيطرة على الضعيف...أما إذا أقفلنا هذا المبدأ، فـلا يلبـث البـشر أن يعودوا القهقرى، إذ إن الصفوة ستضطر للتراجع أمام الكثرة التى تطغى بعـددها على الجودة والصفوة، فإذا تساوت إمكانيات البشر فى التوالد تفوق غير الأكفـاء على الأكفاء، ومن الواجب التدخل من أجل الصفوة، فتـدخل الطبيعـة بوضـع الشروط القاسية أمام الضعفاء لكى تخفف من عددهم، ول اتـسمح بالتناسـل إلا لمن تختارهم من بين الأصحاء والأقوياء... والطبيعة التى تأبى علـى الأقويـاء والضعفاء أن يتزاوجوا، فهى أيضا تحارب اختلاط الأعراق، لأن هـذا سـيعود

بالبشرية إلى الوراء، فالتاريخ يقدم إلينا أدلة عديدة على صحة هــذه النظريــة. فمثلا إن امتزاج الدم الآرى بدم شعوب وضيعة قد أدى إلى خراب الشعوب ذات الرسالة المتمدنة، فأمريكا الشمالية التى يتألف سكانها من العناصــر الجرمانيــة بأكثريتها لم تتمازج بالشعوب الملونة إلا بمقدار قليل، لذلك نرى أن حــضارتها تختلف إختلافا فعلياً عن حضارة أمريكا الجنوبية، حتى إختلط سكانها اللاتينيون بالسكان المحليين دون تحفظ... وخلاصة القول إن الاختلاط بين الأجناس يؤدى إلى تدنى مستوى الجنس المتفوق، وإلى تأخر روحى ومادى يؤدى فــى نهايتــه إلى التفكك والانحلال).

وكلمة آرى، أو آريان Aryan مشتقة من اللغة السنسكريتية ومعناها "السيد". ذهب المفكرون الغربيون الذين إعتنقوا مذهب التفرقة العرقية إلــى أن الجــنس الآرى انتشر من شمال الهند وإيران عبر الإستبس، إلى أوروبا، وهو جنس يتسم بالجمال والذكاء والشجاعة، وأنه يتفوق علــى الأجنــاس الأخــرى: الــسامى، والأصفر، والزنجى. كان هذا المذهب يرى أيضا أن النورديين – مــن شــمال أوروبا – هم أرقى الآريين، فهو القسم الذى يجب أن يتسيد جميع أجناس البشر.

يعود هتلر إلى سياسة توظيف العقيدة لإضفاء الجانب الدينى على نظريــة الجنس الآرى المتمـــيز، فيسترسل بقولــه: (فــالاختلاط هــو تحــد لإرادة الخالق، وتحديا لمنطق الطبيعة... إن الحضارات الكبرى التــى انهــارت فــى الماضى كانت بسبب سريان الدم الفاسد فى عرقها الخلاق. إن الحضارة هى من صنع الإنسان، وليس الإنسان من صنع الحضارة، لذلك فالحفاظ على الحــضارة يتطلب الحفاظ على الإنسان، وهذا يرتبط بحق الأصلح، والأقــوى فــى البقــاء والتفوق والسيادة).

كان هتلر يرى أن الإمبراطورية الألمانية يجب أن تقوم على شــعب قــوى بدنيا، ومحافظ على صحة أفراده:(يجب على الدولة العنصرية أن تنطلــق مــن

مبدأ: الرجل السليم الجسم، القوى الإرادة، المقدام هو العضو النافع للمجتمع. كما أن شعبا من العلماء الضعفاء جسديا، الضعفاء الإرادة، المبشرين بسلام مثبط للعزيمة – أن شعبا هذه صفاته يعجز حتى عن توفير ما يكفل بقاءه على هذه الأرض وفى الجهاد الذى يحتمه علينا القدر.... إن العناية بتقوية الأجسام هى من أولى خصائص الدولة العنصرية، وذلك لارتباطها الوثيق بصيانة العرق أو الشعب الذى تمثله هذه الدولة وتحميه... الدولة العنصرية ستعلم النشء الجديد أن الإخلاص ونكران الذات والتحفظ فضائل يجب أن يتحلى بها كل شعب عظيم. كما ستدعو المربين إلى تدريب التلاميذ على تحمل الألم والظلم بصمت ورباطة جأش، ولكى تجعل منهم فى المستقبل جنوداً ثابتى الجنان، قادرين على أداء واجبهم فى أشد الظروف وأقسى الحالات... سيكون من مهام التربية فى الدولة العنصرية العمل على تنمية قوة الإرادة وروح الإقدام ومواجهة المسئوليات). كان هتلر يتطلع إلى خلق شعب مخلص لعقيدته، مطيع له، يستطيع به تنفيذ سياسة القوة التى يؤمن بها لسيطرة إمبراطوريته العنصرية على شعوب العالم، فقاد أوروبا والكثير من دول العالم إلى الدمار.

أشعل هتلر نار الحرب العالمية الثانية، ونشبت المعارك، وتوالت الأحداث السياسية والعسكرية على مر سنوات الحرب حتى جاءت النهاية. دخل الروس العاصمة الألمانية برلين، وأصبح الألمان يقاتلونهم فى كل شارع وفى كل بيت، وكان هتلر فى تلك اللحظات الأخيرة والحاسمة يشعر بالخيانة، يصيح دائما: لقد خاننى الجميع. كانت عشيقته إيفا براون بقربه فى مخبأه الحصين، تواسيه وتشجعه بقولها: إنك لست وحيدا، فأنا معك، وسأكون معك إلى الأبد بينما كان هتلر يداعب كتفها بعاطفة أبوية لم يعرفها فى حياته إلا وهو على عتبة الموت.

قبل وفاته بساعات أراد هتلر أن يكافئ عشيقته المخلصة، فجمع حوله رفاقه فى الملجأ وأعلن أنه سيتخذ من إيفا براون زوجة له، وسجل عقد الزواج

فى مخبأه. فى اليوم التالى وفى الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم ٣٠ أبريل عـــام ١٩٤٥، انتحر هتلر بعد أن أطلق على نفسه الرصاص، ثم تبعته إيفــا بتنـــاول السم. جاء فى كتاب كفاحى نص المشاهد الأخيرة من حياة هتلر يقــول الكــابتن بولدت، وهو أحد سكان الملجأ آنذاك: (.... وفى الحقيقة، كنــا جميعــا ننتظــر الساعة التى ينتحر فيها هتلر كى نتمكن نحن من مغادرة الملجأ. وأخيرا اجتمــع كل سكان الملجأ حول مائدة الطعام، لآخر مرة. وكانت إيفا شاحبة الوجه شاردة النظر. أما هتلر فكان يرتدى، كعادته، بنطلونا أسود وبلوزة غبراء، وقد اصـــفر لونه وماتت الحياة فى نظراته. وطال الصمت الكئيــب الخــانق، فلــيس بــين المجتمعين من يعرف أى موضوع للحديث... فى مثل هذه الظروف وفى نهايـــة الطعام، انتشرت رائحة مادة محرقة، فنظر الحاضرون بعــضهم إلـــى بعــض. وعرفوا أن اليوم الذى هم فيه إنما هو اليوم الذى قرر هتلر أن ينتحر فيه، وأنـــه لابد من وجود كمية كبيرة من المواد المحرقة كى تكفى لأن تحول جسم الإنسان إلى رماد خالص. وأخيرا، نهض الجالسون جميعا، وجعل هتلر يــصافح آخــر رفاقه واحداً واحداً، متمتما بكلمات وعبارات غير مفهومة. ووقفــت إيفــا وراءه تراقب ما يجرى، ويداها منقبضتان، فهى تريد أن تسرع فى لقاء الموت دون ما هى فيه من آلام ! غير أنه كان عليها أن تتحمل ما هو أقسى وأصــعب. كــان عليها ان تتحمل رؤية مدام جوبلز وهى تتخبط فى نوبة عصبية هائلة وتــصيح: ماين فوهرر ! لا تفعل ذلك ! لا تنتحر ! فنحن بحاجة إليك ! ألمانيا بحاجة إليــك ! ألمانيا بحاجة اليك ! ماين فوهرر ... ثم كان عليها أن تنتظــر ريثمــا ينتهــى زوجها من إتلاف أوراقه. وبعد ذلك كله، كان عليها أن تصافح بــدورها جميــع الحاضرين وتخفى دموعها ولم تفتها القوة لأن تقول للآنــسة جنــك آخــر مــن تستطيع أن تسر إليها بما فى نفسها... ثم عادت إلى زوجها الواقف أمـــام بـــاب حجرته، فانحرف قليلا لكى تدخل الحجرة قبله. ثم دخل وراءها وأغلق البـــاب. ووقف الحارس كينش أمام المدخل بكامل سلاحه واستعداده. أمـــا الحاضـــرون

فعادوا جميعهم إلى حجراتهم. ومرت دقائق... دوت على أثرها طلقة نارية ! أما إيفا ، فلم تطلق على نفسها النار، لأن وهن القوى والخوف اللذين ألما بها بعد أن تناولت السم، كانا كافيين لأن يقضيا عليها فى الحال دون أن تملك من القوة ما يجعلها قادرة على أن تضغط زناد المسدس ...).

وانتهت قصة أكبر مأساة فى القرن الحديث، تسبب فيها إنسان سعى إلى توظيف عقيدة الامبراطورية الالمانية التى لا تقهر، والشعب الآرى المميز على جميع أجناس البشر.

موسولينى:

ولد بنيتو موسولينى فى ريف دوفيا بإيطاليا فى عام ١٨٨٣، فى أسرة فقيرة، وكان أبوه اشتراكيا فوضويا Anarchist ، أما أمه فكانت مدرسة . فشل موسولينى بعد الحصول على دبلوم المعلمين، فى الحصول على وظيفة مدرس إبتدائى، كما لم ينجح فى الحصول على وظيفة سكرتير بلدية بريدابيو. عين موسولينى أخيرا مدرسا احتياطيا فى مدرسة إبتدائية فى عام ١٩٠٢، ولكن لم يستمر عمله طويلا لطرده بعد فضيحة تسببت فيها علاقته بسيدة متزوجة. قرر موسولينى فجأة السفر إلى سويسرا فى مغامرة جديدة، وتعطشا لاكتشاف عالم جديد، وظل بها لمدة سنتين. بدأ موسولينى الكتابة فى صحيفة الإشتراكيين الإيطاليين فى سويسرا، واشتهر بسبب هذه المقالات، وصداماته مع ما تنشره الصحف الإيطالية.

عاد موسولينى إلى إيطاليا فى عام ١٩٠٤، وكان قد اشتهر بسبب مقالاته، ثم قضى عامين فى الخدمة العسكرية. بعد أن قضى موسولينى مدة عام فى العمل كمدرس، بدأ ممارسة نشاطه السياسى بنشر مقالات له فى المجلة الاشتراكية الأسبوعية " لاليما ". كانت مقالات موسولينى عن خبراته فى سويسرا، ومعاداته لرجال الدين سببا فى ازدهار شهرته، وأصبح فهمه لاستعمال

القوة أكثر عمقا كما جاء فى قوله: (إن الأفكار ليست مفاهيم مجردة بل قوى ملموسة. وعندما تسعى الفكرة إلى تحقيق نفسها فى الواقع لا يتم ذلك إلا من خلال الظواهر العصبية والعضلية والعضوية).

شارك موسولينى فى أحداث شغب حدثت فى عام ١٩٠٨، وحكم عليه بالسجن لفترة قصيرة فزادت شهرته. عُين موسولينى فى وظيفة رئيس تحرير جريدة " لافينيرى " فى تورينو، متخذا اتجاها عنيفا ومتطرفا فى حملاته الصحفية مثل قوله: (علينا أن نخلق إيطاليا جديدة وعظيمة تختلف عن إيطاليا الباباوات والأباطرة... أى إيطاليا المفكرين التى لم تظهر حتى الآن، أو نترك الأمور تسير على ما هى عليه لتترك وراءها بصمات هزيلة سرعان ما تمحوها الأيام). تم اعتقال موسولينى فى سبتمبر ١٩٠٩ بتهم عديدة، منها كراهية واحتقار سلطة الدولة، ثم قامت السلطات بإخراجه من السجن بعد أن هدد الاشتراكيون بالقيام بالإضراب العام، وتم إبعاد موسولينى إلى مقاطعة فورلى فى أكتوبر من نفس العام.

كان انتقال موسولينى إلى فورلى نقطة تحول رئيسية فى مستقبله الشخصى والسياسى كديكتاتور. كانت الاشتراكية فى فورلى تمر بأزمة حرجة فى ذلك الوقت لافتقارها للقيادة القوية، فأتاح هذا الوضع لموسولينى فرصة ليتولى رئاسة تحرير الجريدة الأسبوعية "الصراع الطبقى"، ومنصب سكرتير اتحاد المقاطعة فى نفس الوقت. بدأ موسولينى العمل بحل الخلاف المحتدم بين الاشتراكيين والجمهوريين، محاولا إعادة بناء هوية الحزب السياسية بحشد طاقات التطرف، ونبذ الأحلاف والتكتل مع الحزب الجمهورى. نجح موسولينى محليا فى مقاطعة فورلى، ثم فى المؤتمر القومى المنعقد فى ميلانو فى أكتوبر ١٩١٠، فبايعه المشتركون فى المؤتمر كزعيم محلى للمقاطعة.

قرر الحزب الإشتراكى أثناء انعقاد مؤتمر ريجيو إميليا فى يوليـو ١٩١٢، دعم الاتجاهات المتطرفة، وكان لظهور موسولينى فى المـؤتمر تـأثير كبيـر لاتجاهه الثورى، مما أدى إلى ترشيحه لمنصب رئيس تحرير جريـدة الحـزب الاشتراكى "الأفانتى"، مما زاد من شعبيته. أدرك موسولينى بفطرته أنه من أجل إنعاش الحزب يجب الاتصال بأوساط تختلف عن العمال والحـرفيين البـسطاء المتهورين الذين ينتمون إلى الحزب الاشتراكى، فحث على ضـرورة اسـتمالة الغوغاء. نجح الخط السياسى الجديد للحزب الاشتراكى فارتفعت نسبة تمثيله فى البرلمان من ١,٨٪ إلى ٣,١٪ فى عام إنتخابات ١٩١٣.

قامت الحرب العالمية الأولى فى أوروبا فى عام ١٩١٤، وظهـرت نغمـة جديدة فى مقالات موسولينى عن الانتفاضة الشعبية، ونهاية الهدنة الاجتماعيـة، وضرورة قيام اتحاد سياسى للحركة العمالية. فى بداية الحرب، كان موسـولينى يؤيد الحياد التام، ثم سرعان ما اتجه إلى التلوين السياسى، فكتـب فـى جريـدة "الأفانتى" مقالا بعنوان " من الحياد التام إلى الحياد الإيجابى والاستراتيجى " جاء فيه: (إن تجنب الحرب لا يتأتى إلا بقيام ثورة تسقط الدولة). شعر موسـولينى بذكائه السياسى وألمامه بسيكولوجية الجماهير أن الحزب الاشتراكى – بـسياسة الحياد فى الحرب – قد انتهى، فاستقال من رئاسة تحرير " الأفـانتى " وأصـدر جريدة أخرى تحت اسم " ال بوبولو دى إيطاليا "، مكونا مجموعة من أنـصاره يؤمنون بالفاشية.

اعتقد موسولينى أن الحرب قد تؤدى إلى انهيار نظام الحكم فـى إيطاليـا، وبالتالى قد يستطيع السيطرة على خيوط النظام السياسى، والقفز إلـى الحكـم. استدعى موسولينى للخدمة العسكرية، ولكنه جرح أثناء الحرب فى عام ١٩١٧، وعاد مرة ثانية لتحرير جريدته. فى أغسطس ١٩١٧ اختفى من رأس جريدتـه شعار " جريدة اشتراكية " ليحل محله شعار "جريدة المناضلين الكـادحين". فـى

عام ١٩١٨ وضعت الحرب أوزارها، فاتجه هدف موسولينى إلى تعاون الطبقات المختلفة، وقيام الكادحين من العمال والفنيين وغيرهم بتلبية احتياجات الرأسمالية الإنتاجية. ظهرت بذرة الفاشية كحركة سياسية منظمة فى ظل شعار "التصالح الطبقي". كتب موسولينى فى هذا الاتجاه: (إن الكد لا يكون إلا باجتهاد، ونظام، ومثابرة، وإصرار لصالح الطبقة العاملة قبل كل شيء... إذ علينا احترام الكادحين لأن سرعة إعادة البناء بعد الحرب تعتمد عليهم... ونجد من بين الرأسماليين من يدرك طبيعة مهمته التاريخية فيغامر، كما نجد بين العمال من يدرك حتمية مهمته الرأسمالية ومزاياها). كانت آراء موسولينى متفقة مع برامج أصحاب المصانع فى إيطاليا فى فترة ما بعد الحرب، مما أدى إلى التوسع فى قطاع الصناعة فى البلاد.

بعد أن فشل فى انتخابات ١٩١٩، استطاع موسولينى دخول البرلمان فى عام ١٩٢١ كعضو فى الجناح اليمينى. لقد نجح موسولينى فى استغلال تحالفه مع السياسى العجوز جيولينى الذى أراد أن يستخدم الفاشية كمخلب قط آملا فى تحويلها إلى مؤسسة دستورية صغيرة يسهل احتواءها فيما بعد. من خلال هذا التحالف استطاعت الفاشية بقيادة موسولينى دخول انتخابات ١٩٢١ ضمن قائمة الكتل القومية الحكومية إلى جانب المعتدلين والقوميين والليبراليين، وقطاع كبير من رجال الأعمال وملاك الأراضى الزراعية. كان موسولينى الأكثر استفادة من هذه اللعبة المتبادلة، لأنه كان يملك عنصر استعمال القوة الحاسم، قوة الغوغاء والثورة. بعد انتهاء المعركة الانتخابية التى سقط فيها ما لا يقل عن مئة من القتلى، فازت قائمة التكتلات القومية بعدد ٢٤٥ مقعدا، كان نصيب الفاشيين والقوميين منها ٤٥ مقعدا، بالرغم من أن حصة الفاشيين من الأصوات الانتخابية لم تتجاوز ٧٪. فى هذه الإنتخابات حصل الحزب الاشتراكى على ١٢٢ مقعدا، والحزب الشيوعى الجديد على ١٠٧، أما حزب الشعب الكاثوليكى فقد حصل

على ١٧ مقعدا. كانت مؤشرات نتيجة الانتخابات تدل على أن الشعب الإيطالى يتجه إلى التغيير السياسى، معلنة صعود حزب جديد وهو الحزب الفاشى.

استمر موسولينى فىممارسة لعبة " العزف على جميع الأوتار " التى أثبتت نجاحها وفعاليتها. مدح فى أول خطبة له فى البرلمان الديموقراطية، مهاجما الاشتراكية، مؤيداً الاقتصاد الحر، فقال: (ليست الرأسمالية نظاماً قمعياً بل نخبة من القيم والقدرة على التنسيق بين الفئات المختلفة والحس الواعى بمسئولية الفرد... لقد منحتنا الدولة شرطة تحمينا من اللصوص، ونظاما قضائيا محكما، وجيشا مستعدا لمواجهة كافة الاحتمالات، وسياسة خارجية ترعى الأمانى القومية، أما فيما عدا ذلك من الأمور – لا أستثنى التعليم الثانوى – فمسئولية الأفراد والقطاع الخاص). وفى مجال آخر من مغازلة موسولينى للكنيسة – قبل الانقلاب عليها – كان يصرح: (إن الفكرة العالمية الوحيدة السائدة فى روما اليوم تلك التى تصدر من الفاتيكان). كان أيضا يبدى استعداده للتصالح مع الاشتراكيين لخوفه من اتساع رد فعل الطبقة العاملة المسلحة. ضمن موسولينى بهذا الخط السياسى تأييد أهم مراكز القوة فى إيطاليا، يعدو بخطوات سريعة نحو الحكم الديكتاتورى المطلق. لقد كان موسولينى يعترف صراحة بطموحاته حين يقول: (الفاشية حشد ممتد من الطاقات المادية والمعنوية... وهدفها بصراحة هو الحكم، وبرنامجها هو القيام بكل ما يلزم لضمان عظمة الشعب الإيطالى المادية والأدبية).

كانت الخطوة التالية لموسولينى تغليف أهدافه الطموحه فى الحكم الديكتاتورى بغلاف من المصداقية، وأن يحيط خطه السياسى المستند إلى القوة والعنف بإطار من الوقار. بدأ موسولينى سياسة التحالفات السياسية، وقيامه بتقديم تنازلات عديدة فى النواحى الدستورية لحلفائه. دعا ملك إيطاليا موسولينى لتشكيل الحكومة الجديدة التى تولت مهامها فى ٣٠ أكتوبر عام ١٩٢٢. بدأ

موسولينى الإجراءات السياسية والاقتصادية لتنفيذ سيطرة الفاشية علـى جميـع أمور الدولة، وذلك بدمج قوى البورجوازية من أفراد الطبقة المتوسطة فى كيان سياسى موحد يخضع لسيطرة جهة واحدة مركزية توجـه الحـزب والحكومـة والدولة. أصبح هدف موسولينى تأسيس حزب ذى إيدلوجية جديدة يـضمن بـه هيمنة البورجوازية على الطبقات الأخرى داخل مجتمع موحد ومتماسك. كانـت خطوة موسولينى التالية ضد النظام البرلمانى ومؤسسات الدولة الليبراليـة مـن خلال احتكار الحزب الفاشى الجديد للتمثيل البرلمانى. عادت نغمة استخدام القوة إلى الظهور فى أحاديث موسولينى، فكان من أقواله: (سأقوم على قدر الإمكـان بممارسة الحكم بعد حصولى على إجماع رأى المواطنيين، ولكن حتـى يتكـون هذا الإجماع وينمو ويقوى سأحتفظ بأكبركم من احتياطى القوة).

بالرغم من فشل الفاشيين فى تحقيق نجاحا كاسحا فى انتخابات عـام ١٩٢٥ إلا أنهم حصلوا على معظم المقاعد البرلمانية وفقا لقانون قد تم تفصيله فى يوليو ١٩٢٣ عرف باسم قانون " أتشربو"، ينص على فوز القائمة الحاصلة على ٢٥٪ من الأصوات بثلثى المقاعد، بينما لا يزيد نصيب المعارضة عن الثلـث مهمـا كانت نسبة الأصوات التى تحصل عليها. عند إفتتاح البرلمان فى مـايو ١٩٢٤ طالب نائب إشتراكى معارض ببطلان نتائج الانتخابات واتهم الفاشيين بالتزوير. تم اغتيال النائب الاشتراكى فى شهر يونيو، فاجتاحت البلاد موجة عارمة مـن الغضب والاستنكار اهتز لها النظام الفاشى. حاول موسولينى التضحية بمعاونيـه المتورطين، واستخدم أخلصهم كباش فداء. نظرا لشعبية موسـولينى وإحكامـه السيطرة على مواقع القوى فى البلاد، لم يقم ملك ايطاليا بإقالته، ولكـن اسـتعاد موسولينى قدرته فى التحكم فى مجريات الأمور فيما بعد.

فى عام ١٩٢٥، وبعد مرور عام على أزمة ١٩٢٤ أصبح الحزب الفاشـى يسيطر على الأوضاع الداخلية تماماً. عاد موسولينى إلى غطرسته، فكان يتقـول

عن ترحيب الشعب بإجراءات القمع العنيفة التى كان يمارسها ضــده: (تــشعر جماهير الشعب الإيطالى العريضة بالسعادة من العودة إلى استعمال الحــزم، لأن الشعب الإيطالى مثل الشعوب التى تتذوق الجمال يحب الخطوط الواضحة ويقدر الاتساق فى التعبير، لذلك لن يتقبلنى الشعب إذا أنا تلونت كالحرباء). ويقول فى أكتوبر من نفس العام: (أن النظام لن يسقط إلا بالقوة، وأن مــن يتــصور أنــه يستطيع إسقاطه بمؤامرات رخيصة تحاك فى الظــلام أو بــسيل متــدفق مــن القاذورات المكتوبة فإنه يخدع نفسه). تحولت منظومة القوى ناحيــة الفاشــية، وكان من نتائج تصفية أعداء النظام الفاشى تحقيــق النجــاح الــدولى، فأيــدت الولايات المتحدة وإنجلترا الحكومة الإيطالية، كما ساهمت القروض المــصرفية التى أجازتها الولايات المتحدة فى عام ١٩٢٦ فى إستقرار النظام السياسى. لقــد التقت الأيدلوجية الرأسمالية فى الولايات المتحدة مع النظام الفاشى الــذى هــزم اليــسار والاشــتراكية فــى إيطاليــا، وشــجع فــى نفــس الوقــت عناصــر الرأسمالية الإيطالية.

أصدر موسولينى مجموعة من القوانين التى تكفل حماية النظــام مــن أى تمرد قد تقوم به التيارات المعارضة. ألغت قوانين موسولينى حقوق المعارضــة فى التجمهر السياسى، كما أصبح بحكم القانون أن تقوم الدولة بعمليات تطهيــر تستبعد بموجبها من تشك فى ولائهم من الموظفين وتستبدلهم بعناصــر مواليــة للفاشية. تم اعتماد ديكتاتورية الدوتــشى Duce بــصدور قــانون ١٨ نــوفمبر ١٩٢٥ والذى ينص على واجبات وامتيازات رئيس الحكومــة والــذى تحــول منصبه إلى المصدر الرئيسى لسلطة الدولة . وتعنى كلمة الدوتشى- أى الزعيم- الرجل الذى يملك كل مقاليد الحكم والقوة والذى يكون دائماً على حق، والذى فى إمكانه حل جميع المشاكل الاقتصادية والسياسية. فى ٣١ يناير من عــام ١٩٢٦ صدر قانون يسمح للسلطة التنفيذية بإصدار التشريعات، كما أصبحت قــرارات

موسولينى لا تخضع لأى رقابة برلمانية. ألغى موسولينى اللامركزيـة وكافـة أنواع الاستقلالية المحلية، كما أصدر قانون الـصحافة الـصارم للـتحكم فيهـا بيد من حديد.

تعرض موسولينى فى عام ١٩٢٦ إلى ثلاثة محاولات لاغتياله، ففى أبريل أطلقت سيدة إيرلندية عليه النار من مسدسها فأصيب بجرح سطحى فـى أنفـه، وفى سبتمبر ألقيت قنبلة بدائية على حرسه، أما المحاولة الثالثة فقد كلفت شخصا بريئا حياته عندما انقض عليه السكادريستى ومزقوا جسده ظنا منهم أنه الجانى . والسكادريستى تطلق على العصابات الفاشية المسلحة التى كانت تستخدم العنـف لإرهاب المعارضين للحزب الفاشى. استغلت المحاولة الأخيـرة لـدعم جهـاز النظام القمعى، ففى شهر نوفمبر أعلن بطـلان حـق ١٢٣ نائبـا مـن نـواب المعارضة فى الاحتفاظ بمقاعدهم فى البرلمان، كما صدر فى نفس الشهر قانون حماية الدولة والذى ينص على توقيع عقوبة الإعدام على مـن يحـاول اغتيـال رئيس الحكومة، وبناء على ذلك تم تشكيل محكمة خاصة من قضاة عـسكريين للنظر فى جرائم معاداة الفاشية. فى عام ١٩٢٧ أعاد موسولينى تشكيل جهـازه البوليسى السرى القمعى لرفع كفاءته. شملت النظم القمعية الطبقة العاملـة، فقـد اضطر العمال إلى قبول تخفيضات كبيرة فى أجورهم عندما واصـلت الفاشـية هجومها على حقوقهم النقابية تحت ضغط الضائقة الاقتصادية، وفى نفس الوقت زاد وقت العمل تسع ساعات.

بحلول عام ١٩٢٧ أصبح موسولينى أقوى السياسيين الذين عرفتهم إيطاليـا المتحدة فى تاريخها بحكم مناصبه كرئيس للحكومة، ووزير للداخلية والخارجية، وقائد للجيش والطيران والبحرية، ورئيس للحزب، وزعيم للفاشية. لقـد أثبـت موسولينى نفسه كمؤسس لسلطة استبدادية، وديكتاتورية متحكمة، ولكنـه تقبـل استمرار الملكية وتجنب المساس بالكنيسة الكاثوليكية. لم يحاول النظام الفاشـى

التعرض لسلطة الفاتيكان الدنيوية، حتى يجمل صورته داخليا وعلى الصعيد العالمى. لقد استطاع موسولينى توظيف العقيدة الدينية للحصول على اعتراف الفاتيكان بالنظام الذى فشلت كل حكومات إيطاليا الليبرالية فى الحصول عليه منذ عام ١٨٧٠. إذا كان موسولينى يسمى سياسياً برجل الدولة فإن بابا الفاتيكان قد أطلق عليه "رجل القدر". وإذا كان بابا روما وموسولينى قد تبادلا المديح والغزل، فإن الأخير لم يتورع عند الخلاف أن يقول: (إننا ياسادة لم نحى البابوية بل دفناها.... فإذا كانت الدولة الفاشية كاثوليكية الملة، فهى فاشية أولاً وأخيراً حتى النخاع).

استطاع موسولينى أن يخلق أسطورته من خلال كثرة التلوين فى شخصيته ومظهره وقراراته. كان يسعى فى الظهور فى أدوار مختلفة، فتارة فى دور الطيار وتارة أخرى فى دور الفلاح أو الأديب، أو الفيلسوف أو الرياضى. كان يأخذ جميع الأمور بجدية مفرطة دون أن ينتقد ذاته أو الإحساس بالسخرية أو نقد الآخرين، فكان أحياناً يظهر على رأسه قبعة قبيحة الشكل، أو مرتدياً ملابس العمال، أو يسمح بالتقاط صور له وهو عارى الصدر أثناء درس القمح فى مستنقعات، وذلك لمجرد الاستعراض واستغلال سذاجة الجماهير والغوغاء. كان موسولينى يدرك جيداً خطورة حركاته المسرحية، كما يظهر فى قوله: (إننى لا أريد أن يضعونى قبل الأوان فى عالم غيبى محاطاً بأساطير غامضة أو كاذبة أو تقليدية)، ولكن فى نفس الوقت دفعه إفلاسه الثقافى إلى الاستسلام لعبادة شخصه، مستمداً شعوره بالقوة من نظام قمعى /فاشى/ بوليسى . لقد تمكنت منه آفة الغرور، كما يتضح فى ندائه لمؤتمر قال فيه: (كنت قد طلبت منكم أن تكفوا عن التعلق بشخصى، ولكن ذلك يبدو الآن مستحيلاً لأن كل حركة سياسية عظيمة تحتاج إلى من يمثلها وإلى من يستشعر حماسها ويحمل شعلتها). غذى الغرور آفة أخرى أشد عيثا وفساداً وهى آفة النفاق والرياء، فنجد خطاب

سكرتير الحزب الفاشى فى يناير من عام ١٩٣٣ يتضمن: (أن الدولة اليوم يا سيادة الرئيس ليست سوى الإيمان بموسولينى لأننا لم نصل إلى المرحلة التى تمنح فيها الدولة القوة للإنسان، بل ما زال الإنسان هو الذى يمنح الدولة قوتها. ولنا أن نتصور مايمكن أن يحدث لو اختفى هذا الإنسان).

كان موسولينى يرتاب فى كل منافس محتمل، فكان دوماً إما أن يقضى على القيادات أو يذويهم فى الظلال، دون أن يبنى كوادر جديدة. وكان تدخله فى خلافات مرءوسيه فى الحزب أمراً مألوفاً، وسرعان ما تتحول هذه الخلافات إلى تصفية للحسابات الشخصية، وإظهارا لاستمرار النضال السياسى. كان موسولينى ينتظر حتى ينهك الخلاف كلا من طرفيه، وحتى تخور قواهما وتنهار قدرتهما على الجدل والصراع، ثم يصدر قراره. ساعد موسولينى فى تحقيق دوافع سياسته الجماهيرية الانتهازية جهاز الدعاية القوى والكفء، والذى برز نشاطه خاصة أثناء الأزمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٣٠، حيث استطاع استعادة تأييد الشعب الإيطالى الذى زعزعته كوارث الأزمة الاقتصادية التى طالت أبناء الطبقة العاملة. يدعى موسولينى فى أثناء هذه الأزمة: (أن من حسن الحظ عدم تعود الشعب الإيطالى حتى الآن على تناول أكثر من وجبة فى اليوم، وأنه لا يشعر بالحرمان الناتج من تواضع مستوى معيشته... وأن الطبقات الغنية وحدها التى لا تكف – بأنانيتها – عن الصراع لأنها لا تملك إلا سيارتين فقط).

فى زمن الأزمة الاقتصادية، تكررت التجمعات والمظاهرات فى ساحات تزدحم بالناس بإيعاذ من النظام الفاشى لتمثيل مناخ من الحماس المصطنع، ولاستخدام الجماهير كأدوات طيعة فى يده لامتصاص التذمر والسخط الناتجين من الأزمة الاقتصادية. استخدم موسولينى الصحافة للدعاية لنظامه مستخفاً بها فى نفس الوقت، وذلك فى قوله: (إن الصحافة الإيطالية صحافة حرة لأنها تخدم نظام واحد وتدافع عن قضية واحدة). ثم يخاطب اتحادات الطلبة قائلاً: (إنكم لا

تنهلون من فيض العلوم فحسب، بل إنكم مبشرون وكهنة ورجـــال تقـــع علـــى أكتافهم أخطر المسئوليات وهى دراسة آليات عمل الفكر والضمير والوجدان).

مثل هتلر كان موسولينى له تطلعات استعمارية، فإذا كانت تصريحاته نحو السياسة الخارجية – على حد قوله – تهدف إلى: (تجنب الحرب وتوفير نفقاتهـــا الباهظة)، فإنه كان يتبع ذلك بقولــــه: (إن لسياسة إيطاليا الخاصة بالـــدانوب وشرق أوروبا أهمية حيوية. إننا نحاول استغلال كل شبر فـــى أرضـــنا ولكنهـــا سرعان ما تكتظ بالسكان). تتضح الأسس الاستعمارية الخاصة بالعقيدة الفاشـــية فى مقال كتبه عن المذهب الفاشى فى عام ١٩٣٢، وجـــاء فيـــه: (أن الدولـــة الفاشية تعنى التطلع إلى السلطة والقوة والسيطرة. والتقاليد الرومانيـــة القديمـــة مبنية على مبدأ القوة. إن مفهوم الإمبراطورية فى المذهب الفاشى ليس مفهومـــاً جغرافياً أو عسكرياً أو تجارياً فحسب بل إنه مفهوم أخلاقى ووجدانى أيـــضاً). إذا كانت إيطاليا قد أعلنت ضم ليبيا إليها فى عام ١٩١٢ بعد أن هزمت الأتراك اللذين كانوا يتحكمون فى شمال أفريقيا منذ القرن السادس عشر، فإن موسولينى قد غزا إثيوبيا فى أكتوبر من عام ١٩٣٥ بحرب إبادة اســـتخدم فيهـــا القـــصف الجوى والغازات السامة، ليقضى على القوات الحبشية بالكامل، وتدخل القـــوات الإيطالية العاصمة أديس أبابا فى مايو ١٩٣٦. يقول موسولينى فى مـــايو ١٩٣٧ احتفالا بإمبراطوريته الاستعمارية، وبعد مرور عام على انتصاره فـــى أثيوبيـــا: (تدور الاحتفالات بمناسبة مرور عام على تأســـيس الامبراطوريـــة الرومانيـــة الحديثة فى جو من شعور الشعب العارم بالفرح، وفى ذهوله ما يبرره، وفى ظل ثلاثة شعارات تبشر بالخير وهى: المجد والقوة والسلام).

كان هتلر من أشد المعجبين بموسولينى الذى كان يكبـــره بحـــوالى ســـت سنوات. كان موسولينى يرفض مقابلة هتلر بالرغم من إلحاحه المـــستمر علـــى طلب المقابلة خلال عامى ١٩٣١، ١٩٣٢ . كان موسولينى يظهر تبرمـــه مـــن

احتكار النازية لأسطورة التفوق العرقى فيتباهى فى عام ١٩٣٤ بقوله: (إن ثلاثين قرناً من التاريخ تسمح لنا بالنظر بثقة ورثاء إلى تلك المذاهب السياسية التى ظهرت على الجانب الآخر من الألب بين شعوب تتحدر من قبائل لم تكن تعرف الكتابة حتى تدون تاريخها فى الوقت الذى كانت تفخر فيه روما بأغسطس وقيصر وفيرجيل). برغم الاختلاف اجتمعتا النازية والفاشية نحو تحقيق أهداف مشتركة مثل محاربة الشيوعية والاكتفاء الذاتى. كان التوسع لإحياء إمبراطوريتين انتهى دورهما هو العامل الثانى الذى جمع بين النظامين النازى والفاشى. كان النظامان يسعيان أيضا لتحويل واقع الصراع داخل أراضيها إلى صدام وصراع مع الدول المجاورة. كان تدخل البلدين فى الحرب الأهلية الإسبانية تحت عقيدة محاربة الشيوعية خطوة أخرى مهمة على طريق التقارب بينهما. زار موسولينى برلين فى سبتمبر من عام ١٩٣٨، وانبهر باستعراض القوة والحماس الذى استقبل به والذى أعده جهاز الدعاية النازى. أدرك موسولينى بعد زيارته لمصانع كروب الألمانية فى مدينة أيسن، وفى زيارات لمواقع ومصانع أخرى، إن القوة العسكرية الألمانية تستطيع تنفيذ مشاريع طموحة، والتى كانت تبدو مستحيلة له حتى ذلك الحين. حاول موسولينى أثناء الزيارة توظيف عقيدة محاربة الشيوعية لتوثيق الروابط بين الدولتين. أصبح موسولينى يعزف نفس أنغام هتلر، فقال بعد عودته من ألمانيا : (لسنا مغولا ولا حاميين أو ساميين، وما دمنا لا ننتمى إلى تلك الأعراق فلا بد أننا آريون قدموا من الشمال من وراء الألب).

قربت النهاية بدخول موسولينى الحرب العالمية الثانية بجانب هتلر، فقد كان يحلم بأن الحرب ستكون سريعة وحاسمة فى صالح المحور. فى صيف ١٩٤٢ أوشك روميل بهجومه المضاد على احتلال مصر، كما بدا أن النظام الدفاعى البريطانى عن قناة السويس على وشك السقوط. تحين موسولينى هذه

الفرصة فطار إلى شمال أفريقيا متمشقا سيف الإسلام لدخول الإسكندرية دخـول الغزاة الفاتحين، ولكنه عاد إلى إيطاليا فى الحادى والعشرين من شهر يوليو وهو يجر أذيال الإحباط والفشل عندما فقد هجوم المحـور اندفاعـه وتوقـف عنـد العلمين. لحقت بالمحور هزيمة أخرى فى ستالينجراد، فأيقن موسـولينى بقـرب النهاية، وأخذ النظام الفاشى فى البحث عن وسيلة لمواجهة فشله السياسى.

عانت إيطاليا من ظروف اقتصادية سيئة نتيجة الحرب العالميـة، وفقـدت الفاشية حماس جمهورها بسبب الهزائم العسكرية، أما موسولينى فقد سـقط فـى نظر رفاقه فى الحزب كقائد عسكرى تنقصه الكفاءة وتعوزه الخبـرة. تكاتفـت مراكز القوى من ملكيين واشتراكيين وقوميين ضد موسولينى من أجل زعزعـة الفاشية. حاول موسولينى أن يبرز الجوانب العقائدية للحرب بقوله: (أنها حرب دينية وصراع بين الأفكار) وذلك حتى يلهى شعبه عن الواقع الأليم بفقد أجـزاء كبيرة من الأراضى الإيطالية. تفتت وحدة الشعب بالتدريج وأضرب عن العمـل أكثر من ثلاثمائة ألف عامل، وتوقف الإنتاج الحربى، وبدأت الشعارات المعادية للفاشية فى الانتشار، مطالبين بزيادة الأجور. عجل انهيار إيطاليا الوشيك بوقوع صدام بين الألمان من جهة، وملك إيطاليا والجيش الإيطالى من جهـة أخـرى. حاول النظام النازى تقييد حركة الأسرة المالكـة، وتـولى موسـولينى لجميـع السلطات فى إيطاليا، وزيادة عدد القوات الألمانية بقيادة ألمانيـة فـى العمليـات العسكرية التى تخوضها إيطاليا. فى الطرف الآخر، كان ملك إيطاليا يأمـل فـى إنهاء الحرب حفاظا على عرشه، على أن يتم ذلك بالاتفاق مع الألمـان. عنـدما طال أمد الحرب، رأى ملك إيطاليا أن لابد من المخـاطرة، فجـاءت الفرصـة السانحة عندما طالب قادة الحزب الفاشى بانعقاد المجلس الفاشى الأعلى بصورة عاجلة. لم يتوقع موسولينى فى إجتماع الحزب الذى عقد فى ٢٤ يوليـو ١٩٤٣ أن يقوم قادته بشن هجوم شديد عليه مطالبين بإعادة كل وظائف الدولة بما فـى

ذلك الصلاحيات والمسئوليات التى نصت عليها القوانين والدستور إلـى الملـك والمجلس الفاشى الأعلى والحكومة والبرلمان والنقابات. كانت مبادرة الفاشـيين المعتدلين بمثابة فرصة مواتية للملك للتخلص من موسولينى، فأمر باعتقاله فـى يوم ٢٥ يوليو، بعد أن أدى دوره كأعظم ديكتاتور فى العصر الحديث على مدى عشرين عاما.

لما كانت العقيدة الفاشية تقوم على احترام المؤسسات الحاكمة، لذا لم يصدر أى رد فعل بين صفوف الفاشيين لاعتقال موسولينى. عكـف موسـولينى فـى معتقله على قراءة مؤلفات نيتشه التى كان هتلر قد أهداها إليه، باديا عليه الإعياء والشيخوخة. فى ٨ سبتمبر وقعت إيطاليا الهدنة مع الحلفاء، ثم هرب ملك إيطاليا وقائد قواته، فقامت ألمانيا بتشكيل حكومة صورية لضمان مساندة الجزء المحتل من القوات الألمانية. حررت القوات الألمانية موسولينى من أسره، وأعلـن فـى ١٥ سبتمبر أن بنيتو موسولينى قد استرد قيادة الفاشية فـى إيطاليـا. فـى ٢٧ سبتمبر ترأس موسولينى أول إجتماع لمجلس الوزراء معلنا مـيلاد الجمهوريـة الاشتراكية الإيطالية. حاول موسولينى إعادة تكوين حزب فاشى جديد يـستطيع مؤازرة الدولة وتكوين جهاز سلطة فعال. انقسم زعماء الفاشية المتبقـون إلـى معسكرين متناحرين، ينادى الأول بالديموقراطية والحوار مع القـوى الـسياسية الأخرى، أما المعسكر الآخر فكان يسعى إلى إعادة الماضى بديكتاتوريته بعد أن تجمدت معتقداته فى قالب صـلب لا يلـين. كـان موسـولينى يتـأرجح بـين المعسكريين، يؤيد أحدهما ثم يتحول سريعا إلى الآخر، فقد كان عاجزا عن إدارة الخلاف بينهما.

لم تنقطع سلسلة الاضطرابات، والمظاهرات التى تصاعدت ظاهرة عـدائها للنظام الحاكم، والتى لم ينفع معها أداء موسولينى المسرحى الـذى أداه بنجـاح على مدى عشرين عاما سابقة. فى عام ١٩٤٤ بدأ الألمان التخلى عن موسولينى

عندما تفاوضوا مع الحلفاء على عقد هدنة فى إيطاليا، واستسلام القوات الألمانية فى إيطاليا. وفى ٢٥ أبريل من عام ١٩٤٥ تمردت عليه أهم مدن شمال إيطاليا، وتقدمت قوات الحلفاء المنتصرة دون أن تواجه أى مقاومة تذكر. وفى نفس اليوم هرب موسولينى آخذا فى التنقل من مكان إلى آخر حتى وصل إلى كومو وظل بها حتى فجر ٢٧ أبريل، حين تحركت قافلة صغيرة مكونة من قيادات الحزب تحت حراسة حافلتين من الجنود الألمان باتجاه الحدود السويسرية القريبة، ولكن أوقفت فصيلة من رجال العصابات الشيوعين قافلة موسولينى، واصطحبوه إلى قرية صغيرة، وتم إعدامه رميا بالرصاص فى عصر يوم ٢٨ أبريل من عام ١٩٤٥ مع عشيقته كلاريتا بيتاتشى التى تبعته حتى النهاية. وفى الساعة الحادية عشرة مساء فى نفس اليوم علقت جثتيهما من القدمين على صارى محطة بنزين فى ميدان عام بمدينة ميلانو، وإلى جوارها جثث من أعدموا من قادة الحزب. انتهت قصة بينيتو موسولينى بعد أن حاول توظيف عقيدة إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة، متخذاً فى عام ١٩١٩ شعار قضاة الإمبراطورية الرومانية الذى كان يتكون من حزمة من العصى تتوسطها بلطة ذات حدين – ليصبح شعارا لفاشية موسولينى.

هل هى حقا حروب عقائد دينية .....؟

- اللهم انصر المسلمين فى فلسطين، وفى البوسنة والهرسك، وفى أفغانستان، وفى الشيشان.
- اللهم انصر المجاهدين المسلمين فى كل مكان.
- اللهم اكسر شوكة اليهود، والروس، والأمريكان.

دعاء دأبنا على سماعه فى العقدين الأخيريين، بعد أن توهمنا أن الصراع القائم فى مواقع عديدة من الكرة الأرضية هو صراع عقائدى موجه إلى الديانة الإسلامية. فى ثقافة غربية لم يعد الدين فيه يمثل عنصراً أساسياً، فإن الصراع يدور فى المجال النفعى، أى صراع من أجل اكتساب منافع وتجنب خسائر. لقد تحول نداء الحروب الصليبية " هذه إرادة المسيح " أو "من أجل المسيح" إلى "منأجل النفط"، أو من أجل اكتساب ميزة بولوتيكية Geopolitics ، أى السيطرة على موقع مميز من المنظور الجغرافى السياسى . لقد استخدم هذا المصطلح وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق هنرى كيسنجر بمعنى إدارة التنافس الدولى من أجل تحقيق التوازن بين القوى العالمية المتصارعة. لقد أصبح الاقتصاد وخفض معدل البطالة، وزيادة رفاهية الشعب هى الأمور التى تُسير الصراع وتشعل الحروب، وتوارى جانباً الدافع الدينى، إلا فى ثقافة شرقية / عربية تسقط جميع الصراعات على كراهية ديننا والنيل منه. قد يكون هذا الشعور فيه شىء من الصحة ولكن يسقط هذا العامل فى أولويات قيم الثقافة الغربية التى تسودها المادة، والمتعة، والأمور الإنسانية (من حرية وديموقراطية، ثم ظهر حديثا الاهتمام بالبيئة).

عدّد الفيلسوف البريطانى جود فى كتابه "فصول فى الفلسفة ومذاهبها" أهداف الدولة، إلا أنه قد ذهب إلى حصر هذه الأهداف فى ثلاث: القوة والامتياز

والثروة، فقد جاء فى كتابه: (لا يمكن أن ننكر أن الدول تصبو إلى القوة، فامتلاك إمبراطورية يعتبر فى كل مكان خيرا، كما أن فقد قطعة أرض يعتبر شرا... فإذا ما تشدقت الدول عن طريق أفواه السياسين بالقول بأن لها " رسالة مقدسة " وأن لها "أهمية للدولة" أو عن "المستقبل التاريخى" للدولة فإنهم يقصدون من وراء ذلك أن لهم " رسالة " هى أن يكتسبوا أرضاً أو أن يزيدوا قوتهم وأن " مصالحهم " تستلزم الاستزادة من القوة وأن " المقدر لهم " سواء من عند الله أو من عند الحظ أو من الحركات التاريخية أو من نتاج " عبقريتهم " إنما يشير عليهم بزيادة التوسع).

يمتلك الإنسان غريزتى الرغبة فى الحياة، والرغبة فى الموت، وتتفاوت طبائع البشر بين السادية أى الشعور باللذة من تعذيب الآخرين، وبين المازوكية بمعنى اللذة من تعذيب الذات، فإذا كانت إرادة القوة كامنة فى إنسان، فإن مقاومة هذه الإرادة أيضا قائمة على الطرف الآخر. إن رد الفعل الطبيعى لإرادة القوة، أى إرادة السيطرة والتملك والإخضاع هو المقاومة والصد ورد العدوان، والنتيجة الطبيعية لهذا الصراع هو القتال من أجل السيطرة أو من أجل الدفاع. لا يختلف سلوك الدول والمجتمعات والقوميات، عن سلوك الإنسان كفرد، فتطوير السلاح وتصنيعه وتكديسه والمتاجرة فيه، والسعى نحو المركز المتميز، وعبادة المال – حتى إن كان الإنسان لا يحتاج إلى كل ما جمعه – كلها أدوات لرغبة الإنسان أو الدولة فى امتلاك عناصر القوى، ويؤكد على شهوة الإنسان للسيطرة والشعور بالقوة والهيمنة، والتفوق والتميز، ثم المقاومة من الطرف الآخر.

فى عام ١٩٧٨ أنفق العالم سنويا ٣٠ بليون دولار على السلاح، بينما بلغ الإنفاق الحربى ما يقرب من ٤٠٠ بليون دولار. احتلت الولايات المتحدة الأمريكية المرتبة الأولى فى الترتيب بنسبة ٤٧٪، ثم الاتحاد السوفيتى فى ذلك الحين بنسبة ٢٧٪، ثم فرنسا بنسبة ١١٪، ثم بريطانيا وإيطاليا بنسبة ٤٪ من

تجارة العالم فى السلاح. لقد ارتفعت قيمة مبيعات السلاح الأمريكى لدول العـالم الثالث من بليون دولار عام ١٩٦٠ إلى ٩,٦ بليـون دولار عـام ١٩٧٨، كمـا بلغت مبيعات الإتحاد السوفيتى نحو ٤,٣ بليون دولار فى نفس العـام بعـد أن كانت مبيعاتها من السلاح أقل من بليون دولار فى عام ١٩٦٠، ومـع نهايـات الألفية الثانية أصبحت إسرائيل والصين وكوريا الشمالية من الدول الرئيسية فـى تجارة السلاح. تجسدت الصورة القبيحة لتجارة السلاح خلال الحـرب العالميـة الأولى، فالبندقية البريطانية كانت فى أيدى الأتراك تطلق النـار علـى الجنـود البريطانيين، والمدفع الفرنسى كان فى أيدى قوات بلغاريا مـصوباً إلـى جـيش فرنسا، ومدافع مصانع كروب فى بروسيا هى سلاح لمقاومـة الألمـان، أى إن تجارة السلاح ليست لها وطن أو عقيدة إلا الربح المادى فقط. لن تنتهى الحروب مهما كانت مسمياتها، عقائدية أو قومية أو إثبات ذات أو من أجل رد العـدوان، طالما يوجد المنتفع من استمرار الحروب بعنف وشراسة.

أفغانسـتان:

تقع أفغانستان فى منطقة ساخنة سياسيا من وسط آسـيا، تحيطهـا إيـران، وباكستان، والاتحاد السوفيتى – سابقا – والصين. نشأت وحدة الدولـة الوطنيـة فى عام ١٧٤٧ بصعود قبيلة البشتون فى غرب البلاد، ولكنها وقعت تحت الحكم البريطانى. بالرغم من استقلال أفغانستان رسميا فى عام ١٩١٩، إلا أنها نـادرا ما كانت موحدة منذ منتصف القرن الثامن عشر. قامت الثورة فى الـبلاد فـى أبريل ١٩٧٨ بقيادة محمد نور تراقى، ثم جاء الغزو الـسوفيتى فـى ديـسمبر ١٩٧٩ لتبدأ سلسلة الأحداث التى أثرت على مجريات كثير من الأمور خـارج أفغانستان، نتيجة لصراع مصالح القطبين الرئيسيين اللذين حكمـا العـالم فـى النصف الثانى من القرن الماضى، ثم دخول عدد آخـر مـن التـابعين لحلبـة الصراع.

سرد الدكتور لارى جودسون فى كتاب " القـضية الأفغانيـة وانعكاسـاتها الإقليمية والدولية " الخلفيات التاريخية التى شكلت السياسة الأفغانية، فى أربعـة عوامل رئيسية وهى:

١- التركيبة العرقية: لم يجمع شعب أفغانستان إلا الجغرافيا السياسية، بمعنـى المكان والحدود التى تشكله كدولة، فالشعب ما هو إلا خليط من جماعـات متفاوتة، ومنقسم على أسس لغوية ودينية. يصل عدد الجماعـات العرقيـة فى أفغانستان إلى حوالى ٢٥ جماعـة أهمهـا: البوشـتون، والطاجيـك، والأوزبك ، والهزارة ، والإيماك . تمثـل البوشـتون الجماعـة العرقيـة السائدة، فيصل عددهم إلى حوالى ١١ مليون نسمة يعيشون علـى طـول الحدود الأفغانية – الباكستانية، وفى الجنوب والجنوب الغربى، وفى الوسط وشرق البلاد، وهم يشكلون حوالى ٤٥٪ من السكان الذين يبلـغ عـددهم حوالى ٢٥ مليون نسمة، وهم يتحدثون لغة البـشتو ويـدينون بالمـذهب الحنفى. ينقسم البوشتون أيضا إلى ثلاث جماعات فرعية. أمـا الطاجيـك فيمثلون ٢٥٪ من السكان ويتداخلون مع طاجيكستان فى شـمال الـبلاد، ويكون الأوزبك حوالى ١٠٪ من السكان ويتركزون مـع التركمـان فـى الأراضى الواقعة على الحدود بينهما. تعد الهزارة أكبر الجماعات الشيعية، ويتركزون فى وسط البلاد، ويشكلون ١٠٪ من إجمالى الـسكان. ويكـون الإيماك ١٠٪ من السكان ويتركزون فى غرب أفغانستان. أما باقى السكان فهم عبارة عن جماعات عرقية صغيرة ومجزأة. يتميز المزيج العرقى فى أفغانستان بالاستعداد للصراع والعنف، والتنافس فيما بينهم.

٢- الدين: أفغانستان دولة إسلامية، يشكل الـسنة فيهـا حـوالى ٨٠-٨٥٪، والباقى من الشيعة الإسماعيليين. والإسلام فى أفغانستان هو خلـيط مـن التعاليم الدينية الممزوجة بالعادات القبلية والريفية.

٣- النظام الاجتماعى: يقوم النظام الاجتماعى فى أفغانستان على ولاء الفرد للجماعة وليس للدولة، قد تكون الجماعة ممثلة فى الأسرة، أو القرية، أو القبيلة، أو أى تجمع متقارب ثقافيا. يتحكم فى الجماعة مجلس مكون من كبار السن من الرجال يسمى "مجلس الشورى". يختار كبار القوم فيما بينهم قادة محليين للتعامل مع الجهات الإدارية للدولة. يوجد أيضا طبقة " الخانات " وهم كبار ملاك الأراضى الذين يتمعتون بقوة النفوذ النابعة من الجماعات التابعة التى تدين لهم، بالولاء والطاعة.

٤- الطابع الجغرافى: ينقسم هذا العامل الذى يحد من الوحدة القومية للبلاد إلى ثلاثة أقسام وهى سهولة عبور الجماعات العرقية إلى دول الجوار مما يتيح الفرصة أمام هذه الدول للتدخل فى شئون أفغانستان الداخلية. ثانيا: وعورة جبال أفغانستان التى تصل ارتفاعاتها إلى ٦ كيلو مترات فى الشمال الشرقى، مما يجعل المرور فى هذه المناطق – خاصة فى فصل الشتاء – عملية صعبة للغاية. وأخيرا يعتبر موقع أفغانستان الاستراتيجى، حاجزا وقف بين قوتين إمبراطوريتين فى القرن التاسع عشر حيث أدى الصراع الإنجليزى الروسى فى آسيا الوسطى إلى نشأة دولة أفغانستان، بمتناقضاتها المتعددة.

تحتل أفغانستان موقعا إستراتيجيا له أهميته السياسية، فهى ملتقى حركة التجارة بين الشرق والغرب، لذا فكانت مطمعا للتنافس الاستعمارى بين بريطانيا وروسيا فى القرن التاسع عشر. استغلت روسيا الحروب المتكررة بين الأفغان والإنجليز، وقامت بتقديم المساعدات العسكرية للأفغان. فى عام ١٨٧٨ عقدت روسيا معاهدة مع حاكم أفغانستان الأمير شير على خان تعهدت فيها بمد يد المعاونة العسكرية للأفغان فى حربهم ضد الإنجليز. تغلغل النفوذ الروسى فى خضم الحرب العالمية الثانية، ورسخ بعد قيام الثورة البلشفية الشيوعية فى

روسيا فى عام ١٩١٧. تعمقت العلاقات الروسية الأفغانية فى عهد أمان الله خان بتوقيع أول معاهدة صداقة بين كابول وموسكو فى فبراير ١٩٢١، كما وقعت معاهدة " الحياد وعدم الاعتداء " بين البلدين فى نوفمبر ١٩٢٦. شهد هذا العهد توسع النفوذ الروسى داخل المجتمع الأفغانى، وحاول أمان الله خان أن يغير من التقاليد الاجتماعية الإسلامية، مما أدى إلى قيام ثورة شعبية فى البلاد. فشل الروس فى دعم أمان الله خان، فسقط الملك منه فى عام ١٩١٩. لعب السوفيت دورا فى تنصيب عميل لهم، وهو حبيب الله كملك لأفغانستان، ولكنه قتل عندما دخل البلاد الجنرال محمد نادر خان، ابن عم الملك السابق أمان الله خان. أعلن محمد نادر خان نفسه ملكا فى أكتوبر ١٩٢٩، وحاول أن يحد من التغلغل الروسى، وأن يعيد مكانة المذهب السنى، فنال تأييد الشعب الأفغانى، إلا أنه تعرض للاغتيال فى عام ١٩٣.

بعد اغتيال محمد نادر خان تولى الحكم ابنه محمد ظاهر شاه، والذى دام ملكه أربعين سنة. ظهرت فى نهاية أربعينيات القرن الماضى تيارات يسارية معارضة فى إطار مناخ البرلمان الليبرالى، وشكلت خطورة على الاتجاه السياسى الحاكم. قام الجنرال محمد داود خان ابن عم الملك وزوج شقيقته، بانقلاب سلمى فى سبتمبر ١٩٥٣ ضد عمه رئيس الوزراء شاه محمود خان، معلنا أن الغرض من هذه الحركة هو إعادة التوازن إلى النظام الحاكم الذى كان يميل إلى الغرب، مدعما بذلك العلاقات الأفغانية السوفيتية. قام محمد داود خان بطلب مساعدات اقتصادية وعسكرية من الاتحاد السوفيتى، كما أتاح الفرصة لمزيد من نفوذ الأحزاب السياسية اليسارية، حيث بدأ إصدار أول صحيفة يسارية فى أفغانستان فى أبريل ١٩٦٦ تحت إشراف نور محمد تراقى رئيس منظمة " خلق " اليسارية. استمرت هذه الحالة حتى يوليو من عام ١٩٧٣، حيث قام محمد داود خان بانقلاب رسمى، معلنا أن الوضع السائد تمخض عن حرية

أوسع لليساريين. أعلن محمد داود خان إنهاء الملكية وقيام الجمهورية، وتــولى بنفسه رئاسة الدولة مع منصب رئيس الوزراء. ظل داود خان يتأرجح بنظامــه بين اليمين واليسار إلى أن تم استيلاء " منظمة خلق " اليــسارية علــى الــسلطة رسميا. بانقلاب أطاح بالرئيس محمد داود خان فى أبريل ١٩٧٨، تــولى نــور محمد تراقى السلطة فى البلاد والذى انتهج نهجاً متــشدداً تجــاه الإســلاميين، مستخدما أسلوب العنف والإبادة. حاول اليــسارى المتــشدد بــابراك كارميــل الاعتراض على حكم تراقى الذى قام بنفيه خارج البلاد بإصدار قــرار تعيينــه سفيرا لأفغانستان لدى تشيكوسلوفاكيا. ظل كارميل على ولائه للسوفيت، فكافأته بتنصيبه رئيسا على أفغانستان بدلا من حفيظ الله أمين الذى كان قد قام بــانقلاب ضد نور تراقى فى سبتمبر ١٩٧٩، وذلك بعد دخول القوات السوفيتية الأراضى الأفغانية فى ٢٧ ديسمبر من نفس العام، بادعاء الاستجابة لطلب النظام الحــاكم فى أفغانستان لمواجهة اضطرابات وتوترات داخلية.

يرى المحللون أن حجم التدخل العسكرى السوفيتى والسرعة التى تم بها قد أتاح للقوات السوفيتية السيطرة الكاملة لهم على البلاد. يرجع المحللون أســباب التدخل السوفيتى إلى سببين رئيسيين، أولهما حماية المــصالح الــسوفيتية فــى أفغانستان التى يمتد حدودها مع السوفيت بطول ٤٠٠ كيلو متر، مما دفع القيــادة السوفيتية إلى التحرك بسرعة وقوة خشية وقوع أفغانستان فــى دائــرة النفــوذ الأمريكى / الغربى، والذى - بالطبع - يهدد الأمن القومى الــسوفيتى. يتمثــل السبب الثانى فى وقف المد الثورى الإسلامى، الذى نبع من إيــران المجــاورة لأفغانستان والذى قد يمتد إلى الجمهوريات السوفيتية التى تقع بطــول الحــدود الأفغانية، والتى كانت تدين بالإسلام قبل انــضمامها إلــى الإتحــاد الــسوفيتى الشيوعى الذى حاول أن يخمد المد الدينى: يهودى / مسيحى / إسلامى، والحــد من نفوذه وتأثيره على الإيدلوجية / الثقافة الشيوعية.

ظهرت حركة " الطالبان " فى أكتوبر ١٩٩٤، عندما ذهب بعض من طلاب الشريعة الإسلامية لإنقاذ قافلة متجهة من باكستان إلى آسيا الوسطى عبر كندهار وحيرات. قدمت الحركة نفسها كمجموعة من طلبة الدين الذين عانوا من الصراع القائم بين المجاهدين. سيطرت الحركة على وسط وشرق أفغانستان، آمرة تجار المخدرات والحرب وقواد الفصائل بالاستسلام أو مغادرة مواقعهم. استجاب معظم المعارضين لعدم رغبتهم فى معاداة حركة دينية، ولكن بالرغم من ذلك نشبت بعض المعارك بين الحركة وخصومهم نجحت فيها الحركة فى الاستيلاء على سبين بولداك ثم على كندهار فى نوفمبر ١٩٩٤، ولاشكار جاه فى يناير ١٩٩٥، ثم اتجهوا نحو العاصمة كابول وإلى حيرات. بحلول مارس ١٩٩٥ كانت " الطالبان " تسيطر على ثلث الأراضى الأفغانية، وأصبحوا على مشارف كابولِ وهزموا شيعة حزب الوحدة وقتلوا قائدهم على مزارى. هرب حكمتيار من كابول متجها إلى الشرق، أما قوات أحمد شاه مسعود فقد نجحت فى البداية فى وقف تقدم الطالبان إلى العاصمة. استمرت عمليات الصد والرد، حتى استولت حركة الطالبان على كابول فى سبتمبر من عام ١٩٩٦، منفذين حكم الإعدام على نجيب الله. فى مايو ١٩٩٧ انشق الجنرال عبد المالك على رشيد دستم وقام بتسليم إسماعيل خان إلى حركة الطالبان، وأعطى قيادة مدينة مزار شريف كمكافأة له على الخيانة، فقام دستم بالفرار إلى أوزبكستان ومنها إلى تركيا. حشدت الطالبان قواتها للدخول إلى ممر سالانج، ولكن حدثت انتفاضة فى مزار شريف أدت إلى مقتل قادة الطالبان، كما تمكن أحمد شاه مسعود من قطع الطريق أمام زحف الطالبان على ممر سالانج. بالرغم من النجاح الشبه مستمر لحركة الطالبان، إلا أن سيطرتها لم تكن كاملة على كافة الأراضى الأفغانية. من المؤكد دخول عناصر خارجية عديدة – غربية وإسلامية- حلبة الصراع، وتحولت المواجهة من طرد مستعمر سوفيتى إلى صراع قوى، ومكاسب إستراتيجية وسياسية.

تعرض الشعب الأفغانى إلى خسائر ضخمة فى الأرواح والممتلكات طوال فترة الصراع الذى دام حوالى عشر سنوات. قدر البعض الخسائر بمقتل مليون مواطن أفغانى، بالإضافة إلى مقتل نحو مائة ألف من رجال المقاومة. كان عدد الجرحى يفوق عدد القتلى، ذلك فضلا عن تدمير البنية الأساسية، وتخريب المدن، وإبادة القرى. فر نحو ستة مليون أفغانى إلى باكستان وإيران، كما هجر نحو اثنين مليون مدنهم وقراهم الأصلية متخذين من الجبال مأوى لهم، هاربين من قسوة القتال والتدمير. دمرت معظم المناطق الريفية، وتركت عناصر الصراع حوالى ثلاثين ألف لغم مزروع فى القرى الأفغانية. توقفت نظم التعليم وباقى القطاعات المدنية فى المجتمع، وتحول المخزون الهائل من الغاز الطبيعى بجوار خيبر خان إلى الاتحاد السوفيتى. خرج الاتحاد السوفيتى من الصراع، ودخلت الحلبة الولايات المتحدة مع بعض القوات الأوروبية، وتشكلت جماعة " القاعدة " من المجاهدين العرب والأفغان اللذين قاوموا الغزو الروسى، واستمروا فى مقاومة الاحتلال الأمريكى. لقد كان – وما زال – الصراع مدمرا، لم يربح منه إلا تجار المخدرات والسلاح، والطامعون فى النفوذ السياسى.

لم يكن الصراع باسم الدين والدفاع عن العقيدة إلا ستاراً يختفى خلفه أسباب كثيرة لها جذور قديمة، لقد وظفت العقيدة للقيام بدور الجهاد فى سبيل الله. يرى المحللون السياسيون أن الأسباب الحقيقة لقيام الصراع فى أفغانستان، يتلخص فى النقاط التالية:

- كانت أفغانستان دائما – فى العصر الحديث – أرضاً للصراع والتنافس بين الروس والإنجليز. لقد كانت أفغانستان أرضاً ملاصقة للسوفيت، تشكل امتدادا لأمنهم القومى، أما بالنسبة للإنجليز فقد كانت أفغانستان امتداد لسيطرتهم على الهند وباكستان، وتدعيما لشركات الهند الشرقية. لقد سعى

الطرفان بجميع الوسائل لزرع عملاء لهم فى الحكم تـدعيماً لمـصالحهما السياسية والتجارية. فى غياب الدولة الأفغانية / البيروقراطيـة / القويـة / المسيطرة على زمام الأمور، أصبحت أفغانستان مسرحاً مفتوحـاً لجميـع أطراف الصراع.

- يتبلور العامل الداخلى فى أسباب الصراع ، فى التركيبة العرقية المتـشعبة والمتداخلة ، من تقسيم أثنى (بشتون ، طاجيك ، أوزبك ، ...) مع تقـسيم دينى (سنة، شيعة)، مع تقسيم قبائلى (دورانى – جيلزاى، ..) . حاولت جميع هذه الأطراف فرض نفوذها وسيطرتها، محاولة الحصول على أكبـر قدر من الغنيمة / الضحية المتمثلة فى الشعب الأفغانى ككل – كأمة موحدة – وفى دولة أفغانستان كنظام وثروات.
- يعتبر الصراع الطبقى من أهم جذور الحرب الأهلية الأفغانية، والذى نبـع بعد محاولة محمد داود خان، ونور محمد تراقى من بعده، تطبيـق سياسـة الإصلاح الزراعى. قاوم شيوخ القبائل وملاك الأراضـى برنـامج إعـادة توزيع الأراضى الزراعية من منطلق عدم شرعيتها الدينية.
- تغلف الصراع أخيرا، بصبغة مختلفة عن أسبابه، فقد تحول إلى صراع بين القوتين العظمتين القائمتين فى ذلك الوقت – الولايات المتحـدة الأمريكيـة، والاتحاد السوفيتى – يحاول كل طرف اسـتقطاب أعاونـه، فقـد عزفـت الولايات المتحدة على أوتار العقيدة التى يجب أن تجاهد فى سـبيل طـرد النظام الشيوعى الملحد، وعزفت الاتحاد السوفيتى على أوتار القضاء علـى الصراع الطبقى وتضييق الفجوة بين الطبقات المختلفة.

وأخيرا أنجب نشاز معزوفة الـصراع، أسـطورة بـن لادن وأعوانـه ، والإرهاب العقائدى .... والذى أدى إلى احتلال العراق بعد ذلك .

شركات الهند الشرقية East India Company

هى شركات تجارية تكونت بواسطة الدول الأوربية فى القرنين السابع عشر، والثامن عشر من أجل تحسين وضعها الاقتصادى، ودعم القوى السياسية للدول الأوروبية فى الشرق الأقصى، وترسيخ نفوذها فى هذه المنطقة. لقد جذبت ثروات منطقة الشرق الأقصى من المنتجات التى حرمت منها قارة أوروبا – مثل التوابل والجواهر والأحجار الكريمة، ثم الشاى والقطن والحرير – كثيراً من المغامرين الأوروبيين، فتكونت شركات عديدة تنافست مع بعضها، كما تعارضت مصالح هذه الشركات – فى كثير من الأحيان – مع مصالح الحكام الوطنيين لدول الشرق الأقصى. كان الملاحون البرتغاليون هم أول من وصل إلى منطقة الشرق الأقصى من الأوروبيين. فبعد عدة عقود من رحلة فاسكو دى جاما إلى الهند فى عام ١٤٩٨، أرسلت البرتغال العديد من مندوبيها إلى منطقة الشرق الأقصى من أجل التجارة والاستكشاف. بدأ النفوذ الإنجليزى فى المحيط الهندى فى عام ١٥٨٣، بعد التعاون مع الإمبراطور المغولى أكبر. أرسلت إنجلترا حملات عسكرية إلى الهند فى عام ١٥٩٥، ثم إلى شمال الصين فى عام ١٥٩٦، وأخيرا توجت نفوذها ووجودها الاقتصادى بتكوين شركة الهند الشرقية فى عام ١٩٦٠، على أثر رفع التجار البرتغاليين والهولنديين أسعار الفلفل، الذى كان له جاذبية خاصة فى الدول الأوروبية فى ذلك الوقت. شجع قيام الشركة الإنجليزية، الحكومة الهولندية لتكوين شركة الهند الشرقية الهولندية فى عام ١٦٠٢، أتبعها إرسال هولندا ستين سفينة أبحرت إلى الشرق الأقصى لتقاتل السكان المحليين، وتدخل فى صراع مع البرتغاليين – وفى بعض الأحيان مع بعضها البعض – من أجل ثروات هذه المنطقة. انفجر صراع آخر بين الهولنديين والإنجليز حول الجزر الأندونيسية. حاول الهولنديون والإنجليز عمل اندماج لشركاتهما، ولكن أجهض هذا المشروع بعد أعمال العنف الهولندية ضد الإنجليز والتى أدت إلى مذبحة للقوات الأنجليزية فى عام ١٦٢٣. وأخيراً، وفى

ذروة الوجود الهولندى للمنطقة، كان تواجدها يتمثل فى حوالى مائـــة وخمـــسين تاجراً، وأربعين سفينة حربية، وحوالى عشرة آلاف جندى.

بينما سيطر الهولنديون على شرق الانديز (الجـــزر الاندونيـــسية)، فـــإن الانجليز لم ييأسوا، ولم تهدأ لهم همة فاتجهوا إلى الساحل الشرقى للهند فى عـــام ١٦١١، وإلى ساحلها الغربى فى عام ١٦١٢، وذلك بعـــد إجـــراء الاتـــصالات المكثفة مع سلاطين هذه المناطق. بدأ صراع الإنجليز مع التجار المنافسين الذين كانوا مصدر إزعاج مستمر طوال القرن السابع عشر. حدث فـــى عـــام ١٧٠٢ أول أكبر اندماج تجارى، بعد أن اتفقت شركتان إنجليزيتان من شـــركات الهنـــد الشرقية توحيد جهودهما واندماجهما فى شركة واحدة تقوم بالعمليات التجاريـــة بين أوروبا والهند، خاصة تجارة القطن التى كانت تشتهر به الهند. شاركت دول أوروبية أخرى مثل فرنسا، والسويد، وإيطاليا فى تكوين شركات لها فى منطقـــة الشرق الأقصى، لتتنافس هذه الشركات فى جلب ثروات بلاد كانت تعـــيش فـــى فقر وتخلف، بعد أن غابت عنها حضارات قديمة لم تحافظ الـــنظم الديكتاتوريـــة على دوامها واستمرارها.

البوسنة والهرسك:

تتكون جمهورية البوسنة والهرسك Bosnia and Hercegovina من كلمتين، الأولى تنسب إلى نهر البوسنة، المشتق اسمه من الكلمة الإيليرية "بوســـينوس" أو من أساس الكلمة " بوس " والتى تعنى الماء الجارى. أما كلمة الهرسك فقد ظهرت فى القرن الخامس عشر، وهى مشتـــــقة من كلمة "هرتزوج" ومعناها " الدوق " نسبة إلى الدوق ستبان فوكتشيتش الذى حكم هذه المنطقة حول عام ١٤٤٨. كانت قبائل الإيلير هى أول من استطونت هذه المناطق منذ العصر الحديدى. وفى القرن الثالث قبل الميلاد قام الرومان بغزو شبه جزيرة البلقان، وظلت البوسنة خاضعة لهم حتى القرن الرابع الميلادى. ومع حلول النصف الثانى من القـــرن الـــسادس

الميلادى بدأ السلاف الهجرة تدريجيا من الشمال إلى شبه جزيرة البلقان، واستقروا فيها بشكل نهائى فى أوائل القرن السابع الميلادى. فى العصور الوسطى أصبحت البوسنة من القوة والمكانة التى أهلتها لمنافسة الولايات المتاخمة لها مثل المجر، وكرواتيا، والصرب، والولايات البيزنطية. بلغت البوسنة أقصى مجدها فى عهد حكم ستيفان الأول فى الفترة (١٣٥٢ – ١٣٩١). حتم الوضع الجغرافى للبوسنة معايشتها صراع دينى واقع بين الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ممثلة فى الصرب، والكنيسة الكاثوليكية الرومانية ممثلة فى كرواتيا. بدأ الغزو العثمانى للبوسنة والهرسك فى منتصف القرن الخامس عشر، ولم ينته هذا القرن حتى كانت جميع أراضيها قد أصبحت داخل نطاق الإمبراطورية العثمانية الإسلامية. دخل جميع النبلاء والإقطاعيين فى الدين الإسلامى من أجل الحفاظ على ممتلكاتهم وعلى قوتهم ومراكزهم السياسية. انضم بعد ذلك كثير من القرويين وعامة الشعب إلى الدين الإسلامى، مع احتفاظ جزء منهم بالديانة المسيحية. ظل الحكم العثمانى قائماً فى تلك المناطق حتى القرن السابع عشر، ولكن بعد سلسلة طويلة من الحروب دامت فى المدة ما بين عام ١٦٨٨ وعام ١٧٣٩، بين الامبراطورية الروسية والامبراطورية النمساوية من جهة، وبين الامبراطورية العثمانية من جهة أخرى، بدأ الحكم العثمانى فى الانحسار عن البوسنة والهرسك، ولكن ظل الكثير من الشعب على دينهم الإسلامى.

توالت الثورات فى مناطق البوسنة والهرسك بقيادة إقطاعى الأراضى الزراعية بدءاً من عام ١٨٢١، ثم فى الأعوام التالية حتى نهاية ثلاثينيات القرن التاسع عشر. دخل الجيش التركى الولايات البوسنية من أجل الحفاظ على سلطة الحكومة المركزية. قامت سلسلة أخرى من الثورات بدءاً من منتصف هذا القرن، حتى خضعت الامبراطورية العثمانية لمطالب الثوار لإجراء عمليات الإصلاح. حدث تمرد فى عام ١٨٧٥ فى منطقة الهرسك أدى إلى أزمة أوروبية، نتيجة لإخفاق الحكومة العثمانية فى سحق ثورة القرويين أو التفاوض

معهم من أجل الوصول إلى حلول وسطى. فى أثناء فترة المباحثات، أعلنت الصرب Serbia ، والجبل الأسود الحرب على الامبراطورية العثمانية . فى عام ١٨٧٧ وبعد تدخل الامبراطورية النمساوية / المجرية لفرض هيمنتها السابقة على هذه المناطق، دخلت روسيا الحرب بجانب الامبراطورية العثمانية. وفى مؤتمر عقد فى برلين فى عام ١٨٧٨ أصبحت للإمبراطورية النمساوية / المجرية الحق فى احتلال البوسنة والهرسك ورسم الحدود لهذه الإقطاعيات، خارج حدود الإمبراطورية العثمانية. واجهت سلطة الاحتلال مواجهات عنيفة من الأطراف الأخرى بالرغم من تأييد وترحيب قطاع من الشعب الكرواتى الأصل الذى يتبع الكنيسة الكاثوليكية. من جهة أخرى عارض بشدة كل من الصرب الأرثوذكس، والمسلمين الاحتلال النمساوى للبوسنة والهرسك . كانت رغبة الأرثوذكس انضمام البوسنة والهرسك إلى صربيا، أما المسلمون فكان رأيهم العودة مرة ثانية للحكم العثمانى. حدث تمرد آخر فى عام ١٨٨١، ولكن تم إخماده بواسطة قوات الاحتلال النمساوية / المجرية.

بانتهاء الحرب العالمية الثانية وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٥، تم الإعلان عن قيام جمهورية فيدرالية شعبية تحت اسم يوجسلافيا، وبذلك ألغى النظام الملكى الذى حكم البلاد منذ عام ١٩١٨. كانت يوجسلافيا نموذجا للدولة الفيدرالية الاتحادية التى ضم حدودها مزيج متباين من الأعراق والقوميات والأديان. ضم الاتحاد ست جمهوريات وهى: صربيا، الجبل الأسود، كرواتيا، سلوفينيا، مقدونيا، والبوسنة – الهرسك. كانت جمهورية الصرب تحوى إقليمين يتمتعان بالحكم الذاتى وهما كوسوفو، وفوزوفودينا. نجح الزعيم اليوجوسلافى جوزيف بروز تيتو فى التحكم فى التناقضات الموجودة بين مكونات الاتحاد وداخل جمهورياته. بعد رحيل تيتو فى عام ١٩٨٠، ولعدم وجود زعيم له الثقل السياسى والتاريخى، وله القدرة على مواكبة التغيرات التى سادت بلاد شرق أوروبا، وسقوط الهياكل

الفيدرالية للاتحاد السوفيتى، تفجر الصراع الكامن والمكتوم فى يوجوسلافيا. أعلن الحزب الشيوعى اليوجوسلافى فى يناير ١٩٩٠ تخليه عن احتكار السلطة فى البلاد، والسماح بإقامة نظام متعدد الأحزاب. عند تطبيق نظام الأحزاب، بدأت بوادر المواجهة بين الجمهوريات اليوجوسلافية نتيجة فوز جبهات المعارضة فى كرواتيا وسلوفينيا، وفوز الحزب الشيوعى فى صربيا والجبل الأسود. بدأ الصدام بين الجمهوريات التى تقودها جبهات المعارضة، وتلك التى خضعت لسيطرة الحزب الشيوعى. أعلنت جمهوريتا سلوفينيا وكرواتيا الاستقلال فى يونيو ١٩٩٠، واندلع الصراع بين الحكومة المركزية والجيش الاتحادى من جانب، وجمهورية سلوفينيا من جانب آخر. توقف القتال لفترة، ثم عاد مرة ثانية بين الحكومة والجيش الاتحادى وصرب كرواتيا من جانب، والجيش الكرواتى من جانب آخر. استمرت المعارك لمدة نصف العام، وبتدخل المجموعة الأوربية أعلن استقلال كل من سلوفينيا وكرواتيا فى يناير ١٩٩٢.

فى فبراير من عام ١٩٩٢ أجرى استفتاء عام فى جمهورية البوسنة والهرسك بشأن الاستقلال عن الاتحاد الفيدرالى. ما أن تم الإعلان عن نتيجة الاستفتاء بالاستقلال، حتى اندلع الصراع بين الصرب من ناحية، والكروات مع المسلمين من ناحية أخرى. تدخل الجيش الفيدرالى بجانب الصرب من أجل تمكينهم من السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من أراضى جمهورية البوسنة والهرسك، وفرض الأمر الواقع عند التوصل إلى تسوية سياسية. أعلن صرب البوسنة عن دولتهم المستقلة فى أبريل ١٩٩٢، وتدخلت المجموعة الأوروبية لإبرام اتفاقات لوقف إطلاق النار ولكن فشلت جميعها، وتجددت المعارك بهجمات من ميليشيات الصرب المدعومة من الجيش الاتحادى الذى يسيطر عليه الصرب، والتى سعت إلى القضاء على أكبر عدد ممكن من المسلمين والكروات فيما عرف " بسياسة التطهير العرقى ".

تم توظيف الدين من جميع الأطراف المتصارعة، حيث حاول الصرب إضفاء طابع دينى على سياسات التطهير العرقى، وذلك من خلال جميع تصريحات الرئيس البوسنى على عزت بيكوفيتش وبعض المسئولين المسلمين للترويج لفكرة مشروع إقامة جمهورية إسلامية فى أوروبا كنواة لبناء إمبراطورية إسلامية جديدة، فأعاد للأذهان التاريخ القديم للإمبراطورية الإسلامية التى بزغت من بلاد العرب فى القرن السابع الميلادى، والإمبراطورية العثمانية الإسلامية التى ظهرت فى بلاد الترك، واللتان قامتا بغزو أوروبا من شرقها وغربها. فى نفس الوقت أكد المسلمون أن سياسة الأرثوذكس هى حرب الإبادة للمسلمين فى البوسنة والهرسك. سعت جميع الأطراف إلى الحصول على مساعدات خارجية من منظور الصراع الدينى، فاتجه الصرب إلى الدول التى تدين بالمسيحية الأرثوذكسية مثل روسيا واليونان وبلغاريا ورومانيا، واتجهت كرواتيا إلى الدول الأوروبية التى بها أغلبية كاثوليكية مثل إيطاليا والنمسا، أما مسلمو البوسنة فقد سعوا إلى الدول الإسلامية للحصول على الدعم والمساندة. تحول الدعم إلى سلاح يمد جميع الأطراف، ويزيد النار اشتعالا، ويتحول الصراع إلى حرب إبادة. كانت الحرب الدائرة عرقية فى أساسها، وإن اتخذت فى مراحل طويلة أبعاداً دينية، فالصرب كانوا يشنون الهجوم على الشعب المسلم من البوسنة، كما كانوا يقتلون الكروات الكاثوليك. أسفرت المعارك الدائرة على أرض البوسنة – الهرسك عن تمكن الصرب من السيطرة على نحو ٧٠٪ من أراضى الجمهورية على حساب المسلمين، ولم يخسر الكروات كثيرا من أراضيهم. كان التحالف بين المسلمين والكروات تحالفا مؤقتا وإستراتيجياً من قبل الكروات لصد تقدم الصرب، ولكن ليشب بعد ذلك صراع ضار آخر بين المسلمين والكروات.

كوســــــــوفا:

كان الألبان يسكنون إقليم كوسوفا منذ قديم الزمان عندما سيطر أجدادهم من القبائل الإيليرية السلافية على المنطقة الممتدة من الساحل الأدرياتيكى إلى قلــب البلقان. ظهر الصرب فى البلقان فى القرن السابع الميلادى عنــدما اســتدعاهم الإمبراطور البيزنطى لمساعدته فى طرد الغزاة الأفار، ثم احتل الصرب إقلــيم كوسوفا أواخر القرن الثانى عشر المــيلادى عنــدما ضــعفت الإمبراطوريــة البيزنطية، وامتد هذا الاحتلال لقرنين من الزمــان حتــى فتحهــا العثمــانيون وحكموها لمدة خمسة قرون ضمن سيطرتهم على منطقة البلقان بأسرها، فاعتنق أهلها الدين الإسلامى وأصبحوا من قادة الدولة العثمانية. ظل الألبــان يحلمــون طيلة الحكم العثمانى بإعادة تكوين ألبانيا الكبرى، حتى تمكن الصرب من احتلال كوسوفا مرة أخرى بعد هزيمة الدولة العثمانية فى الحروب البلقانية عام ١٩١٢، تم ضم كوسوفا إلى الدولة اليوجسلافية. وفى الحرب العالمية الثانية ساعد الألبان الزعيم اليوغسلافى جوزيف تيتو فى مقاومتــه للقــوات الألمانيــة فــى مقابــل الاستقلال، ولكن بعد انتهاء الحرب لم يوف تيتو بوعده، إلا أنه قد اضــطر فــى عام ١٩٧٤ إلى منحهم حكما ذاتيا موسعا بعد مقاومتهم للحكم الــصربى. بعــد انفراط عقد يوجسلافيا، ألغت الحكومة الصربية فى عام ١٩٨٩ الحكــم الــذاتى الممنوح للألبان. من خلال استفتاء شعبى، أكد الألبان فــى عــام ١٩٩١ علــى الاستقلال والانفصال عن صربيا، وانتخبوا فى العام التــالى زعــيمهم إبــراهيم روجوفا رئيسا لهم. انتهج روجوفا سياسة المقاومة غير العنيفة حتى تــم توقيــع اتفاق دايتون للسلام فى يوجسلافيا دون الإشارة لأوضاع كوسوفا، ممــا عجــل بظهور الخيار العسكرى المسلح لتحقيق الاستقلال.

تشكل الجيش الجمهورى لتحرير كوسوفا فى عــام ١٩٩٢ مــع ارتكــاب الصرب لمذابح جماعية ضد الشعب الكوسوفى، ومحاولات إفراغ كوسوفا مــن

سكانه بدعوى تعقب جيش تحرير كوسوفا. حاولت الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبى إقناع جيش تحرير كوسوفا – ترغيبا وتهديدا – بالتخلى عن المطالبة بالاستقلال التام بهدف وقف العنف كما أدعت حكومة بلجراد، على أن يمنح الألبان فترة انتقالية تتمتع كوسوفا خلالها بما لجمهوريتى صربيا والجبل الأسود من صلاحيات فى إطار الاتحاد اليوجسلافى، يتم بعدها تحديد مصير الإقليم. فى عام ١٩٩٩ وافقت قيادة جيش تحرير كوسوفا على خطة السلام الدولية فى مفاوضات رامبوييه الفرنسية، وذلك لتوحيد الموقف الألبانى وكشف موقف الصرب الحقيقى تجاه السلام. عندما رفض الصرب خطة السلام، أيد جيش التحرير التدخل العسكرى لحلف الأطلنطى، وأبدى استعداده للتعاون معه وتزويده بمعلومات حيوية عن القوات الصربية. رفض حلف الأطلنطى اشتراك جيش تحرير كوسوفا فى العمليات العسكرية حتى لا يعطيه فرصة للجلوس على مائدة المفاوضات من منطلق القوة. جاءت الضربات العسكرية المكثفة من قوات حلف الأطلنطى ضد صربيا، لترغمها على سحب قواتها من الإقليم، وبدأ التفاوض من أجل إحلال السلام، وبذلك انتهى حلم الزعيم الصربى ميلوسوفيتش، بإعادة تشكيل الإمبراطورية الصربية الأرثوذكسية والتى سيطرت على منطقة البلقان فى القرن الرابع عشر، فى عهد الملك دوشان لتمد سيطرتها على بلاد اليونان وبلغاريا وألبانيا بالإضافة إلى أراضيها الأصلية.

الشيشان:

الشيشان Chechen جزء من الأراضى القوقازية Caucasus، وكانت تتبع الاتحاد السوفيتى المنحل، وعاصمتها جروزنى Grozny القريبة من بحر قزوين Caspian Sea. تتميز الشيشان بأنها مركز مهم لاستخراج البترول، لذا تحرص روسيا ألا تخرج من عباءتها، فقام الصراع من أجل السيطرة على منابع النفط، ولكن أخذ بعد ذلك السمة العقائدية.

تنقسم الحركة الإسلامية فى الشيشان إلى تيارين، الأول هو تيار صوفى، ويتخذ الصورة التقليدية للحركة الإسلامية، وقام بحركات المقاومة ضد الغزو الروسى منذ عام ١٧٨٥، وهو تيار مزج الدين الإسلامى بالشخصية القومية الشيشانية. يعبر عن هذا التيار قسمان: القسم النقشبندى وهو أول من أدخل الديانة الإسلامية إلى بلاد الشيشان، وقسم قادرى الذى برز بعد القسم النقشبندى. أما التيار الثانى فهو التيار السلفى الجهادى، وهو التطور المعاصر للحركة الإسلامية فى الشيشان، وبرز على الساحة بفضل تشعب اتصالاته واتصاله بالمركز الإسلامى الذى نتج عنه وفود الكثير من المجاهدين للدفاع عن الشيشان. يتميز هذا التيار بالتزاوج بين الفكرة السلفية الداعية إلى تنقية المجتمع الإسلامى من الشوائب وإنشاء الدولة الإسلامية على غرار العهد الأول للإسلام، وبين الفكرة الجهادية الداعية إلى أسلوب العنف لتحقيق قيام الدولة الإسلامية. أشعلت الحرب الأفغانية فى تسعينيات القرن الماضى، فكرة الجهاد فى الشيشان، خاصة بعد دعم وتأييد دول الخليج العربى. كتب مراد بطل الشيشان فى " السياسة الدولية – يوليو ٢٠٠٢ " عن ارتباط التيار السلفى الجهاد بحركة " القاعدة " فى أفغانستان: (يذكر أن من هذين التيارين برز تنازع بينهما خاصة بعد ١٩٩٨ أدى فى أحايين معينة إلى صدام مسلح، ويعد التيار السلفى – الجهادى جزءا من أكثر التيارات الراديكالية انتشارا فى العالم الإسلامى، بمعنى أنه أقرب إلى تفكير القاعدة وأسامة بن لادن، حتى إن بعض التقارير أشارت أن طالبان وبعد الحملة الأمريكية على أفغانستان طلبت المساعدة من حلفائها فى الشيشان).

بالرجوع إلى قرن ونصف من الزمان، نجد أن روسيا القيصرية استطاعت ضم الشيشان إلى سيادتها، وتواردت موجات متتالية من الحروب بينهما، كان أهمها أحداث ١٨٦٤، ١٨٧٧ حيث قامت القوات الروسية بالرد بحروب دموية على المحاولات الشيشانية للمطالبة بالحرية والاستقلال. استغل الشيشان انشغال الروس فى الحرب العالمية الأولى فأعلنوا فى مايو ١٩١٨ تشكيل جمهورية

اتحاد شمال القوقاز، وهى الجمهورية التى اعترفت بها كل من ألمانيا والإمبراطورية العثمانية والنمسا وبلغاريا وروسيا البلشفية الشيوعية، غير أن روسيا البلشفية قامت فى عام ١٩٢٢ بغزو واحتلال جمهورية إتحاد شمال القوقاز. شهد عاما ١٩٢٩، ١٩٤٠ محاولات شيشانية لمقاومة النظام الشيوعى الروسى، ولكن قمعت روسيا الحركة بأسلوب دموى. فى فبراير ١٩٤٤ أصدر الرئيس السوفيتى ستالين أوامره بنفى الشعب الشيشانى كله إلى سيبيريا الجليدية فى شمال روسيا. استمر النفى ثلاث عشر عاما، حتى أصدر الرئيس السوفيتى خروشوف أوامره فى عام ١٩٥٧ بإعادة الشيشان إلى أراضيهم، وتشكيل جمهورية الشيشان – الأنجوش، وهى جمهورية ذات حكم ذاتى داخل الاتحاد السوفيتى. استمر الوضع الهادئ نسبيا حتى عام ١٩٩٠، وبعد أن أعلن الرئيس السوفيتى ميخائيل جوربا تشوف سياسة " إعادة البناء والمصارحة "، حتى ظهرت المطالب الانفصالية والاستقلالية من جانب عدد من جمهوريات الاتحاد السوفيتى الاتحادية، وأيضا ذات الحكم الذاتى. تشكلت فى عام ١٩٩١ حركة قومية باسم " مؤتمر عموم شعب الشيشان "، وفى شهر أكتوبر من نفس العام أعلن الجنرال جوهر دواديف استقلال الشيشان، وتم دعم هذا الاستقلال بالموافقة عليه داخل البرلمان الشيشانى فى مارس ١٩٩٢. رفض قادة الشيشان التوقيع على وثيقة " الاتحاد الروسى " ورفضوا الانضمام إلى هذا الاتحاد، فكان رد فعل الروس هو اجتياحهم العسكرى لشمال القوقاز، والذى بدأ فى ديسمبر ١٩٩٤، ثم سقوط العاصمة جروزنى فى نهاية نفس الشهر. هرب مقاتلو الشيشان إلى الوديان والمناطق الجبلية، وقاموا بشن الغارات الخاطفة والعمليات الانتحارية، وخطف الرهائن الروس داخل وخارج الأراضى الشيشانية. بعد أن صدرت موسكو فى يناير ١٩٩٥ قراراً بالقبض على دودايف بعد توجيه تهمة الخيانة له، ثم تيقنها من صعوبة حسم أمر صراع الشيشان عسكريا، قرر رئيس الوزراء الروسى فى أبريل من نفس العام بوقف العمليات العسكرية بدءا من أول مايو. وبعد مفاوضات مكثفة توصل الجانبان – الروسى والشيشانى – فى شهر يونيو إلى اتفاق مبدئى يتم

بمقتضاه نزع سلاح فصائل المقاومة الشيشانية تدريجيا، مقابل سحب القوات الروسية من الشيشان على مراحل، وتمركز ستة آلاف جندى حول العاصمة جروزنى ومدن شيشانية أخرى. أدان رئيس وفد المفاوضات الشيشانى عثمان إيمابيف الإرهاب، وتعهد بالتعاون مع موسكو فى القبض على شامل باسييف ورفاقه الذين قاموا بعمليات إرهابية. وافق دودايف، وصادقت لجنة الدفاع الشيشانية برئاسته على الاتفاق، ولكنه أقال رئيس الوفد الشيشانى الذى قام بالتفاوض.

لم يهل السلام فى الشيشان بعد الاتفاق العسكرى، فلم تتوقف الاشتباكات العسكرية من الطرفين، وقامت الشيشان بتعليق مشاركتها فى مفاوضات التسوية السياسية، ووقف تنفيذ الاتفاق العسكرى احتجاجا على استمرار الغارات الجوية والقصف المكثف للعاصمة جروزنى، والمدن الشيشانية الأخرى. ومن الجانب الآخر، أعلنت روسيا أن أعمال القصف تأتى ردا على عدم التزام الشيشان بوقف جميع الأنشطة العسكرية، وكذلك عدم تسليم المقاتلين الشيشان لأسلحتهم حسب الاتفاق المبرم. وكالعادة حاولت بلاد عديدة، ومنظمات دولية، ومراكز قوى، أن تدخل ساحة الصراع، كلٌّ يحاول أن يستغل المواقف والتطور فيه لكسب نقاط ضد أطراف أخرى. واستمر الصراع ، وما يسمى بالاستشهاد من طرف، أو ما يسمى بالإرهاب من الطرف الآخر، فى انتظار اندلاع صراع آخر فى بقعة أخرى من كوكب الأرض، وإخماد نار موقدة فى موقع لإشعال نار حرب فى موقع آخر، فى لعبة أمم يكسب فيها الكثير من لهم مصالح مادية، ويخسر فيها الكثير – فى الدنيا – من عاشوا بالعقيدة. إن وجوب استمرار المعارك وتدمير السلاح هو الإطار العام للصراع، ولتصنيع أسلحة جديدة متطورة، إنها القاعدة الأساسية للعبة الأمم، أو لعبة المصالح، أو لعبة إثبات الذات، أو إشباع لغرائز عدوانية حتمت على الإنسان، وفى الغالب تتفاعل جميع هذه الأسباب ليستمر الصراع – وهو قدر الإنسان.



خاتمة

هل كانت أسباب الحروب الدينية من أجل الإله؟ ....

قد يكون البعض منها خالصة النيات، ولكن يتبقى الكثير التى تستخدم اسم الدين كواجهة للصراع بدلا من الأسباب الخفية. تعددت أسباب قيام الصراعات ونشوب الحروب، ولكن يمكن تخليص أهمها فى النقاط التالية:

- الطبيعة العدوانية للجنس البشرى، فالبشر كما وصف الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز أنانيون وطماعون، ولا يهتمون إلا بتلبية احتياجاتهم وإشباع شهواتهم. وصف الفيلسوف الهولندى باروخ اسبينوزا الطبيعة البشرية بوجود صراع هائل داخل الإنسان بين قوى الهوى والقوى العاقلة، ولكن غالبا ما ينتصر الهوى على العقل. ويرى عالم النفس سيجموند فرويد أن السلوك العدوانى للبشر نابع من دوافع لا شعورية بعيدة العمق فى النفس البشرية، فالعدوان صفة سلوكية عند جميع البشر، وهو مرتبط بكل من غريزة حب البقاء التى تسعى للحفاظ على حياة الإنسان، وغريزة الموت الذى قد ينشده البعض من أجل تحقيق ذاته وإثبات وجوده. ذهب فرويد أيضا إلى أن الإنسان الذى خلق الحضارة وأصبح يتغنى بها، إنما يصنع من خلالها نوعا من القيود التى تحده من ممارسة اللذات، ومن ذلك القمع والكبت ينشأ العدوان الذى قد يوجهه الفرد إلى ذاته أو قد يتوجه به إلى الآخرين، وعليه قد يصبح البشر المتحضرون تعساء أو همجيين فى بعض الأحيان. إن الإنسان فى رأى فرويد لن يستطيع الفرار من دعوة الطبيعة البشرية التى يغلب عليها البحث عن اللذة، وبالتالى لن يهرب من حتمية الصراع والحروب، ما لم يتجه – بقدر معين – إلى إنكار الذات، والصبر على ما يصاحبه من ألم الحرمان.

- اتجاه بعض الدول إلى تحويل الأنظار عن الصراعات الداخلية، وأوضاعها المتدهورة، فعندما يتعرض نظام الحكم أو الحزب الحاكم لمعارضة سياسية، أو انقسامات لدى مسئول الحكم، أو تدهور فى الحالة الاقتصادية، أو عند حدوث نزاع مدنى أو تمرد أو عصيان، فإن الزعماء السياسيين يسعون إلى إدخال البلد فى مناخ الحرب، وقد تصل الحالة إلى شن الحرب فعلا على اعتقاد أن الحرب ستساعد على التفاف جماهير الشعب حول الفئة الحاكمة، وإلهائه عن الحالة المتردية التى وصلت اليها البلد.
- إن سباق التسلح وتكديس السلاح والمتاجرة فيه، وعدم تقرير التوازن النسبى فى القوى بين الدول أو بين الجماعات، يساعد على تزايد الميل إلى الحرب، فإذا أدرك أحد طرفى النزاع أنه أقوى من الطرف الآخر، فإن الدافع لشن الحرب يتولد، ثقة فى إحراز النصر، والحصول على مكاسب مادية ومعنوية .
- الاختلافات الإقليمية فى إدعاء الأحقية حول حدود دولتين متجاورتين، أو ضم أراض بأسانيد تاريخية أو قومية، أو الأطماع فى الثروات الطبيعية (مياه، طاقة، معادن، ..)، أو الرغبة فى وضع اليد على أراض إستراتيجية أو مجارٍ مائية.
- الثأر من هزيمة سابقة ، فعندما تتغلب الكرامة على تبعات ويلات الحرب ، فإنه يتولد دافع داخلى لشن حرب جديدة من أجل الثأر من هزيمة حرب سابقة حتى لو كانت عناصر القوى فى غير صالح الدولة التى تشن الحرب.
- وأخيرا، فرض دولة / جماعة ما عقيدة تعتنقها أو إيدلوجية تتبناها، على شعب دولة أخرى أو على جماعة أخرى من أجل انتشار هذه العقيدة أو هذه الأيدلوجية.

يعتبر التعصب هو الوقود الأساسى الذى يغذى نيران الصراع العقائدى، والتعصب عامة هو الميل إلى فكرة / رأى / عقيدة ما، أو الاتجاه نحو أو النفور من فرد أو جماعة ما. فالتعصب قد يكون سلبيا بمعنى البعد والنفور، أو إيجابيا بمعنى الميل والاتجاه نحو موضوع التعصب . كانت العقيدة الدينية – وما زالت – الموضوع الرئيسى للتعصب، لذا أصبح من السهل توظيفها واستخدامها فى معظم أحداث الصراع. إذا كان فى الغالب ما يكون سبب الصراع هو الإحباط، فإن فى كثير من الأحيان يسمح أطراف الصراع بدخول العنصر الدينى فى الصراع القائم من أجل اجتذاب أكبر قدر من الدعم والمساندة من الذين يعتنقون نفس العقيدة.

استغل كل من هتلر وموسولينى خاصية الاستهواء، التى تعتبر من خصائص الشخصية البشرية، تجعل الفرد يتقبل أفكاراً معينة دون أن يحاول نقدها أو تمحيصها. يرجع الاستهواء إلى سببين رئيسيين، أولهما: عندما يكون الفرد فى حالة عقلية غير ملائمة للحكم واتخاذ القرار، وبذلك يتقبل الأفكار على علاتها. أما السبب الثانى فهو سيطرة العقائد والأفكار الثابتة على التفكير. يكون الفرد أكثر قابلية للاستهواء عندما يكون فى حالة من القلق والارتباك الذهنى أو عدم الرضا، تجعله فريسة لقبول أى أفكار تصل إليه. فعندما تتعرض الأفراد أو الشعوب لحالة من عدم الأمن الاقتصادى والسياسى، أو فى حالات المعاناة من الجوع والحرمان والفوضى والاستبداد، ومع التركيز الإعلامى فى الدعاية والإعلان، يصبح الفرد سلس القيادة، ويمكن توجيهه بسهولة نحو هدف المستفيد.

لم يتوقف الفرد أو الدول عن استغلال العقيدة الدينية على مر العصور بدءا من الحضارات الأولى وقبل نزول الأديان السماوية وحتى الزمن الحالى. لقد استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية الجماعات الإسلامية وعلى رأسها بن لادن للقضاء على الشيوعية والتدخل السوفيتى فى أفغانستان، من أجل مصلحتها

الاقتصادية والسياسية. ردد الاتحاد السوفيتى فى الماضى شعـــار "التعـايش السلمى" و "الحياد الإيجابى" لنشر إيدلوجويته الشيوعية فى الدول الفقيرة. استغل الغرب بابا الفاتيكان الكاثوليكى يوحنا بولس الثانى البولندى الأصـل لمحاربـة الشيوعية فى بولندا، لقد زار البابا بلده الأصلى فى عام ١٩٧٩ بعـد أن تـولى منصبه بعام، واستمرت الزيارة أربعة أيام، ولكنه ظل مقيما فى بولنـدا بروحـه وكلماته وبركاته، وأصبحت الكنيسة بعد زيارته قوة رئيسية فى توجيه الأحـداث حتى سقوط النظام الشيوعى فى عام ١٩٨٨. وبالرغم من اتجاه الغـرب إلـى العلمانية، وتناقص الديانة الكاثوليكية فى أمريكا الشمالية إلى حـوالى ٧٪، فـإن نظام الحكم فى الولايات المتحدة وهى أكبر قوة فى العالم كانـت تتمـسح فـى بركات بابا الفاتيكان . لقد لبس الجميع رداء الدين، وأصبح كـل فـرد يستـشهد بأجزاء من كتابه المقدس، بغض النظر عن الإيمان أو عدم الإيمان بما يقوله أو يفعله. دخل الإنسان فى منظومة القطيع، وبعد عن الاجتهاد، ضاغطا على الذات الخلاقة فى اتجاه التستر والانزواء. أصبح الإنسان بعيداً عن ذاته، معتقـدا أنـه قريب من الجماعة، وبذلك إذا فسدت الجماعة فقد انتهى الإنسان، ويزول الجنس البشرى الذى ميزه الله بعقله وذكائه.

استطاع اليهود توظيف إبادة النازية لليهـود أو مـا يـسمى بالهولوكـست Holocaust، وهى كلمة يونانية الأصل تعنى " حرق القربـان بالكامـل ". لقـد كانت الهولوكوست محور العديد من الكتب والأفلام السينمائية خـلال النـصف الثانى من القرن العشرين، وأقيمت نصب تذكارية للإبادة فـى بعـض المـدن الأمريكية. تمكنت إسرائيل من جمع تعويضات من ألمانيا بلغت حوالى سـبعين بليونا من الدولارات فى خمسة وثلاثين عاما، مقابلاً مالياً لما لحق اليهـود مـن جرائم ضد الجنس اليهودى، فاستطاعت هذه التعويضات أن تدعم اقتصاد دولـة إسرائيل بالإضافة إلى المعونات الأمريكية المتواصلة والقائمة حتـى الآن. لقـد تحولت إبادة هتلر لليهود إلى أسطورة، جاورت أسـطورة الماسـادا Massada

التى تحكى عن إقناع القائد اليهودى إليعازر لرفقائه بالانتحار الجماعى بدلا من الوقوع فى الأسر، بعد أن احتموا فى قلعة الماسادا كآخر قلعة يهودية سقطت فى أيدى الرومان أثناء التمرد اليهودى ضد الإمبراطورية الرومانية عام ٧٣ ميلاديا . لقد تحولت الماسادا إلى رمز للصمود اليهودى، ولحن عقائدى فى معزوفة العودة إلى أرض الميعاد، والتشبث بما وعدهم به إله بنى إسرائيل. لم يترك أبناء العم أى مجال دون استغلال لتحقيق الأهداف، بينما اختلفنا نحن العرب حتى الآن فى تحديد الأهداف.

ستصبح المياه قضية حيوية لعالمنا العربى قبل نهاية هذا القرن، تاركين ملعب الأحداث فى أفريقيا يموج باللاعبين دون أن يكون لنا دور ملموس فى قضية "حياة أو موت". امتلأ الملعب الأفريقى جنوب الصحارى بلاعبين من الولايات المتحدة وأوروبا الغربية وإسرائيل، كما حل الصينيون محل الاتحاد السوفيتى المنحل. لماذا لا نستغل نحن العرب العقيدة الإسلامية التى نشرها أجدادنا فى كثير من البلاد الأفريقية فى التغلغل سياسيا واقتصاديا وعسكريا، واستيطان مكثف حول مصادر المياه؟ إن نصيب مصر من مياه نهر النيل حاليا ٥٥,٥ مليار متر مكعب سنويا، لن تكفى إلا للشرب والصناعة فى نهاية هذا القرن، ولن يتاح أى مورد مائى للزراعة، بينما تبلغ كميات الأمطار التى تسقط على الكنغو وحدها حوالى ٣٦٠٠ مليار متر مكعب سنويا، وعلى السودان حوالى ١١٠٠ مليار متر مكعب سنويا، وعلى أثيوبيا حوالى ٨٢٠ مليار متر مكعب سنويا، تضيع معظم هذه الكميات الهائلة من المياه ، إما بسريانها حتى تصب فى المحيط، أو بالتبخر. إن الدين ما زال أكثر العقائد جذبا خاصة فى دول تماثلنا فى الثقافة وتقاربنا فى الجوار، استغله الكثيرون من أجل مصالحهم الشخصية، بينما نحن نكتفى بالدعاء، ومناشدة الأمل دون عمل.



المراجـــع

١- "الفكر الإنسانى " - د. محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠٦.

٢- "منظومة القوى" - د. محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠٥.

٣- "الإنسان - السيد ... العبد" - د. محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠٤.

٤- "ثورة العقل - تغيير واقع الكيان العربى" - د. محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر -٢٠٠٤ .

٥- "مستقبل الفلسفة فى القرن الواحد والعشرين" - تحرير أوليفـــر ليمان - ترجمة مصطفى محمود محمد - عالم المعرفة - الكويت - مارس ٢٠٠٤.

٦- " فصول فى الفلسفة ومذاهبها"- س . جود - ترجمة د. عطية محمود هنا، ود. ماهر كامـــل الهيئة المصرية العامة للكتاب -٢٠٠٣.

٧- " دفاع عن الإنسان - دراسات نظرية وتطبيقية فى النماذج المركبة " - عبد الوهاب المسيرى - دار الشروق - ٢٠٠٣.

٨- "الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر- الاقتصاد العالمى، الدولة القومية، المحليات" - بيترتيلور، وكولن فلنت - ترجمة عبد السلام رضوان، د. إسحق عبيد - عالم المعرفة - الكويت - يونيو ٢٠٠٢.

٩- " السياسة الدولية " - الأهرام - يوليو ٢٠٠٢.

١٠- " تاريخ العالم الإسلامى " -د. حسن حبشى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٢ .

١١- " قدر الإنسان بين الصراع والسعادة " -د. محمد الجزار -مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠١.

١٢- "الكون - بداية ... نهاية"- د. محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠١.

١٣- " الجذور التاريخية للصراع العربى الإسرائيلى " - مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠١.

١٤- " دولة الإسلام فى الأندلس " - محمد عبد الله عنان - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠١.

١٥- "السياسة الدولية " - الأهرام - يناير ٢٠٠٠.

١٦- "موسوعة الأديان القديمة - معتقدات يونانية ورومانية " - د. كامل سعفان - دار الندى - ١٩٩٩.

١٧– "القضية الأفغانية وانعكاساتها الإقليمية والدولية " – تحرير د. إبراهيم عرفات – مركز الدراسات الأسيوية – كلية الاقتصاد والعلوم السياسة – جامعة القاهرة – ١٩٩٩.

١٨– "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية – نموذج تفسيرى جديد " – عبد الوهاب المسيرى – دار الشروق – ١٩٩٩.

١٩– "صدام الحضارات – إعادة صنع النظام العالمى"– صامويل هنتنجتون – ترجمة طلعت الشايب – سطور – ١٩٩٨ .

٢٠– "موسولينى" – جوسيبى دى لونا – ترجمة د. عادل دمرداش – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٧.

٢١– "لماذا تنشب الحروب؟ – جزءين" – جورج كاشمان – ترجمة د.أحمد حمدى محمود – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٦ .

٢٢– "دفاتر العنف المقدس" – خوان غويتيسولو – ترجمة د. طلعت شاهين – مصر العربية للنشر والتوزيع – ١٩٩٦.

٢٣– "التقرير الإستراتيجى العربى – ١٩٩٥" – مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية – الأهرام – ١٩٩٦.

٢٤– "تحول السلطة"– ألفين توفلر – ترجمة لبنى الريدى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٥.

٢٥– "المماليك فى مصر" – أنور زقلمة – مكتبة مدبولى – ١٩٩٥ .

٢٦– "الموسوعة العربية الميسرة" – إشراف محمد شفيق غربال – دار الجيل – ١٩٩٥.

٢٧– "المسلمون فى الأندلس" – رينهرت دوزى – ترجمة د. حسن حبشى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٥ .

٢٨– "المفهوم السياسى والاجتماعى لليهود عبر التاريخ من العهد القديم إلى مفاوضات السلام الأوسطية" – د. حسين شريف – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٥.

٢٩– "تاريخ دولة المماليك في مصر " – وليم موير – ترجمة محمود عابدين وسليم حسن – ١٩٩٥.

٣٠– "من هم التتار؟" – د. أبرار كريم الله – ترجمة د. رشيدة رحيم الصبروتى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٤.

٣١- "الطاغية – دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى " – د. إمام عبد الفتاح إمام – عالم المعرفة – الكويت – مارس ١٩٩٤ .
٣٢- "تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية القرطبى"– مؤسسة المعارف للطباعة والنشر – بيروت – ١٩٩٤.
٣٣- "آلهة المصريين"– والاس بدج – ترجمة محمد حسين يونس– مكتبة مدبولى – ١٩٩٤.
٣٤- "المعتقدات الدينية لدى الشعوب"– جفرى بارندر – ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام – عالم المعرفة – الكويت – مايو ١٩٩٣.
٣٥- "قيام الدولة العثمانية"– محمد فؤاد كوبريلى – ترجمة د. أحمد السعيد سليمان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٣.
٣٦- "موسوعة علم النفس والتحليل النفسى"– د. فرج عبد القادر طه – دار سعاد الصباح – ١٩٩٣.
٣٧- "التحليل السياسى الحديث " – روبرت أ. دال – ترجمة علا أبو زيد – مركز الأهرام للترجمة – ١٩٩٣.
٣٨- "السلطان المنصور قلاوون"– الدكتور محمد حمزة الحداد – مكتبة مدبولى – ١٩٩٣.
٣٩- "موسوعة تاريخ الحضارات العام " – أندريه إيمار وآخرين – ترجمة يوسف داغر وآخرين – دار منشورات عويدات – ١٩٩٣.
٤٠- "كيف ضاع الإسلام من الأندلس بعد ثمانية قرون ...؟– مأساة الفردوس المفقود"– دكتور عبد الفتاح مقلد الغنيمى – ١٩٩٣ .
٤١- "أبعاد الصراع فى البوسنة – الهرسك"– عماد جاد – السياسة الدولية – مطابع الأهرام – يوليو– ١٩٩٣.
٤٢- "علم النفس الاجتماعى" – وليم لامبرت ، وولاس لامبرت – ترجمة د. سلوى الملا – دار الشروق – ١٩٩٣.
٤٣- "علم السياسة"– جان مارى دانكان – ترجمة محمد عرب – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٩٩٢.
٤٤- "قصة الحضارة" –ول ديورانت –ترجمة محمد بدران –دار الجيل –بيروت ١٩٩٢.
٤٥- "الفرصة السانحة" –ريتشارد نيكسون –ترجمة أحمد صدقى مراد –دار الهلال –١٩٩٢.

٤٦- "البوسنة والهرسك" د. جمال الدين سيد محمد - دار سعاد الصباح - ١٩٩٢.
٤٧- "الحب والحرب والحضارة والموت"- سيجموند فرويد - ترجمة د. عبد المنعم الحفنى - دار الرشيد - ١٩٩٢.
٤٨- "الفلسفة وقضايا العصر - ٣ أجزاء"- جون ر. ربورر ، ميلتون جولدينجر - ترجمة د.أحمد حمدى محمود - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩١ .
٤٩- "أسلحة الدمار الشامل : الكيماوية - البيولوجية - النووية"- د. منيب الساكت ، د. ماضى البجغبير ، وغالب صباريني - زهران للنشر والتوزيع - ١٩٩١ .
٥٠- "عقيدة المسلم"- محمد الغزالى- دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع - ١٩٩٠ .
٥١- "تاريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١م" - دكتور محمود سعيد عمران - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٩٠ .
٥٢- "الشركات دولية النشاط"- دكتور محمد ابراهيم عبد الرحمن - الأهرام الاقتصادى- نوفمبر ١٩٩٠.
٥٣- "سيكولوجية الخوف"- يوسف ميخائيل سعد - نهضة مصر- ١٩٩٠.
٥٤- "موسوعة نظم وأساليب الحرب الحديثة"- لواء أحمد نور زهران - مطابع الأهرام التجارية - ١٩٨٩.
٥٥- "سيكولوجية الجماعات والقيادة"- د. لويس كامل مليكه- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٨٩.
٥٦- "استخدام القوة فى القانون الدولى"- علاء الدين حسين مكى- دار الشئون الثقافية - دار الشئون الثقافية العامة - ١٩٨٨.
٥٧- "الدافعية والانفعال" - ادوارد موراى - ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة - دارالشروق - ١٩٨٨.
٥٨- "إدارة الصراعات الدولية - دراسة فى سياسات التعاون الدولى" - د. السيد عليوه - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٨ .
٥٩- "استخدام القوة فى القانون الدولى"- علاء الدين حسين مكى - دار الشئون الثقافية - دار الشئون الثقافية العامة - ١٩٨٨.

٦٠- "صنع القرار السياسى فى منظمات الإدارة العامة"- د. السيد عليوه - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٧ .
٦١- "المغول"- الدكتور السيد الباز العرينى - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٨٦.
٦٢- "موسوعة التاريخ الإسلامى" - الدكتور أحمد شلبى - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٨٤.
٦٣- "أخبار الدولة السلجوقية"- صدر الدين بن على الحسينى - دار آلافاق الجديدة - بيروت ١٩٨٤.
٦٤- "الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام"- محمد سيد الكيلانى - دار الفرجانى - ١٩٨٤.
٦٥- "معالم التحليل النفسى"- سيجمند فرويد - ترجمة د. محمد عثمان نجاتى - دار الشروق -١٩٨٣.
٦٦- "من توجيهات الإسلام" - محمود شلتوت - دار الشروق - ١٩٨٣ .
٦٧- "قوة الإرادة" - يوسف ميخائيل أسعد - مكتبة غريب - ١٩٨٢ .
٦٨- "علم النفس الفردى" - دكتور إسحق رمزى - دار المعارف - ١٩٨١ .
٦٩-"تجارة السلاح والعالم الثالث" - د. سامى منصور - مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام - ١٩٧٩ .
٧٠- "العقل والمعايير"- اندريه لالند - ترجمة د. لطفى لوقا - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٩.
٧١- "الفكر الإسرائيلى وحدود الدولة"- عادل محمود رياض- المنظمة العربية للتربية والثقافة - ١٩٧٧.
٧٢- "القوى الخفية التى تحكم العالم - ترجمة كتاب مجموعات الضغط الدولية" - جان مينو - ترجمة محمد كامل حسن، ومحمد فوزى محمود- دار البحوث العلمية- ١٩٧٣.
٧٣- "تطور الفكر السياسى" - جورج سباين - ترجمة حسن جلال العروسى - دار المعارف - ١٩٧١.
٧٤- "لعبة الأمم"- مايلز كوبلان - ترجمة مروان خير- مكتبة الزيتونة - بيروت - ١٩٧٠.
٧٥- "الدوافع النفسية"- دكتور مصطفى فهمى - دار مصر للطباعة - ١٩٦٨.

٧٦- "السلم المسلح"- غاستون بوطول - تعريب أكرم ديرى، ومحمد رائف المعرى - المكتبة العصرية - بيروت - ١٩٦٧.
٧٧- "شجرة الحضارة" - رالف لنتون - الدكتور أحمد فخرى - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٦١.
٧٨- "مشكلات الحياة الانفعالية" - سيرجيون إنجلش وجيرالد بيرسون - مؤسسة المطبوعات الحديثة - ١٩٥٨.
٧٩- "نيتشـه"- د. عبد الرحمن بدوى - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٥٦.
٨٠- "فن الحرب" - كارل فون كلازو فيتز - ترجمة أكرم ديرى ، وهيثم الأيوبى - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر .
٨١- "الحروب الصليبية"- الدكتور سهيل زكار - دار حسان .
٨٢- "كفاحى"- أدولف هتلر - منشورات المكتبة الأهلية - بيروت .
٨٣- "مشكلة الإنسان " - د. زكريا إبراهيم - مكتبة مصر .